

رواية



١٩٤٦ - ٢٠١٦

الكتاب السادس





الهيئة المصرية العامة للكتاب

أحمد، جيهان محمود  
نور حياتى/ جيهان محمود أحمد القاهرة  
الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٨  
٩٧٨ ٩٧٧ ٩١ ٢٠١١ ٩  
١- القصص العربية  
رقم الإيداع بدار الكتب ٢١٥٩٩ / ٢٠١٨  
I.S.B.N 978-977-91-2011-9

رئيس مجلس الإدارة

د ٠ هيثم الحاج على

رئيس الإدارة المركزية للنشر

د ٠ سهير المصادفة

الإخراج الفنى

إلهام عارف

التصحيح اللغوى

محمد محسن

حقوق الطبع والنشر محفوظة للهيئة المصرية العامة للكتاب  
يحظر إعادة التشر أو النسخ أو الاقتباس إلا بإذن كتابى  
من الهيئة المصرية العامة للكتاب أو بالإشارة إلى المصدر

نور حياتى

رواية

تأليف/ جيهان محمود أحمد

رواية

# نور حياتي

---

جيهان محمود أحمد



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠١٨

## إهداء

إلى بورسعيد الباسلة التي منحت وطننا الغالي "مصر" الحياة  
بدماء أحرازها.

و

إلى أمي - رحمها الله - التي أدين لها بالفضل بعد الله سبحانه  
ونعالي.

جهان محمود أحمد

القاهرة ٢٠١٦ م

## الفصل الأول : النور والظلمة

وأنا في الظلام من غير شعاع يهتكه

أقف مكانى بخوف ولا أتركته

ولما بيجى النور وأشوف الدروب

أحتار زيادة ٠٠ أيهم أسلكه؟!

عجبى !!

صلاح جاهين

(١)

"اذبهى إلى الجحيم أيتها الشيطانة" .

بعينين يتظاير شر الكراهةية منها أطلق يوسف كلماته وأتبعها بطلقة استقرت في قلب المرأة التي يحجب الظلم الدامس ملامحها تماماً، فسقطت جثة هامدة، ظهرت امرأة أخرى من بعيد تقترب منه، وكلما اقتربت خطوة اقترب متحفزاً مطبقاً يده على مسدسه حتى أصبحت على مسافة قريبة منه دون أن تتضاح ملامحها، فأطلق رصاصته لتسقر في قلبها فسقطت بلا حراك .

باغته ضوء قوى من بعيد، فأشباح بيديه مبعداً الضوء الذي زحف نحوه فركض يوسف هرباً منه فتبعته الضوء، فظل يركض وفجأة اصطدمت جبهته بحائط سقط مغشياً عليه .

انتقض يوسف تتسرع دقات قلبه لا هثاً، يتأمل الحجرة فزعاً ثم بدأت السكينة تتسلل إلى نفسه رويداً رويداً مع تسلل شعاع الشمس بخفة غازياً ظلام الحجرة، ولكنه يعجز عن غزو القلوب المظلمة لتشرق وتنبض فيها الحياة .

القلوب المظلمة لا يغزوها سوى قلوب مضيئة حُلقت على شاكلتها وتناقضت في نبضها لمنحها الحياة، لكن حرارة الشمس لم تنفذ إلى قلب يوسف المتجمد، فتقلب في فراشه محاولاً إبعاد النور عن عينيه، لا يدرى هل يزيد إبعاده عن عينيه أم عن قلبه؟ هذا القلب الذي ارتبط بالحياة بدقائق كبندول الساعة تعلن عن وجودها لا عن حياتها .

تثاءب يوسف وظل يحملق في الحجرة المظلمة إلا من نور الشعاع المتطفل، فضل يرقبه ساخطاً شارداً في ذلك الحلم الذي يراوده من حين إلى آخر، واستقر في عقله أنه سيصير قاتلاً يوماً ما، فأصابه ذلك بالفزع.

لم يطل شروده كثيراً قرر أن ينهض من سريره وجذب الستائر وفتح النافذة متأملاً الحديقة التي يطل عليها منزله بحى المعادى، ثم رفع رأسه نحو السماء فبدأ ضوء الشمس قوياً لا يحتمله فحجبه بكفه ثم أغلق النافذة وجذب الستائر، وتناول المنشفة ثم اتجه نحو الحمام ووقف تحت الصنبور تتدفع منه المياه بقوة تتناثر على وجهه وجسده، بينما كان يوسف شارداً تماماً.

لقد حباه الله مقومات الجاذبية من الصبا إلى القوام المشوق، والوجه الوسيم الذى نحته الخالق كما ينحت المثال المحترف تحفة رائعة فجاءت عيناه الواسعتان العميقتان تجذبانك كما تُجذب الفراشة نحو النور، وسرعان ما تكتشف جمودهما بعد أسرك فتحترق كما تحرق الفراشة بالنار، وأنفه يعبر عن كبرىاء واعتزاز بالذات وشفقان مطبقتان معظم الوقت تؤثران الصمت على الكلام فلا تخرج مفرداته إلا للضرورة.

أغلق يوسف الصنبور وجف وجف وجهه ولف المنشفة حول خصره، ثم خرج متوجهاً إلى حجرته فأضاء نور الحجرة التي بدت عامرة بقطع الأثاث الفاخرة، ولكنها تخلو من حياة فلا تعرف الزهور إليها سبيلاً، ولا اللوحات الفنية مكاناً ولا صوراً لأشخاص سوى صورته.

ارتدى السروال ثم القميص، وعلق رابطة العنق حول ياقه القميص  
دون أن يعدها، ثم وضع عطرًا إنجليزياً فواحًا وصف شعره  
الحريرى الأسود، وحمل سترته وغادر الحجرة.

اتجه إلى صالة الاستقبال التى تحوى ركين: الأول طاقم صالون  
ذهبى فاخر به جهاز إسطوانات (جراهامفون) وبجواره مكتبة تحوى  
إسطوانات لكتاب المطربين، والثانى يحوى سفرة فاخرة حفلت بألوان  
الطعام الفاخر من زبد وجبن فرنسي وبيض مسلوق وشرائح خبز  
وفنجان القهوة باللبن مشروب يوسف المفضل.

جلس عجوز إلى السفرة تجاوز الخامسة والستين من عمره، تملك  
الشعر الأبيض من رأسه ولكن لم تتملك علامات الزمن من وجهه الذى  
 بدا متماساً بجسد رياضي ينافض عمره، مرتدياً نظارة تعينه على  
القراءة، مشغولاً بمطالعة الصحيفة عما يحدث حوله فلم يلتقط إلى  
حضور ذلك الشاب الذى أشرف على تربيته، رغم أنه لا صلة دم  
ترتبطه به ولكنه ينتمى إليه أكثر مما لو جاء يحمل جيناته؛ حرم مختار  
الراوى - زوج عممة يوسف - من الإنجاب فمنحه الله ذاك الطفل الذى  
فقد والديه فى طفولته لقد جمعهما الحerman ثم الحب الذى نما مع  
الزمان، فصار ذلك الشاب قرة عينه وقلبه النابض بعد رحيل زوجته  
حبيبة العمر.

ظل يوسف برها يتأمل مختار الذى بدا مشغولاً تماماً بمطالعة  
صحيفة أجنبية عنه، فقرر يوسف أن يلفت انتباذه فتساءل وهو يضع  
الزبد على شريحة الخبز:

- عمى، ما الذى يشغلك؟

انتبه العجوز ورمه بنظرة من فوق نظارته ثم خلعها ووضعها على السفراة بضيق شديد تجاورها الصحيفة، فابتسم يوسف وقال:

- صباح الخير يا عمى.

- صباح النور يا يوسف.

أخرج العجوز غليونه من جيب قميصه ووضعه فى فمه، ثم أشعله ونفث دخانه فى الهواء مخرجاً شحنة غضب قوية، فتساءل يوسف:

- هل تحمل الصحيفة أنباءً سيئة؟

- نعم أنباء سوداء.

- لماذا؟!

- لقد رفض الأمريكان تمويل السد العالى.

يرشف العجوز من فنجان القهوة السادة الأثير لديه بينما يبدو يوسف غير مبالٍ:

- أمر متوقع يا عمى.

- لم أتوقعه؛ دائمًا لدى فيض من أمل يغذي روحي ويحميها من اليأس.

- إذا كان الأمل فى الله فليكن فيضانًا كفيضان النيل السعيد الذى نحلم أن يكتب جماحه هذا السد المرتقب، وإذا كان فى هؤلاء فليجف كجفاف النيل الذى نأمل مواجهته بهذا السد أيضًا.

– الأمل دائمًا في الله يا ولدى، ولكن إرادته تتحقق بالأسباب والبشر  
جزء من هذه الأسباب •

– البشر! ألا تتذكرة ما فعلوه باليابان في الحرب العالمية الثانية؟! ولكن  
الرئيس خارج البلاد كيف أعلنوا رفضهم؟!

يرشف يوسف من فنجان القهوة باللبن بينما ينفتح مختار دخان  
غليونه في غضب:

– هذه هي المهانة الحقيقة؛ استدعي وزير الخارجية الأمريكي  
"فoster Dallas" سفيرنا لديهم السيد "أحمد حسين" وأخبره بالرفض،  
وعندما خرج من مكتبه وجد وكالات الأنباء تذيع الخبر •

– إنها مهانة باللغة! ولكن ما أسباب الرفض؟

يشير مختار بكفه إلى الجريدة ثم يعقب:

– مصر دولة فقيرة وبناء السد سيجبر المصريين على تقشف أكثر من  
خمسة عشر عاماً، كما أنَّ مياه النيل ليست ملكاً لمصر وحدها؛ هناك  
دول أخرى على مجرى النهر •

– كذب فاضح ومهانة فائقة أراها تؤصل لسياسة جديدة ستتبعها أمريكا  
معنا،

– نعم وغالبًا يكمن السبب الحقيقي في السلاح الذي حصل عليه جمال  
عبد الناصر من المعسكر الشرقي ربما يرون أنه عميلاً للاتحاد  
السوفيتي، فقرروا القضاء عليه حتى يخسروا أول حليف لهم في  
العالم العربي ولا سيما أكبر دولة عربية •

- عميل للاتحاد السوفيتى! مازال الشيوعيون فى السجون وهذا يدل على رفضه استرضاء الاتحاد السوفيتى، كما أن مصر لا تنتهج سياسة شيوعية.

- هذا رأيك أنت أما هم فلهم رأى آخر هو ما يحرك الأحداث الآن.

- السبب الحقيقي يا عمى فى تقديرى هو الضغط عليه من أجل الاعتراف بإسرائيل، وقبول قرار التقسيم. وإن قبلت مصر سينيابها العرب وبذلك يضمنون أمن إسرائيل.

- هو لن يقبل بهذا مطلاً يا يوسف، والسؤال الذى يطرح نفسه الآن هل سيخضع ويتجاهل هذا المشروع العملاق أم سيواجههم؟

- أنت من طرح السؤال يا عمى وأنت أيضًا من سيجيب عنه.

- وما دورك فى النقاش؟! متفرج أنت إذن،  
يبتسم يوسف ثم يرشف من القهوة باللبن:

- إن تحليل شخصيات الناس جزء من عملك كطبيب نفسى.

- لقد فعلت ذلك على الفور منذ لاح نجمه فى الأفق.

- اعرض مهارتك إذن.

- إن المقدمات تأتى بالنتائج لقد صمد فى حصار الفالوجة فى حرب فلسطين وسط ظروف عصيبة وهذا يقودنا إلى شخصية ترفض الاستسلام، ولا تعرف إلا الصمود فى الأزمات.

- أضيف أمراً آخر حتى لا ألعب دور المترجر، توقيع اتفاقية الجلاء  
يشير إلى إصراره على الاستقلال لذا فالسؤال الآن: ماذا يدور برأس  
الأسد ردًا على الإهانة المزدوجة.

- لا أعلم ولكن في ضوء كل ما تقدم أستطيع أن أجزم أنه سيكون ردًا  
عنيفًا.

- وسيؤصل بصورة جديدة لمصر أمام القوى العظمى بل العالم كله.

- ولكن كيف السبيل يا يوسف إلى تمويل السد؟! وتكلفة بنائه باهظة

.

يبتسم يوسف مهوناً الأمر على الطبيب العجوز:

- لا تتعجل الأمور يا عمى، علينا أن ننسلح بالصبر في مواجهة  
الفضول القاتل، ولننتظر ما ستسفر عنه الأيام.

- أوقفك الرأي فلنضع حديث السياسة جانباً ولنتحدث عن الحياة.

- الحياة! حياة من؟!

- حياتك أنت يا ولدى.

يرمقه يوسف بنظره من فهم ولكنه يتجاهله فوراً ويرشف فنجان  
القهوة باللبن معقباً:

- أنا على خير ما يرام؛ أتقدم في عملي يوماً بعد يوم.

- أنت تعى ما أقصد.

- أنا لا أفهم ما ترمى إليه.

- سامحك الله أنت تصر على إيلامى وحرمانى من راحة البال .
- عمى أرجوك لقد أغلقنا هذا الأمر .
- لن أغلقه أبداً؛ لا أحتمل ان أترکاك وحيداً فى هذه الحياة ،
- لست وحيداً؛ لدى عملى الذى أعيشـه وهو اياتى، وحياتى التى ترضينى وتكتفينى .
- لاقيمـة لكل هذا بدون زوجة حنون تشارـكـاـك .

يقطـعـهـ يـوسـفـ بـحـدـةـ:

- إن قلبـى طـاهـرـ بـرـئـ لا أـرـيدـ أنـ تـدـنـسـهـ اـمـرـأـةـ، أوـ تصـبـيـهـ خـيـانـتـهاـ فيـذـبـلـ سـرـيـعاـ .
- بلـ سـيـذـبـلـ لأنـهـ لمـ يـعـرـفـ الحـبـ وـلـمـ تـدـخـلـهـ اـمـرـأـةـ، ماـ أـعـجـبـ هـذـهـ الـحـيـاةـ! طـبـيـبـ القـلـوـبـ لـاـ يـؤـمـنـ بـالـحـبـ الذـىـ يـشـفـىـ القـلـوـبـ .
- الحـبـ خـدـيـعـةـ تـجـيـدـهـاـ الـمـرـأـةـ لـاـحتـيـالـ عـلـىـ الرـجـلـ وـالـحـبـ لـاـ يـشـفـىـ بلـ يـقـتـلـ .
- لـمـ يـخـلـقـ اللـهـ الـبـشـرـ مـتـمـاثـلـيـنـ .
- هـذـاـ مـاـ أـرـيدـكـ أـنـ تـعـرـفـهـ، لـكـ قـنـاعـاتـكـ التـىـ أـحـتـرـمـهـاـ وـلـىـ قـنـاعـاتـكـ التـىـ أـرـجوـ أـنـ تـحـترـمـهـاـ .

يتـهـدـ العـجـوزـ وـيـشـعـلـ غـلـيـونـهـ فـىـ غـضـبـ شـدـيدـ بـيـنـماـ يـرـشـفـ يـوسـفـ  
الـقـهـوةـ كـاتـمـاـ غـضـبـهـ، يـرـمـقـهـ العـجـوزـ بـنـظـرـةـ تـبـئـ عنـ رـجـائـهـ فـىـ التـحدـثـ  
معـهـ فـىـ أـمـرـ مـلـحـ وـلـكـنـهـ يـتـرـاجـعـ .

يدق جرس الهاتف فينهض يوسف:

- إنها المستشفى بالتأكيد . لقد استدرجنا الحديث ونسخت العمل .

يتجه نحو الهاتف في ركن الصالون ويجيب:

- لو .. نعم أنا .. جهزوا غرفة العمليات أنا قادم فوراً .

يضع السماعة ويسرع نحو السفرة فيرتدى سترته ويعقد رابطة عنقه .

- يبدو أن المريض حالته خطيرة .

- نعم، على الذهاب فوراً .

يلتقط يوسف سلسلة المفاتيح متوجلاً:

- أراك مساء يا عمى بمشيئة الله .

ينصرف يوسف مسرعاً ويغلق الباب خلفه بينما يتهدد الطبيب العجوز:

- المساء يعني العبادة والمرضى ثم جلسة الشطرنج ثم النوم استعداداً إلى يوم آخر جدوله كسابقه ولاحقه رتيب؛ يحيل الحياة إلى عباء ثقيل .

يأتيه صوت من داخله مؤنباً ومعاتباً:

- لا تكن جاحداً بنعمة الله؛ فلديك عملك ومرضاك الذين لاتنتهي حكاياتهم وإن كانت مؤلمة فهى تحمل جديداً يحتاج إلى تفكيرك، وحينما تتمكن من تخفيف آلامهم تحقق سعادة تنسيك آلامك، وهذا الشاب الرائع الذى من الله به عليك . عن أى ملل تتحدث إذن؟!

- ربما أخطات التعبير وجانبى الصواب .  
يأتيه الصوت من داخله :

- ربما قصدت شعورك بالوحدة حينما تأوى إلى فراشك، تذكر أنك من فرضها احتراماً لذكرى حبيبة العمر، فلماذا الضجر والشكوى؟!

- إن الشكوى تراودنى أحياناً لأننى بشر يمل ويقفر، وأيتها إلى الله الذى يعلم طبيعة نفوسنا ويرحمنا ولا يسفه آلامنا، وبالتأكيد أحده على ما ذكرته أيتها النفس القاسية بل أزيدك من ذكر نعمه الصحة الموفورة ويسر الحال .

يتنهى مختار ثم يشعل غليونه ويرتدى نظارته ويعود إلى مطالعة الصحيفة من جديد .



(٢)

"ما أبدع شروقك يا بور سعيد!" .

بإعجاب عبرت "نور" عن مشهد الشروق .

بدا المشهد لوحة رائعة للطبيعة الخلابة، يقع منزل نور في "الحي الأفرينجي" بمدينة بور سعيد الذي يحاكي أحياe أوروبا ووفد سكانه من بلاد متعددة من هذه القارة، وأقام به بعض المصريين الذين ارتبطوا معهم بمصالح خاصة .

كانت نور ذات ملامح أجنبية، بشرتها بيضاء في نقاء القطن، وجنتها بلون حمرة الورد وأنفها دقيق، ذات شفاه رقيقة ولها عينان بلون السماء، ذات قوام ممشوق أشبه بقوام الفرنسيات؛ لها خصر نحيل متوسطة الطول، شعرها وحاجبها الكثيفان ينافسان سواد الليل .

لم يكن جمال نور يكمن في ملامحها بل كان له منبع آخر هو روحها المتألة، وقلبها المتسامح الذي يشبه في نقاءه قلوب الأطفال؛ لا ذاكرة له في إساءات الآخرين محب للحياة والانطلاق فجاءت ملامحها تشبه الأطفال رغم أنها كانت في الخامسة والعشرين من عمرها .

استنشقت نور الهواء النقي الذي يفوح بعطر زهور الحديقة، ثم قررت دخول حجرتها التي تقع في الطابق العلوي من منزلها المكون من طابقين . كانت حجرتها تشبهها؛ عنوان الجمال والحياة تزيّنها الزهور واللوحات البديعة التي كانت نور تبدعها بروحها الفنية .

أخذت نور المنشفة واتجهت إلى الحمام، وملأت حوض الاستحمام بالمياه ثم وضعت نقاط من زيت "اللافندر" أشاع في الحمام رائحة زكية تبهج النفس، ثم ألقت بجسدها في حوض الاستحمام وأغمضت عينيها واسترخت تماماً.

لقد اعتادت أن تبدأ يومها على هذا النحو ليمنحها طاقة من التفاؤل والبهجة تؤهلها لليومها وما يمكن أن يحمله من آلام أو ضغوط. بعد مرور ثلاثة دقيقتين نهضت ثم أفت المنشفة حول جسدها وخرجت ثم اتجهت إلى المرأة ونظرت إلى وجهها ثم ابتسمت وردت:

"سيكون يوماً جميلاً إن شاء الله أخذت العبوس والغضب؛ الحياة تستحق الابتسامة لنعبرها والرضا بما نلنا من نعم لنسعد بها، والصبر على ما يصيّبنا فعمره قصير كعمرنا" .

هذه العبارات ميراث نور من جدتها لأمها وهي بالنسبة لها ميراث أعظم من الذهب.

اتجهت نور إلى خزانة الملابس وانتقت ثوباً صيفياً بدبيعاً وردي اللون وارتدته، ثم لفت حول خصرها النحيل حزاماً جلدياً أبيضاً اللون، ولفت حول شعرها شريطًا أبيضاً ثم ارتدت حذاءً ذا كعب مرتفع أبيض يزيّنه وردة رقيقة وردية اللون على جانبه، ثم وضعت عطرًا فرنسيًا فواحةً وأرسلت إلى نفسها قبلة في المرأة.

انطلقت نور تتجه إلى السلالم متوجهة إلى الطابق السفلي. كانت والدتها تضع الطعام على المائدة والذى يحوى خبزاً وزبداً ومربي

وبىضاً وزيتوناً، ثم وضعت إماء الشاي وإناء السكر وفنجانين  
فارغينٌ.

كانت نور تشبه والدتها سارة في حسنها وجمالها، وإن كانت والدتها  
قصيرة القوام ممتلئة قليلاً. اتجهت نور نحو والدتها مبتسمة وطبعت  
على خدها قبلة رقيقة:

- صباح الخير يا أمي الحبيبة.
- صباح النور يا نور قلبى وحياتى، ما أروع صباحى حين يبدأ  
بابتسامتك المشرقة!
- استمدها من جمالك يا أمي.
- لقد ولى الجمال مع رحيل الشباب يا حبيبة قلبى الجمال الآن جمالك  
أنتِ.

- الجمال لا يرتبط بالعمر بل بإحساسنا ويمكن أن يلازمنا كدقائق قلباً  
مادمنا أحياً.

- ما هذه الفلسفة يا نور؟!

تضحك نور ثم تجلس إلى المائدة المستطيلة التي يجاورها خزانة  
للأوانى الصينية، يعلو سطحها لوح زجاجى كالمرآة فوقه زهرية بها  
ورويد، وجهاز أسطوانات يجاورها مكتبة.

تنأمل نور الزهور التي أوصكت أن تنبل فتنهض قائلة:

- لابد أن أذهب إلى الحديقة الآن.

- تناولى إفطارك ثم افعلى ما شئتِ .

- لن أستمتع بإفطارى إلا إذا ذهبت إلى الحديقة أولاً .

تحمل نور الزهرية وتذهب إلى المطبخ وتنتالو ما بها من زهور وتنشرها في أنحاء المطبخ فتشيع به رائحة زكية؛ ذبول الورد لا يعني ذهاب رائحته، ثم تفرغ ماء الزهرية وتضع ماء جديداً ثم تذهب إلى خزانة الأواني الصينية وتضع عليها الزهرية .

تبتسم سارة: "أنتِ رائعة يا نور" .

ترسل إليها نور قبلة عبر الهواء ثم تنطلق إلى الحديقة فتجمع باقة من الزهور متنوعة الألوان والأنواع فتقطفف عوداً من الريحان تشم منه شيبة برائحته، ثم تغسله تحت صنبور المياه الموجود داخل الحديقة، تنطلق فوراً إلى المنزل وتضع باقة الزهور في الزهرية ثم تجلس وتقطف ورقتين من عود الريحان تضعهما في إناء الشاي؛ كانت هي ووالدتها مغرمتان بتناول الشاي بالريحان كما كانت تضعه مع بعض الأطعمة، أعطت نور عود الريحان لأمها التي عبرت عن استمتاعها برائحته الزكية قائلة:

- ما أروع هذه الرائحة! ما أبدع الخلاق العظيم!

- الروائح الطيبة تبهج النفس وتزيل الهموم يا أمى .

تنتهي سارة وهي تضع عود الريحان على المائدة:

- لو كان الأمر على هذا النحو لهانت الأحزان وزال القلق من النفوس .

تنتبه نور إلى حزن يكسو ملامح والدتها فجأة فتعقب:

– ماذا بك يا أمى؟!

– لا شئ يا حبيتى ، تناولى إفطارك ،

– تبدين حزينة يا أمى أخبرينى بما يحزنك ،

– بل قلقة مما أذاعته الإذاعة فى الصباح ،

– ماذا حدث؟!

– لقد رفض البنك الدولى تمويل السد العالى ،

تضع نور الزيد على قطعة من الخبز غير مهتمة بما سمعت:

– أهذا ما يشغلك؟!

– نعم إن جمال عبد الناصر يبدو لي شخصاً متھوراً لا يمكن التنبؤ  
بردود أفعاله ،

– وما شأننا بالسياسة؟! إنها لعبة الدسائس والمؤامرات تدمر من  
يجيدونها فما بالك بالذين يجهلونها تماماً ،

– تحكم السياسة فى مصائرنا وأحزاننا وأفراحنا؛ كان مجئنا إلى  
مصر بسبب السياسة ،

– ما الذى يفاقك بالضبط؟

أجبت سارة وهى تصب الشاي:

– ربما انتقم جمال عبد الناصر من رعاياهم فى مصر ،

- عمن تتحدين؟

- عن الأمريكان . وإذا مس رعياهم بسوء فسيكون لهم رد فعل لا يعلم مدها إلا الله .

- ماذا تقصدين؟ أخشى أننى مازلت لا أفهمك .

رشفت سارة رشفة من فنجان الشاي ثم استطردت تقول:

- ربما أدى الأمر فى النهاية إلى نشوب الحرب .

- الحرب! لا أعتقد أن تصل الأمور إلى هذا الحد .

- بل تصل إلى أكثر من هذا . وال الحرب موت وخراب لا يدرك ويلاتها إلا من كابدها .

- لا تسلمى رأسك إلى الأفكار المتشائمة تبعث بها، فربما كانت أو هاماً فلا تدعيها تفسد حياتك .

- لا أعتقد يا ابنتى .

- إذن فعلينا أن نعمل بنصائح جدتي .

تبتسم سارة وتقول:

- كانت نصائح جدتك نبراساً لى في حياتي ولكنها لم تقنى شر الأيام التي غدرت بي وأذاقتني الآلام فأفقدتني الأمان، وهذا ينافق ما تعلمته من أمى .

- لانتسى أنها أيضاً دافت من الزمان الآلام ولكنها لم تقعد طعم الأمان .

- منذ توفيت هى ووالدى تولد لدى شعور بعدم الأمان فصرت أخاف عليك من ظلك .

- الأمان بالله . وقد سخر لنا بعد وفاتهما من يرعانا أطالت الله فى عمر خالى .

- الحمد لله ولكن القلق لا يفارقنى .

- عفوا يا أمى ، لنحيا اللحظة الحالية ننعم بما فيها من سعادة ولا نشغل بالنا بما يمكن أن يحدث فى اللحظة القادمة ، فربما كان ما يشغلنا مجرد أوهام تفسد حاضرنا ومستقبلنا .

- ربما كنتِ محقة ولكن هذا لن يمنع القلق عنى .

- لا تستسلمي لوساواسك يا أمى وإن حدث ما نخشاه فعلينا أن نخبر أنفسنا أن الصيق يأتي بعده الفرج وهذا يهون علينا الألم .

- سأحاول أن أقنع نفسي بما تقولين .

- هناك أمر آخر ، لاتتبعى نشرات الأخبار لأنها تميل إلى التهويل لجذب انتباھ الناس والسياسة كالنار تحرق كل من اقترب منها ، ونحن لا مصلحة لنا فيها فلا ينبغي أن ينالنا نيرانها .

تهض نور وتتجه نحو (الجرامافون) وتضع الأسطوانة به وهى تقول :

- هذه أسطوانة جديدة لليلى مراد تضم مجموعة من الأغانيات الرائعة .

تعود نور إلى الجلوس بينما تغنى ليلى مراد (جواب حبيبي) .

تبتسم نور منتشية بصوت ليلي مراد وتعقب : "ليلي مراد أميرة الغناء" .

- حقاً ولكن تظل أم كلثوم هي ملكة الغناء الأثيرة لدى .
- لا مانع لدى مطلقاً؛ كلتاهمَا تطربنِي وتهز مشاعري .

- وماذا عن الروايات؟

- إنها غذاء روحي وقلبي يا أمي الحبيبة .
- استيقظت في الواحدة ليلاً فوجدت حجرتك مضاءة .
- كنت أطالع رواية سلبت اهتمامي لم أستطع النوم إلا بعد الفراغ منها .

- ما اسمها؟

- غادة الكاميليا .

تنهدت سارة بقوه وشردت قليلاً ثم عقبت:

- إنها رواية رائعة رغم كل الأسى الذي يغلفها، لقد قرأتها في الماضي وأشفقت على المصير الأليم للبطلة الذي أسلمنى في نهاية الرواية إلى نهر دموع ينافس نهر النيل .

- عفوا يا أمي، هل تشعرين أنكِ واجهتِ نفس مصير البطلة؟!

تبتسم سارة:

- لا أعتقد؛ لم أستسلم مثلها بل قاومت آلامي جراء فراق والدك، كنت مجرد دماء في أحشائى والجسر الذي يربطني بالحياة وسد منيع بيني وبين اليأس الذي تربص بي من حين إلى آخر.

- ولكنك مازلت تحببئه رغم انفصاله عنك، بل ورحيله عن الحياة بعد ذلك!

- ربما كان هذا ما أتطابق فيه مع بطلة الرواية.

- إذن الحياة مسرح كبير كما نسمع وليس الروايات إلا سرداً لما يحدث في الحياة.

- العاقل من تعلم من تجارب الآخرين حتى يتتجنب وبلات الحياة.

- يمكننا أن نتعلم حقاً ولكن هناك أقدار كالسيل لا نستطيع إيقافها ولا مواجهة آثارها.

يقطع الحديث صوت جرس الباب فتنهض نور في حين تنظر سارة إلى ساعة يدها قلقة:

- من يأتينا في هذه الساعة المبكرة؟!

أجبت نور مبتسمة:

- إنهم سميحة وإيريني لقد اتفقنا على قضاء اليوم على الشاطئ.

تفتح نور الباب فترى سميحة صديقتها وهي شابة تماثل نور في العمر طويلة سمراء ذات عيون واسعة سوداء نحيفة، وإيريني ابنة نور

في العشرين تقربياً قصيرة نحيلة بيضاء عيناها بنيتان واسعتان  
وشفاهها رقيقة،

ابتسمت سميرة حينما رأت نور وحيثها:

ـ صباح الخير يا نور،

ـ صباح النور يا سمسم صباح الخير يا ريرى،

ـ صباح النور يا نور أسرتنا،

ـ تقضلا،

تدخل الفتاتان بينما تعلق نور الباب،

تبتسم سارة وتقول:

ـ صباح الخير أيتها الزهرتان الجميلتان،

ـ صباح الفل والياسمين يا عمتى الجميلة،

ـ صباح النور يا خالتى،

ـ كم أُعشق كلمة خالتى منك يا سميرة إنها تنبئ بما بداخلك من حب  
تجاه نور،

ـ وتجاهك أيضاً وأنا سعيدة أنها تناول حبك وكنت أخشى أن تناول  
ضيفك،

ـ لماذا تصورت ذلك يا سميرة؟!

- لأنها كلمة لاتتناسب مع "الحى الأفرنجى" بل تناسب حيناً "حى العرب" .

- كيف تفكرين هكذا وأنت تعلمين كيف دخل أبي بور سعيد؟! وفضل "حى العرب" علينا عظيم .

تشير نور إليهما بيدها قائلة:

- دعكما من هذا الحديث ولتناولوا الإفطار حتى نذهب إلى الشاطئ .

تضحك سميرة: "لقد أفترطت وتناولت شاي والدتي المضبوط" .

- وأنا أيضاً يا عمتى تناولت الإفطار .

- كما تحبان استمتعنا بوقتكما .

تحمل سارة الأطباق بينما تتهامس الفتيات فتر مقهمن سارة بنظرة حانية يخالطها إعجاب ثم تتجه إلى المطبخ . تقترب نور من السلم قائلة:

- انتظراني قليلاً سأصعد لأحضر أدوات الرسم ثم تتجه إلى الشاطئ فوراً .

تسرع نور إلى الطابق العلوى، بينما تقترب سميرة من (الجرامافون) تستمع إلى ليلي مراد فتقراص مع اللحن متظاهرة أنها تراقص شخصاً ما كما كانت ترى في السينما التي تعشقها وتدخل من راتبها لتدخلها في نهاية الأسبوع .

أما إيرينى فقد بدت شاردة حزينة انتبهت سميرة فلاحظت شرودها فتوقفت عن الرقص وخفضت صوت (الجراهامفون) وتساءلت:

– إلى أين وصلت يا إيرينى؟!

– إلى نفس المحطة.

– ماذا تقولين؟!

– إلى نفس مصير حوارى اليائس مع والدى.

تهز سميرة رأسها متفهمة وتقول: "عرис جديد".

– نعم يتمسك به والدى لتحقيق حلمه المجنون بينما يحيل حياتى إلى كابوس أكثر جنوناً.

– ولماذا لا تمنحين نفسك فرصة لمعرفته ربما تعلقت به؟!

– أنا لا أطيقه رغم وسامته وثرائه.

– لماذا؟!

– إنه عبد خاضع لرغبات أبيه، لا إرادة له مثلى وأنا أريد من يحررنى لا من يزيدنى قيوداً.

– تمطر سميرة شفتيا بينما تستطرد إيرينى:

– لقد ماتت أمى لأصبح ريشة تعصف بها إرادة أبي وطموحاته المجنونة.

– الحرية والعبودية بيدنا لا بيد الآخرين.

- ماذا تقصدin؟

- أقصد أنك تنتظرين من يحررك وهذا تصور خاطئ تماماً.

- لماذا؟

- الحرية لا يمنحها أحد لغيره مجاناً فلا بد أن تدفعى له ثمن تحريرك  
فسيكون قياداً جديداً.

تهبط نور حاملة حقيقة بيدها اليسرى وحامل الرسم باليمينى، وتقترب  
من الفتاتين فتلحظ الحزن والشروع على وجه إيرينى، فتنتظر إلى  
سميرة نظرة تساؤل فتشير إليها لتحاورها منفردتين بعيداً عن إيرينى.  
تقرب سميارة ونور من (الجراماфон) الذى تغلقه نور ثم تهمس إلى  
سميرة: "ماذا حدث؟!".

- كابوس جديد أقصد عريساً جديداً يتمسك به خالك تمسك قطٍ وقع فى  
صيادته فأر.

- لماذا؟ لا أدرى متى تنتهى هذه المسرحية السخيفة؟

- إن إيرينى هي الوحيدة التي تستطيع أن تنهى لأنها قصتها هي.

- إنها تريد ولكنها لا تستطيع.

- إننا نستطيع حينما نريد.

- لا ليس الأمر بهذه السهولة؛ من نشا خاضعاً اعتاد العبودية.

- وقد يشترى إلى الحرية وهي بالفعل تتمناها ولكنها لا تبذل جهداً  
للوصول إليها.

- تعالى معى أريد أن استوضح منها الأمر .
- تقرب نور من إيرينى وتربت على كتفها بحنان:
- ماذا حدث يا إيرينى؟
- كما أخبرتك سميرة فلست غائبة عن الوعى كما تعتقدان .
- لماذا يتثبت به خالى هكذا؟!
- إن والده ينوى السفر إلى "أرمينيا" وإقامة مشروع كبير هناك بمشاركة خالك .
- فهمت ولكن لماذا لا تحاولين اتخاذ موقف حاسم ولو لمرة واحدة فى حياتك؟
- كيف؟
- اطلبى مقابلته وأخبريه أنك لا تريدين الزواج به لا لعيب بشخصيته ولكن . . .
- تقاطعها إيرينى: "إنه مثلى لا يملك من أمر نفسه شيئاً لذا سيكون حديثى مع والده" .
- إنه كارثة وليس كابوساً كما تقول سميرة .
- تبكي إيرينى ثم تعقب: "فليرحمنى الرب" .
- تربت نور على كتفها : "لا تبكي يا حبيبى ودعى الأمر لى" .
- ماذا ستفعلين؟

- لا أعرف الآن سأفكر بصحبة دانيال وحتمًا سنجد حلًّا .
- لا يا نور لا أريد أن يصطدم دانيال بأبى مرة أخرى .
- أنت تتحدىن وكأن دانيال صديقًا لنا أو جارًا إنه أخوك وأنت تدركين كم يحبك .
- لهذا لا أريد أن يكون حبه لى كاللعنة التي تصيب علاقته بأبى .
- إن خالى يعيش من أجل حلم أصبح أسيرًا له، وينسى أنكما كبرتما وصار لكم مشاعر وأحلام تخصكم وإرادة منفصلة عنه .
- إرادة! تحدى عن دانيال فقط أما أنا فليرحمنى الرب وليعتنقنى من هذه الحياة لأجاور أمى والسيد المسيح فى عالم أفضل من هذا العالم البغيض .
- لا يا إبرينى لا يصل بك اليأس إلى هذا الحد، لماذا لا تتعلمين من دانيال الذى لا يعبأ بأحلام خالى وطموحاته، إنه يدخل من عمله معه فى الاستديو ليقيم مشروعًا خاصًا به فى مصر ليسقط عنه ولا يضطر إلى السفر معه إلى أرمينيا، ولا أعتقد أنه سيتزوج إلا من يريدها قبله .
- لم يخلفنا الله متشابهين .

تبعد الدهشة على وجه سميرة التي ترد بغضب شديد:

- ولكنه خلقنا متكافئين؛ وهبنا جميعا عقلًا وإرادة ونحن من يملك استخدامهما أو إهمالهما

تكى إيرينى: "أنا لا أستطيع أنا لا أستطيع" .

تحتضنها نور:

- هونى عليك يا حببى ودعى الأمر لى، فلتنطلق إلى الشاطئ الآن  
ربما كان المكان هناك وحياً لحل مشكلتك . من يدرى؟



## الفصل الثاني: لن أغفر

تَسَامُحُ النَّفْسِ مَعْنَى مِنْ مَرْوَةِهَا  
بِلِ الْمَرْوَةِ فِي أَسْمَى مَعَانِيهَا

تَخْلُقُ الصَّفَحَ تَسْعَدُ فِي الْحَيَاةِ بِهِ  
فَالنَّفْسُ يُسْعِدُهَا خُلُقُ وَيُشَقِّيَهَا

أحمد شوقي

(١)

تصبب جبين يوسف عرقاً في غرفة العمليات التي لبّث فيها أكثر من ساعتين في حر "يوليو" جفت الممرضة عرقه، فامتنع وأزاح رأسه بعيداً ثم نظر إلى الممرضة الأخرى لتعطيه المقص الطبي، فلم تجده لشود أحالها إلى صنم، فنظر إليها مرة أخرى فلم تتبه إليه مطلقاً فنظر إلى الممرضة التي كانت تجف عرقه لتعطيه المقص، فمنحته المقص واستمر في إجراء العملية الجراحية لقلب المريض.

خرج يوسف من حجرة العمليات غاضباً ينزع اللثام الطبي عن وجهه في حين بدت الممرضة فزعة تهرّب بعينيها منه بعد أن انتبهت إلى ما حدث داخل غرفة العمليات ترتجف، فاقترب يوسف منها معيناً بغضب يكفي لإعادة سيرة حريق القاهرة:

- حجرة العمليات ليست مكاناً للشروع؛ المكان الأنسب حدائق الأندلس أو سفينة في النيل.

- عفواً يا دكتور ما هذا الكلام؟!

- ماذا تنتظرين مني وأنتِ تشردين داخل غرفة العمليات؟! هل أشكرك وأهديك باقة ورد حمراء لتكتمل الصورة؟!

- عفواً لدى مشكلات كثيرة.

- إننا ننحى مشكلتنا بعيداً حينما ندخل غرفة العمليات؛ أرواح الناس أمانة في أعناقنا.

يقترب منها الدكتور سعيد شاب ذو شارب أسود بلون شعره ووجهه مستدير ، يلمح الغضب الشديد على وجه يوسف والحرج على وجه الممرضة فيتساءل:

- ماذا حدث يا دكتور يوسف؟
  - هذه المخلوقة كانت شاردة بحجرة العمليات وتعلل بمشكلات لديها .
  - لقد اعتذرت إليه يا دكتور سعيد فلم يقبل اعتذاري ونهرني بعبارات جارحة .
  - اصمتى الاعتذار لا يبرر جريمتك ، لا أريد أن أراكِ ارحل .  
تنصرف الممرضة باكية ، يربت سعيد على كتف يوسف قائلاً:
  - لندخل مكتبنا أريد التحدث إليك .
- ينادى سعيد على رجب العامل فيأتى الفتى مسرعاً:
- نعم يا دكتور سعيد .
  - أحضر لى فنجانا من القهوة المضبوط وأحضر لي يوسف القهوة باللين وتعالى بهما إلى مكتبي .
  - أمرك يا دكتور سعيد .

يصطحب سعيد يوسف إلى مكتبه ويجلسان فيتأمل سعيد يوسف قائلاً:

- لماذا تنهرها بهذه الحدة يا يوسف؟!
- لقد كادت أن تقعدنى صوابى وأنا أجرى الجراحة .

- لقد أخطأت ولا ريب في ذلك ولكن هذا لا يستدعي منك كل هذا الغضب، لقد مرت العملية بسلام وكان في إمكانك لومها دون أن تغضب على هذا النحو.
- أنا لا أفتتن بعمل هؤلاء النساء؛ إنهن أصل البلاء في الحياة لذا ينبغي تطهير الأعمال منها.
- النساء والرجال بشر فيهما الالتزام والتقصير على حد سواء.
- ليس صواباً؛ الالتزام رجل والتقصير واللامبالاة امرأة.
- من أين جئت بهذه الأفكار العجيبة؟!
- ألم يخلق المرأة من ضلع أعوج اكتسبت صفاته وهي سبب اعتوجاج الكون.
- أنت تنسي أمراً هاماً حينما تصمم النساء وتهينهن هكذا.
- ما هو؟!
- إن والدتك كانت امرأة.
- يرمقه يوسف بننظرة غضب فيتحرج سعيد ويعقب:
- عفواً أنت من أساء إلى المرأة لا أنا، وأنا واثق تماماً أنها كانت سيدة رائعة لأنها أنجبتاك واهتمت بتربیتك حتى صرت طيباً رائعاً كما أنت الآن.
- يشرد يوسف بعيداً بأسى شديد فينبهه سعيد:
- فيم شرودك؟

- لاشئ أنا لأريد الاسترسال في الحديث عن هذا الموضوع .
- هذا أفضل؛ أنا أريد التحدث معك في موضوع آخر .
- أي موضوع؟

يطرق رجب الباب ثم يدخل حاملاً صينية عليها قهوة مضبوطة يضعها أمام سعيد، ثم يضع القهوة باللبن أمام يوسف وينصرف، ينظر يوسف إلى فنجان القهوة باللبن متهدأً ومحظياً:

- كم أحتاج إلى هذا الفنجان؛ لقد ضاع أثر فنجان الصباح بسبب هذه الغبية .

- ها أنت تعود بنا إلى الحديث الذي رفضته منذ ثوانٍ قليلة .  
- أعتذر ما الموضوع الذي أردت الحديث عنه؟

- مشروع عظيم؛ سيكون بمثابة نقلة كبيرة لنا .  
يرشف يوسف من القهوة باللبن متسائلاً: "مشروع! نحن أطباء فما علاقتنا بالمشاريع؟!" .

- وسنظل أطباء .  
- كيف؟! فسر أكثر .

- لى صديق يملك شقتين متجاورتين بعقار بحى "جاردن سيتى" وسيجعلهما عيادة تضم كل التخصصات، وأخبرنى أنه مشروع سنجنى منه ربحاً وفيراً .  
- وما علاقتى بهذا المشروع؟

- لقد حدثته عنك وعن شهاداتك التي حصلت عليها من إنجلترا وكفاءتك التي يشهد بها الجميع ويريد أن تتضمن إلى المشروع.
- عرض جيد ولكن ليس لدى وقت أنت تعلم أنني أعمل بالعيادة فى المساء يومياً إلا يوم الجمعة إجازتى التى أتمسك بها للحصول على قسط من الراحة يمنحنى طاقة الأسبوع المقبل، لقد تعلمتُ هذا فى إنجلترا.
- يمكنك الاستقالة من عملك هنا فى الصباح كما سأفعل لمشاركة فى المشروع.
- ماذا تقول؟!
- يوسف إن الفرصة تأتى مرة واحدة وضياعها يعني الندم الشديد لأنها لا تعود ثانية.
- مشروعك هذا ربما يكون فرصة لك ولكنه نكبة على الفقراء.
- لست أنا من خلقهم فقراء؛ هذه إرادة الله وحكمته.
- وهل تقتضى حكمته أن ندبر ظهورنا إليهم؟!
- سيجدون من يعالجهم ولكن لا يعقل أن تضيع كفاءتك الفذة مع هؤلاء فى هذا المكان الردىء.
- آسف ما تطلبه يتعارض مع قناعاتى وإيمانى بحق الفقير فى العلاج الجيد.

- هذا الكلام يصلح أمام مكبر صوت في "المنشية" أو في صحيفة حكومية تنطق بما تريده هذه الثورة التي تتعدد على قانون الحياة وتريد أن يتساوى جميع البشر .

- ليس لدى رحابة صدر لأناقش معك ما تفعله حكومة الثورة التي تسخط عليها كما أرفض تماماً أن أدير ظهرى إلى هؤلاء الفقراء .

- لولا أنى أعلم أصلك جيداً لاعتقدت أنك تنتمى إليهم .

- الانتماء لا تمليه صلة الدم فقط؛ نحن أبناء وطن واحد ينبغي أن يهتم كل منا بالآخر لننعم بالأمان والاستقرار .

- مازلت متأثراً بما تسمع من خطب وستضيع كفأتك مع من لا يستحقون . أليس لديك طموح؟!

- طموحى يتركز فى إجاده مهنتى وانتفاع الآخرين بها ولو كان لدى مال وفير لأقمت مشروعًا كالذى تتحدث عنه من أجل أن ينعم الفقراء بهذه النوعية من الرعاية الطبية .

- ألسنت إنساناً كبقية البشر؟!

- ما تعرضه خارج حدود الإنسانية .

- ستندم حتماً على هذه الفرصة .

عقب يوسف ساخراً: "لننعم بفرصتك ولندع الندم لي" .



(٢)

"الدكتور يوسف في طريقه إلى العيادة".

أطلق راضى العامل هذه العبارة ليطمئن المرضى المنتظرين بالعيادة المشتركة بين يوسف ومحترم ثم عاد إلى مراجعة سجل أمامه.

تقع هذه العيادة فى نفس العقار الذى يقيم فيه يوسف ومحترم، تتكون من حجرتين وصالة استقبال يفصلها حاجز لا يصل إلى نهاية الحائط مزخرف، يفصل بين مرضى يوسف ومرضى محترم.

وبنظرية يسيرة يدرك المرء كثرة المرضى المترددون على يوسف فى حين يدرك ضاللة عدد المترددون على محترم لأن الطب النفسي لا يؤمن به إلا فئة قليلة من المثقفين أما أنصاف المتعلمين فلا يهتمون به كثيراً، وربما اعتبروه رفاهية مبالغ فيها والبسطاء يحل الدجال لديهم محل الطبيب النفسي لذا فنوعية المترددون على محترم فئة واحدة تدركها من مظهرهم الثرى.

والمرضى المترددون على يوسف من طبقات مختلفة فمنهم الأثرياء ومنهم الطبقة المتوسطة ومنهم الفقراء، وهؤلاء يرد إليهم يوسف قيمة الكشف فى الخفاء حتى لا يجرح مشاعرهم والأثرياء داخل العيادة يثير وجود هؤلاء البسطاء ذوى الملابس الرثة ضيقهم ولكنهم يتحملون وجودهم لمهارة يوسف الذى لا يباريه طبيب فى تخصصه.

بعد قليل دخل يوسف حاملاً حقيبته الطبية محبياً:

- مساء الخير .

"مساء النور يا دكتور" بانتباه شديد أجاب راضى وأسرع ليأخذ الحقيقة ثم دخل راضى حجرة الكشف ووضع الحقيقة على المكتب بينما خلع يوسف سترته وعلقها خلفه على المقعد وجلس متسللاً: "كيف حالك يا عم راضى؟" .

- الحمد لله على كل شيء .

- العيادة مزدحمة الليلة!

- ماشاء الله يا دكتور .

يتنهى يوسف فيلمح راضى علامات الإجهاد على وجهه فيقول:

- تبدو مجهاً يا دكتور .

- نعم؛ أجريت أكثر من عملية اليوم بالمستشفى .

- هل تريد أن اعتذر إلى المرضى المتأخرین؟

- لا سأكون على ما يرام . أدخل المريض الأول وأعد لى فنجانًا من القهوة باللبن .

- تحت أمرك .

ينصرف راضى فيضع يوسف يديه على عينيه مسترخيًا فيسمع طرقًا على الباب فيجيب وما زالت يداه على عينيه: "ادخل" .

تدخل سيدة جميلة أنيقة ذات عطر فوى يوقف يوسف من استرخائه فيبعد كفيه عن عينيه فيراها وهى تتهادى حتى تقترب منه، يتملكه

الغضب الشديد فيحاول السيطرة على غضبه فيشير إلى مقعد أمامه  
فتجلس السيدة وهي تنظر بجرأة إلى عينيه ثم تعقب:

- أشكراك أنت رقيق جداً .
  - خيراً ما الذي يؤلمك؟
  - أشعر بوخزة في قلبي وتتسارع دقاته بشدة فأأشعر أنى سالفظ أنفاسى  
الأخيرة .
  - متى تشعرين بذلك؟
  - لا أفهمك يا دكتور .
  - ثم تعض على شفتها فيشيح بوجهه بعيداً .
  - هل يحدث ذلك عند سماعك خبر مفرح أو محزن؟ هل عند  
استيقاظك أو عند نومك؟
  - فهمت يحدث صباحاً ومساءً .
  - أرجو أن توضحي أكثر .
- تنصنع الخجل وتحنى رأسها ثم ترفعها:
- عند خروجك من المنزل صباحاً وعند عودتك إليه مساءً .
  - لماذا؟ مَاذَا تقولين؟!
  - أنت سبب مرضي يا دكتور يوسف وستكون سبباً في موتي؛ أنا أقيم  
بالعقار المجاور لك

يقطعاها طرق راضى على الباب ثم دخوله حاملاً صينية عليها  
فنجان القهوة باللبن يضعه أمام يوسف، فيشكره ثم يهُم بالانصراف  
فيستوقفه يوسف قائلاً:

"من فضلك أعد إلى السيدة قيمة الكشف واصطحبها إلى الخارج".  
ترتسم أمارات الدهشة والغضب على وجه السيدة التي تنهض  
وتواجهه:

- كيف تجرؤ على فعل ذلك معى؟!  
- لا علاج لكِ لدى وإياكِ أن تأتى هنا ثانية حتى وإن كنت تلفظين  
أنفاسك الأخيرة حقاً لا زيفاً.

- أنت طبيب فاشل.  
- احترمى ذاتك وإلا ستغادرین العيادة بصورة تجبرك على مغادرة  
المعادى بأسرها.

تلوي وجهها بغضب وتتصرف وتندفع الباب خلفها بحدة، يلتفت  
يوسف إلى راضى:

- لا أريد أن أرى أحداً.  
- أمرك يا دكتور يوسف، هل تريد ان أصرف المرضى؟  
- لا ولكن لا أتدخل أحداً حتى تسمع صوت الجرس.  
- كما تريد يا دكتور.

ينصرف راضى ويغلق الباب خلفه بينما يضرب يوسف المكتب بقبضته يده:

– أنا بالفعل طبيب فاشل فى علاج العاهرات هذا الجنس الذى لا يشغله فى الحياة سوى شهواته الحيوانية، ما هذا اليوم الأسود؟! إهمال بالصباح وعهر بالمساء فليرحمنى الله .

يسمع يوسف طرقاً على باب الحجرة فيغضب ويجيب صارخاً:

– قلت لك لا تدخل أحداً حتى تسمع صوت الجرس.

يفتح نبيل صديق يوسف الباب حاملاً حقيبة فى يده فيهداً يوسف حين يراه ولكن لا تخفى ملامح الغضب رغم تصنعته الهدوء وافتعال ابتسامة كاذبة فيقترب نبيل مبتسمًا ومتسئلاً:

– ماذا حدث يا (جو)؟!

(جو) هو اسم التدليل الذى يناديه به نبيل معظم الوقت.

أجاب يوسف بغضب: "مريضه مستفرزة بل تدعى المرض".

– ولماذا تدعى المرض؟! هل تشفع على حالك المسكين وأرادت المساعدة؟!

– لا إنها عاهرة حقيرة حلقة فى سلسلة جنس تتملكه الأنانية.

– عليك أن تعلم أن النساء والرجال سواء فى الصلاح والفساد.

– للمرة الثانية اليوم أسمع هذا الدفاع، يؤلمنى أن يدافع رجل عن امرأه .

- المرأة بهجة الحياة مهما بدا بعضهن مز عجاً.
- ولماذا ترفض أن تدخل البهجة حياتك؟!
- لقد أحببت امرأة واحدة وحالت الظروف بيني وبينها ولم أستطع نسيانها أما أنت يقاطعه يوسف: "أرجوك لقد سئمت هذا الحديث الذي لا فائدة منه".
- أنت محق لقد استنفذنا أنا وعمى كل أساليب الإقناع فلندع الأمر إلى الأيام لنتحدث فيما هو مفيد. لقد أحضرت لك كمية من الأدوية للمرضى المحتاجين.

فتح نبيل الحقيقة ليطلع يوسف على الأدوية وفجأة سمع الاثنان ضجيجاً عالياً من الخارج فنهض يوسف وخرج إلى صالة استقبال المرضى، وخلفه نبيل فشاهد رجلاً ذا ملابس فاخرة متجاوزاً الخمسين من عمره يواجه راضى بغضب شديد:

- هذا أمر لا يليق كيف يدخل هؤلاء إلى العيادة؟!
- ظهر الدكتور مختار خارجاً من حجرته يستكشف ما يحدث.
- اقرب يوسف من الرجل الغاضب متسائلاً بدهشة:
- ماذا حدث؟!
- هل أنت الدكتور يوسف؟
- نعم أنا لماذا تصرخ هكذا؟!

يشير الرجل الغاضب إلى مريض ملابسه رثة يفوح منها رائحة عفنة وحذاؤه ممزق مرتدًا عمامة فوق رأسه: "هل يليق بعيادة فاخرة بحى المعادى أن يدخلها هؤلاء؟!" .

يتخرج المريض الفقير فيهم بالنهوض فيمنعه يوسف:

- كما أنت يا والدى وأرجو أن تقبل اعتذارى نيابة عن الأستاذ،

تكسو الدهشة وجه الرجل الغاضب:

- ماذا تقول؟! أنا اعتذر إلى هذا ألا تعرف من أنا؟

- لا يعنينى ولكن يهمنى أن تعرف أن هذه العيادة لها قواعد، وأولها أن يحترم كل مريض ذاته ولا يرفع صوته ولا يتدخل فيما لا يعنيه أنقهم؟

ثم يلتفت يوسف إلى راضى أمراً:

- أعد إليه قيمة الكشف وإلى كل من لا يعجبه مرضانا.

يبدو الحرج والدهشة على وجه الرجل الغاضب فيرمقه يوسف بنظره غضب شديدة بينما يبدو نبيل متحفزاً إلى الفتك به، فيمسك يوسف ذراعه وينصرفان إلى حجرة الكشف ويجلس يوسف ويظل نبيل واقفاً فيتساءل يوسف: "لماذا لا تجلس يا نبيل؟!"

- أكاد أنفجر من الغضب لقد مزق قلبي إحراج الرجل المسكين، ودموعه الحبيسة لماذا لم تتركنى أسدد إلى هذا المتغطرس لكتمة فى أنفه الشامخ لملابسه الفاخرة التى تخفي نفساً وضيعة.

- لقد أذقته ما يكفي لتقتل ملابسه الأنiqueة التي يتبااهي بها ويخفض أنفه الشامخ .

- إن أمثاله كثيرون؛ للأسف لم تغير الثورة شيئاً .

- التغيير لا يأتي بقرار جمهورى وإنما يحتاج إلى تغيير ثقافة المجتمع التى جُبلت على الطبقية والتعالى على الآخرين . كل مرض يأخذ وقته للاستصال ويحتاج إلى نفاهة ليُشفى صاحبه تماماً .

- ومن المسئول عن استئصال المرض؟

- الإذاعة والسينما والرئيس الذى لا يألو جهداً فى تطبيق ثقافة المساواة على نفسه وأسرته أنا وأنت وأمثالنا ينبغي أن تكون حلقة الوصل بين الطبقتين المتصارعتين لتقليل الهوة بينهما، فلا ترکز نظرك على هذا المغطّر؛ ليس البشر سواء .

يرمقه نبيل بدھشة رافعاً حاجبيه: "أتبذر قناعاتك بهذه السرعة وماذا عن النساء؟" .

يمسك يوسف بفنجان القهوة باللبن غاضباً: "هل أقذفك بالفنجان حتى ارتاح منك؟"

- سألتلقفه بفمي لأستمتع به ،

يبتسم يوسف ونبيل .



(٣)

"دع الشطرنج الليلة" .

بلامح حزينة تحدث العجوز إلى يوسف متوجهًا إلى الشرفة، ثم ألقى نظرة في الفضاء المظلم ثم جلس، وأخرج غليونه وأشعله وألقى بعود الثقب بضيق داخل الطفائية ثم نفث دخان الغليون بغضب استر على انتباه يوسف، فترك "الشطرنج" ورمقه بدھة متسائلًا:

- ما الأمر يا عم؟!

- اجلس أود أن أتحدث إليك في أمر هام .

جلس يوسف تسيطر عليه الحيرة بينما كان العجوز يمهد لحديث ثقيل ثم استجمع قوته وقال:

- والدتك ،

- من؟!

- والدتك تصارع الموت .

نهض يوسف غاضبًا وهم بالانصراف فألقى العجوز غليونه في الأرض صارخًا في وجهه: "اجلس يا ولد لم أفرغ من حديثي بعد وليس من الأدب أن تتركني أتحدث وتتصرف" .

يبدو الحرج على وجه يوسف فيجلس متسائلًا بغضب: "ماذا تريد مني؟"

- تريد أن تراك .

- ألم تكف عن هذا الطلب؟!
- وأنت ألم تكف عن عنادك ورفضك لها؟!
- إن رفضي له ما يبرره أما طلبها فلا مبرر له.
- ألم تسمعني؟! إنها تصارع الموت إنها أمك.
- ألم تكن أمي حينما فعلت بي ما فعلت في الماضي؟!
- كل إنسان يخطئ والأرض لا تأوي الملائكة.
- وكل إنسان عليه أن يدفع ثمن أخطائه.
- إن الله غفور رحيم.
- إن الله غفور رحيم لأنه قد يرى أنا فمخلوق يفتقر إلى هذه القدرة.
- ينظر العجوز إلى يوسف بحنان وعطف متهدلاً بلين:
- لابد أن يكون لك من اسمك نصيب.
- لا أفهمك يا عمى.
- لقد ظلم سيدنا "يوسف" عليه السلام من أخوته الذين القوه في الجب ومن امرأة العزيز التي تربى في بيتها وكان بمثابة ابن لها، وافترت عليه بالكذب ورغم كل ذلك سامحهم.
- لستنبياً.
- لقد أنزل الله قصص الأنبياء لتكون عبرة لنا نتعلم منها دروس الحياة.

- لم أنشأ نشأة دينية مثلك يا عمى فلا أفهم ما تقول .
- يتهد العجوز ببأس عاقدا حاجبيه ثم ينفرج وجهه ويعاود الحديث بحنان وعطف .
- استمع إلى جيدا يا ولدى قبل فوات الأوان .
- لقد فات الأوان بالفعل .
- إنها مازالت على قيد الحياة وربما تغادرها بعد ساعات قلائل وحينها لن يجيئك الندم .
- لقد غادرت الحياة منذ سنوات طويلة ولكنها لا تنتبه إلى ذلك .
- لا إنها إنسان له ظروفه ومبرراته وإذا كانت قد اخطأت فهذا لا يعني موتها .
- يشيخ يوسف بوجهه بعيدا، فيعيد العجوز وجهه إليه بوجه جاد:
- ليس هذا وقت الفلسفة؛ إنها على فراش الموت لقد اتصلت بي ولم أصدق أذناي حينما سمعت صوتها؛ بدا لي صوت من العالم الآخر وكل ما نطقته به "أريد أن أرى ولدي" وبعد حادثي زوجها وأخبرني أنها مريضة بفشل كلوي وتنتظر ساعة الخلاص .
- إنها تخدعك بداعائها المرض .
- اتق الله يا ولدى إن صوتها ينبي عن مرض شديد .
- لقد سمعت صوتها فهل رأيتها؟!

ينظر العجوز إليه نظرة تردد ثم يستجمع شجاعته قائلاً: "نعم  
رأيتها" .

- ماذ؟!

- وليتني لم أرها لقد صارت هيكلًا عظيمًا خالياً من كل معانى الحياة  
كل ما يربطه بها أنفاس زائفة ألا يكفي ما تعانيه؟!

- إذن ذهبت للتلقاءها وتحدثت إليها وأنت الآن تريد إقناعي بما اتفقنا  
عليه .

- لقد قابلتها مرات عديدة وأحرقت قلبى دموعها بسبب صدك ورفضك  
لها ، ترافق بها يا ولدى .

- ولماذا لم تترافق هي بي؟! لماذا تركتني ورحلت حينما كنت أحتج  
إليها؟!

- أخطأت وقد نالت جزاءها يكفيها ما عانت فى هذه الحياة ،

- اذهب إليها وقل لها أنت الآن تحصددين ما زرعت من قبل .

ينصرف يوسف بينما يتنهد مختار بحزن شديد ويأس .



(٣)

"لا توبة لشيطان مطلقاً".

بإصرار همس يوسف في نفسه ثم دفع بباب حجرته خلفه بعصبية شديدة ليصبح أسيراً للظلم والجدران الأربع، ولكنه فيحقيقة الأمر كان أسيراً للماضي الذي يسكن بداخله وقد أصبح حاضراً في كل لحظة يحياها هذا المخلوق الشقى.

خلع يوسف سترته ثم تحرر من رابطة عنقه وألقاهما على الفراش وجلس مسندًا رأسه إلى الوسادة شارداً يخرج زفرات تكفي لإحرافه، ربما احترق منذ زمن وهو لا يدرى ولم يعد يبقى منه الآن سوى رماد.

صار بقایا إنسان رغم ما يفعله لمساعدة الآخرين ليحيوا سعاداء ولكن هذا لا يكفى ليكون الإنسان على قيد الحياة؛ إنه كالآلة تقدم العون إلى الآخرين لكنها بلا روح هكذا صارت حياته.

مد يده وفتح الكومود بجواره وأخرج منه إطاراً ذهبياً يحوى صورة لوالده الذى يشبهه كثيراً إلا من شارب كثٍ يميزه يبدو مبتسمًا ابتسامة عريضة، يجاوره فى الصورة سيدة جميلة ذات ملامح تركية تحمل طفلًا، كانت والدته وكان هو ذاك الطفل.

تأمل يوسف الصورة فى أسى باكيًا بلا دموع؛ لم تكن الدموع من مفردات حياته، ألقى بالصورة على الفراش وتنهى مستعيناً ذكريات شكلت وجданه وقناعاته.

"سأزورك من حين إلى آخر" . كانت هذه آخر عبارة سمعها من والدته وقد حزمت حقائبها وتخلصت منه بينما والده قد ثبت في مكانه يشبه تمثلاً جامداً يستسلم لمالكه .

كانت هذه السيدة تملك والده كما يملك الإنسان سيارة يديرها فيما يشاء لذا برحيلها صارت السيارة مهملة حتى تكهنت .

أشجان هانم والدة يوسف فاتنة الإسكندرية من أسرة ثرية عريقة، وكان رب الأسرة مقامراً والمقامر لا يلعب بأوراقه فقط بل يقامر بأوراق من يتعلقوه به لذا اضطر إلى بيع أملاكه لسداد ديونه واضطر بعدها إلى تزويج ابنته من السيد "عونى مرید" والد يوسف حتى ينقذ أسرته من شبح الإفلاس ولি�ضمن لابنته حياة كالتى عهدها منذ نعومة أظفارها .

كان والد يوسف محاماً ذا ثروة طائلة وشهرة واسعة في الأوساط القانونية باعتباره محام حاذق في مهنته، ولكنه يكبر أشجان بخمسة وعشرين عاماً ولم تعارض أشجان بل قبلت فوراً الارتباط به لأنها لمست ولعه بها فأدركـت أنه رغم مكانـته القانونـية سيـصبح خاتـماً في إصبعـها ولن يـرفض لها طلـباً، وانـشغالـه بـعملـه سـيمـنـحـها حرـية اـعـتـادـتـ عليها وهـكـذا تـمـتـ الصـفـقـةـ بيـنـ المـالـ وـالـجـمـالـ .

مررت الأعوام ومن الله عليهم بطفل جميل ولكنـها لم تعبـاً به لأنـشـغالـها بـنـفـسـها فأـسـنـدتـ تـرـبيـتـهـ إلىـ مـرـبـيـةـ كـانـتـ أـمـهـ الحـقـيقـيـةـ وأـبـاهـ أيـضاـ لـانـشـغالـ عـونـىـ بـعـملـهـ، فـكانـ لـقاـوـهـ الـوحـيدـ بـهـماـ عـلـىـ مـائـدـةـ الغـداءـ

وربما تعذر ذلك أيضاً فاضطر إلى تناوله مع المرببة ورغم إهمالهما الشديد له كان يوسف متعلقاً بهما بشدة.

تلخصت حياة أشجان في النادي وحفلات الأصدقاء وصالونات الأزياء التي أنفقت عليها أموالاً طائلة دون أن يحاسبها زوجها أو حتى يلقى كلمة لوم كي لا يغضبها، وبخاصة بعد أن تقدم به العمر وبدا المدى بينهما جلياً، لقد أدرك بمرور الوقت أنه اشتري المرأة وعجز عن شراء قلبها فالقلب ليس سلعة تُعرض في الأسواق يمكن شراؤها، كانت أشجان تعطيه بقدر ما يدفع.

وبينما يوسف يقترب من التاسعة كانت والدته قد غرقت في علاقة مع أحد رجال الأعمال تعرف عليه من خلال النادي، استطاع هذا الشاب أن يعرف لحن حياتها ويلبي لها احتياجات أهم من المال وما يليه من سكن وطعام وملابس فاخرة شجعت منها.

لقد قدم لها ما كانت تحلم به قبل أن يلقى بها الواقع في بئر هذا المؤسِّن، وسرعان ما تطورت العلاقة بينهما ليقرر "سليم" الزواج بها غير مهتم لأمر طفلها ولم لا؟ لقد تزوج إنجليزية تعرف عليها في رحلة إجازة صيفية بلندن وأنجبت له طفلًا، ثم دبت الخلافات بينهما فقرر الانفصال عنها وتركها هي والطفل وعاد إلى مصر فلم يكن غريباً أن يشترط عليها التنازل عن حضانة طفلها لتتفوغ له، ووافقت أشجان التي وجدت في هذا الرجل تعويضاً عن سنوات جميلة بدتتها في سجن زوجها.

و جاءت اللحظة التي أحالت حياة يوسف من برودة الثلج الذي كان يعيشها مع والديه إلى جحيم مستعر تتشظى معه المنزل ، طلبت أشجان الطلاق من زوجها الذي بدا ذاهلاً متألماً وتساءل:

ـ ماذا فعلت؟!

ـ لم أعد أتحمل هذه الحياة الذابلة التي سيندل معها شبابي .

ـ لماذا؟!

ـ أنت تعرف جيداً .

يحنى الرجل رأسه ثم يرفعها مفتعلًا الجهل: "ربما انشغلت عنك وأعدك أن أوضنك عما فات" .

ـ يبدو أنك لم تفهم ما أعني ولكن يمكنك ذلك بنظرية بسيطة إلى المرأة كى تفهم ما أرمى إليه .

ـ ولكنك تزوجتى وأنت تعرفين ما بيننا من مدى زمنى ورحت بذلك فماذا حدث؟!

ـ لم أربح بل كنت مكرهة فلا يوجد امرأة عاقلة ترحب بالزواج من رجل يكبرها سنوات تزيد على سنوات عمرها، لقد اضطررتني ظروفى إلى ذلك ولم أعد أتحمل هذا القبر أريد الحياة .

ـ أصبحت قبراً الآن؟!

ـ بل منذ تزوجنا وأناأشعر بذلك .

ـ ولماذا لم تشعرى بذلك وأنت تغترفين من أموالى بلا حساب .

– لم أعد أحتمل كفنك الحرير كان زواجنا صفة قدمت فيها شبابي مقابل أموالك التي تعايرني بها الآن . أريد إنهاء هذه الصفة اللعينة مقابل التنازل عن كل مستحقاتي ومعها ولدي .

عقدت الصدمة لسان الرجل بينما أغلق يوسف باب حجرته بعد قذائف والدته التي تنازلت عنه وكأنه قطعة أثاث . جلس يوسف على فراشه حزيناً بسبب أسرته التي تنهار لأنانية أمه واستسلام أبيه ، ورحلت أشجان تاركة المنزل خلفها ينهر فأسلم الحزن عوني للخمر مهملاً عمله وابنه .

فقد عوني ماله وصحته وأصبح شيئاً لصيق الفراش بأحد المستشفيات يعاني تليفاً بالكبد وتケفل زوج اخته وصديقه الدكتور مختار بالإتفاق عليه وبرعايته ورعايتها يوسف الذي فرح برعايته أيما فرح ، ولم يكن ذلك شعور زوجته "منال" عمدة يوسف التي أحبت مختار جاً أقل ما يوصف به أنه مرض تمكّن من نفسها، جعلها تأبى أن يشاركها أحد في قلبها وتوفي عوني وأصبح يوسف أمانة أوصى بها اخته وزوجها .

استأثر يوسف بقلب مختار فراح يشبع حرمانه من الأطفال باحتضان هذا اليتيم وقضاء أوقات طولية معه، كان يأخذه معه إلى العيادة ويتركه مع راضى العامل أثناء انشغاله مع المرضى ويصطحبه إلى النادى يوم العطلة، ولكن القدر العجيب خباً ليوسف ما لم يتوقعه .

كان من الطبيعي أن يكون حب مختار نعمة يسعد بها يوسف الذى بدأ ينسى ما حل به بسبب فيضان الحب والحنان الذى أغرقه به زوج عمنه فأحال جدب حياته إلى بستان جميل يسكنه الأمل فى مستقبل مشرق، ولكنه على النقيض كان سبباً فى شقاء جديد يجدد أحزانه وألامه.

ثارت منال بسبب إهمال مختار لها وانشغلته بيوسف عنها حتى وصل الأمر إلى هجر فراشها أحياناً ليجاور يوسف، ويحكى له قصة طريفة قبل أن يخلد إلى النوم وربما نام مختار قبل يوسف فيرتمى فى حضنه ويطفئ نور الحجرة، وتظل منال تنتظر عودة مختار الذى ينساها ويقضى ليلته مع هذا الطفل الذى أنساه العالم بأسره حتى زوجته وحبيبته.

قررت منال استرداد زوجها وحبها الوحيد حتى لو اضطرت للتجدد من مشاعر الأمومة والإنسانية، ذات ليلة بعد عودة مختار من العيادة وقبل أن يجلس سأل عن يوسف فنظرت إليه نظرة غضب متسائلة: "ألم يعد يشغلك فى هذه الحياة سوى يوسف؟!"

- لماذا بك يا منال؟!

- أمازلت تذكر ملامحى وأسمى؟!

- لم كل هذا الغضب؟! ماذا فعلت؟!

- تلك هى المصيبة.

- عن أى مصيبة تتحدثين؟!

- عن إهمالك لى بل وعدم انتباحك إلى هذا الإهمال لقد أسقطتني من حيائنك تماماً.

يبدو الحرج على وجه مختار:

- هذا أمر طبيعي لأن يوسف يحتاج إلى اهتمام كبير ينسيه ما حل به من مأساة وبخاصة أننى المس إهمالك له وحرمانه من طاقة حنانك وعطفك التى يحتاج إليها لتعويضه عن فقد والديه.

- والده فقط، مازالت أمه على قيد الحياة.

- ولكنها تركته وسافرت مع زوجها إلى الخارج.

- أرأيت؟! أمه التي أنجبته وهو قطعة منها تنازلت عنه ولم تهتم لأمره، فهل سأكون أكثر حناناً منها ومن الله الذى أراد له هذا المصير؟

- هل فقدت عقلك؟!

تقرب منه وتمسك بذراعيه وتنظر فى عينيه باشتياق:

- نعم أوشك أن أفقد عقلي لقد نسيت حبنا وغرامنا وليلينا الجميلة إلا تشتاق إلى؟!

- أنت تعرفين أننى أحبك ولا أحب سواك فى هذه الحياة.

- كان ذلك فى الماضى أما الآن فقد صار لى شريك بقلبك وسيأتى يوم ويطردنى منه.

- ليس صحيحاً أعدك أننى سأنتبه إلى ذلك مستقبلاً.

- لن أقبل بأنصاف الحلول.

- مَاذَا تَقْصِدُنِي؟!

- إِمَّا أَنْ تَوْدِعَهُ أَحَدُ الْمَلَاجِئِ وَنَرْعَاهُ مِنْ خَلَالِهِ وَإِمَّا أَنْ نَفْسُلَهُ.

- مَاذَا تَقُولُنِي؟!

- لَنْ أَكُرِّرَ مَا قُلْتُ وَلَتَنْتَبِهَ أَنَّهُ فِي حَالِ اِنْفَصالِنَا فَالْوَلَدُ سَيَكُونُ فِي  
حُوزْتِي بِالشَّرْعِ وَالْقَانُونِ.

تعثّرت الكلمات على لسان مختار ثم عقب قائلاً:

- عَنْ أَىْ شَرْعٍ وَقَانُونٍ تَتَحَدَّثِينَ وَأَنْتَ تَلْقَيْنِي بِلَحْمِكَ وَدَمِكَ إِلَى  
الشَّارِعِ؟!

- لَنْ نَتَنَاقَشَ فِيمَا قُلْتَ لِكَ،

- يُمْكِنُنَا أَنْ نَنْقُلَهُ إِلَى مَدْرَسَةِ دَاخِلِيَّةٍ؟

- لَا لَأَنَّهُ سَيَقْضِي الصَّيفَ مَعَنَا.

يبادر مختار بالرد فتقطّعه منال بحسم: "لن نتناقش في هذا الأمر  
وعليك أن تحسم أمرك الآن".

كانت منال عنيدة تتمسّك برأيها كما يتمسّك الطفل الصغير بلعنته،  
لذا لم ينافسها في الأمر وأخبرها بموافقته بإيداع يوسف أحد الملاجئ  
 فأصرت أن يكون ذلك في الصباح الباكر فوافق.

كان يوسف يراقب الحوار المحتمم بين عمته وزوجها دون أن يشعران  
به، ونزلت موافقة مختار على طلب عمته نزول الثّاج على رأس  
المحموم فتحيل حرارته إلى برودة فأصاب جسده قشعريرة جراء

الخوف من المستقبل الغامض بل المظلم ،للمرة الثانية تتحول حياته إلى جحيم بسبب امرأة .

بدأ يوسف يتخيّل حياته داخل الملجأ رغم أنه لم يزد الملاجيء من قبل ، فقد كان لديه صورة ذهنية عن الحياة فيها من خلال حديث والدته التي كانت تزورها ضمن اشتراكاتها في إحدى الجمعيات الخيرية ، ولم يكن دافعها المساعدة وإنما الشهرة التي تناولها بنشر صورها في المجالات ضمن أخبار سيدات المجتمع ، وقد أدرك من خلال حديثها قسوة الحياة داخلها والتي تشبه الإصلاحيات التي يقطنها الأحداث فازدادت رعدته وخوفه .

قرر يوسف ألا يستسلم هذه المرة لهذا القدر ، فإذا كان قد كتب عليه ألا يكون بلا أسرة ولا بيت فلن يكون الملجأ بيته الذي يقتصر حريته ، سيكون الرصيف بيته وأولاد الشوارع أهله . سيحيا كالطائر الذي يفضل الحياة على الأشجار ويتنقل بينها بحثاً عن الرزق بدلاً من الحياة في قفص من ذهب يُقدم له الطعام والشراب بلا مجهود وبلا حرية أيضاً .

على الفور نهض يوسف مسرعاً وحزم حقيبة ملابسه ، حينما تأكد أن عمه وزوجها قد استسلما للنوم فتح باب حجرته وخرج في هدوء . أثناء سيره تعثر في شبح جالس في الظلام أمسك به فارتعد يوسف وكاد يصرخ فوضع يده على فمه ، وحينما تأمله يوسف اتضحت معالم وجهه كان زوج عمته جالساً في الظلام وكم كانت دهشته حين رأى حقيبة ملابس يوسف بجواره فقاده ومعه الحقيقة إلى حجرته حتى

يمكنا من الحديث دون أن تشعر به عمه أغلق مختار الحجرة وجلس  
مجاوراً ليوسف على فراشه متسائلًا: "إلى أين؟!" .

أطرق يوسف برأسه ثم رفع رأسه بوجه جامد: "إلى الشارع" .  
— لماذا؟!

— لقد سمعت كل شئ ولن اذهب إلى الملجأ ولن أكون أيضًا عبًّا  
عليك .

تلعثم مختار وبدا عليه الحرج الشديد:

— سامحها يا ولدى أنا المخطئ؛ أوليناك اهتمامي وأهملتها وكان علىَّ  
أن أكون متوازنًا ،

— إنها أنانية مثل أمي ،

— لا نقل ذلك يا ولدى؛ إنها تحبك ،

— والدليل ما قالته لك إنها تلفظني وأنا منها وأنت تعطف علىَّ ولا صلة  
دم بيننا ،

— إننا جميعاً أخوة في الإنسانية ،

— أين الإنسانية؟! وهى تريد أن تلقى بي إلى سجن مظلم أحيا معزولاً  
بلا أهل ،

— قلت لك أنا المذنب ،

— لا بل وجودى هنا هو ما أثار المشاكل لذا سأرحل لتعود حياتكم  
سعيدة كما كانت ،

- لا سعادة لى بدونك وهذا ما أرقني وجعلنى أفكر فى حل يرضيكم  
معاً.

- كيف؟!

- ستعيش فى منزل راضى العامل بالعيادة أنت تعرفه جيداً.

- راضى!

- نعم ستعيش مع زوجته وأولاده إنه رجل بسيط الحال ويعيش فى  
حي فقير أدرك أنك لم تألف هذا النوع من الحياة، ولكننا نضطر أحياناً  
إلى أشياء عسيرة علينا وبمرور الوقت نألفها ونتكيف معها هكذا خلفنا  
الله.

ترتسم نظرة انكسار على وجه يوسف يعقبها لمعان دموع تأبى أن تبرح  
عينيه فتثير مختار أكثر مما لو سالت فيحتضن يوسف بحنان:

- ليس بيدي يا حبيبي وأعدك أتنى سأزورك ونخرج سوياً في العطلة  
الأسبوعية.

- كيف سيتحملنى الغرباء ولم يتحملنى أهلى.

أذهلت مختار كلمات يوسف كيف أصبح ناضجاً إلى هذا الحد؟!

- لا تخاف يا حبيبي فسأدفع له مبلغاً كبيراً ليرعاك هذا إلى جانب ثقى  
به فهو رجل طيب أمين وزوجته امرأة حنون وأنا واثق أنك ستتجبهما،  
وأعدك أن تعود إلى منزلك ثانية هل اتفقنا؟

- كما تشاء يا عمى.

في الصباح الباكر استقل يوسف السيارة مع زوج عمه واتجها إلى بولاق حيث بيت راضى وعندما وصلا إلى الحى أوقف مختار السيارة، ونزل منها وقرر أن يسيرا إلى بيت راضى لأنه يعيش فى حارة صغيرة لا تتسع لها سيارة مختار .

حينما توغلوا في الحى صدم يوسف من مشهد المنازل المتلاصقة المغطاة بالتراب، والأطفال الحفاة يلعبون في الأزقة بملابس رثة وعربات الفول والخضر وصيحات البائعين، إنها دنيا جديدة لم يعهد لها يوسف فتوقف عن السير لحظة تأمل فيها زوج عمه بنظرات كسيرة حزينة بادله زوج عمه نفس نظرات الحزن، ولكن يوسف سرعان ما تذكر استعداده إلى الحياة على الأرصفة فقبل الواقع واستمر في السير، وحينما اقترب من بيت راضى وجده ذا باب ضيق يتسع لعبور شخص واحد فدخل يوسف ثم مختار .

كانت شقة راضى في الطابق الأرضي، دق مختار الباب ففتح راضى الباب بابتسامة صافية محبّياً الدكتور ويُوسف ثم دعاهم إلى الدخول فدخل مختار ومعه يوسف وحقيقة ملابسه، فتأمل يوسف البيت المكون من صالة ضيقة بها كنبة "إسطنبولى" ومائدة مستديرة قصيرة القوائم مسندة إلى الحائط يتفرع من الصالة حجرتان، وطرفة صغيرة يبدو منها باب الحمام والمطبخ .

جلس مختار يحاور راضى بصوت منخفض ، شرد يوسف وهو يتخيّل حياته الجديدة في هذا الجحر الضيق مع أسرة تتكون من رجل وزوجته وخمسة أطفال .

تشاحت التساؤلات برأسه هل سيتحمل هذه الحياة ويتكيف معها؟!  
متى سيفارق هذا المكان ويعود إلى حياته التي عهد لها؟! وكيف  
سيذاكر وسط هذا الزحام والصخب؟! وكاد رأسه ينفجر من قسوة  
الأسئلة التي لا أجوبة لها، لكنه في النهاية لا يملك اختياراً كل ما يملكه  
صبر على ما اضطرته الحياة إليه وأمل في تغييره.

قطع شرود يوسف يد مختار تربت على كتفه: "إلى أين ذهبت يا  
يوسف؟!"

- إلى الضياع.

يجثو مختار على ركبتيه مواسياً: "كن رجلاً وتحمل الحياة هنا لفترة  
أعدك أنها لن تطول".

هز يوسف رأسه مستلماً لقدره ثم قبله مختار واحتضنه مسيطرًا على  
دموعه ثم رحل وتركه لمصيره وحياته الجديدة.

قرر يوسف أن يتتحمل ظروفه الجديدة متسلحاً بالأمل في العودة إلى  
بيته قريباً، ومرت الأيام الأوائل كأصعب ما يكون، كان راضي  
يستيقظ مع آذان الفجر ويدهب إلى الجامع ليصل إلى بينما تستيقظ زوجته  
لتنطف البيت وتتملا الأواني الفخارية بالماء، وتعد الطعام ثم يذهب إلى  
عمله بالمستشفى صباحاً، وتذهب زوجته إلى السوق لشراء الخضار،  
ويترقب أولادها في الشارع للعب بينما يبقى يوسف وحده بالمنزل  
الصامت كأبى الهول، منعزلاً عن الحياة وقد أغلق الشبابيك ليبعد عن  
الصخب، ولا يوجد مذيع ولا جرائد فاضطر إلى فتح الشبابيك لمراقبة

الأولاد يلعبون بالكرة المصنوعة من القماش وغيرها من الألعاب حتى  
تعود سيدة زوجة راضى .

كانت "سيدة" لا تعرف القراءة ولا الكتابة يفوح منها رائحة السمن  
البلدى وكان هذا الأمر يثير نفور يوسف فى البداية، لكنه ألف رائحتها  
بمرور الوقت فلماذا؟ لأنها كانت تفوح حناناً وعطافاً افتقر إليهما مع  
سيدات المجتمع الرافق، وبمرور وقت قصير تحول إيلاف يوسف  
حياته الجديدة إلى تعلق شديد، لقد انخرط مع الأولاد في لعب الكرة  
وعاش أوقاتاً جميلة كشهر رمضان والتجمع على مائدة الإفطار مع  
الأسرة التي منحه دفناً وأماناً، واللعب بالفوانيس الحديدية ذات الشمعة  
وصوت المسحراتى، والتجمع حول سيدة وهي تصنع كعك العيد وهم  
يساعدونها في نقشه ويفغون ويضخكون وجولاته في الموالد والصلوة  
في سيدنا "الحسين" والسيدة "زينب" .

لقد أدرك أن البيوت المتلاصقة تعبر عن حال ساكنيها المتلامحين في  
الأفراح والأحزان يؤازر بعضهم بعضاً رغم الفقر الشديد ولم يعد  
يشغله أمر العودة إلى بيته القديم، لقد صار هذا المنزل المتواضع عشه  
الأثير .

مر عامان كان مختار خالهما يزوره من وقت إلى آخر، ويأخذه في  
نزهة إلى أماكن متعددة والعجيب أن عمه لم تطلب زيارته وكان هذا  
مؤلماً له، ولكنه كان مريحاً لمختار وإلا انكشف الأمر .

وفي نهاية العامين أهمل مختار زيارة يوسف ولم يكن ذلك لأنه نسيه  
أو لم يعد متعلقاً به ولكن لمرض زوجته التي أصيبت بسرطان الثدى

واستأصلته على أثر ذلك في مستشفى بالخارج ولازالت الفراش لتلقى العلاج الذي كان في حقيقة الأمر مجرد مسكنات تعينها على الاستمرار في الحياة حتى يقضى الله أمرًا كان مفعولاً.

أدرك مختار أن علاقه زوجته بالحياة على شفا الانقطاع لأن المرض تمكّن من جسدها الذي استسلم له، وأدركت هي أيضًا ذلك وأصبحت تنتظر مصيرها بين حين وآخر وكان ذلك كافياً لتنذكر ابن أخيها المسكين، وتطلب أن تراه ويعود إلى المنزل لتفكر عن ذنبها في حقه،

وعلى الفور ذهب مختار إلى يوسف الذي رفض بإصرار عجيب رغم علمه بمرضها الشديد وندمها العميق على ما فعلت، وعاد مختار متحيرًا كيف يعلل لها عدم مجئ يوسف ليراها فاضطر إلى الكذب عليها، وأخبرها أن الملجأ أقام رحلة للأطفال وسيعودون في وقت متأخر ووعدها أنه سيأتي به في وقت آخر، ثم تعددت تبريراته لها بأنه شغل بعمله وعجز عن الذهاب إلى الملجأ ليأتي به أو أن الملجأ رفض بسبب الامتحانات.

جاء يوم انخرطت منال في نوبة بكاء شديدة وتوسلات له كى يأتي به إليها فاستنفرت دموعها مشاعره، وقرر أن يأتي به حتى لو اضطر إلى حمله والإتيان به عُنوه وذهب إليه فوراً ولكنه واجهه بالرفض القاطع فتوسل مختار إليه قائلاً: "إنها على فراش الموت تحتاج إلى الرحمة".

- ولماذا لم ترحمني وأنا لم أرتكب ذنباً حيالها؟!

- لا وقت لدى للجدال إننى أصارع الزمن ويجب أن تأتى معى الآن؛ ربما تغادر الحياة بين لحظة وأخرى أرجوك يا ولدى.
- لا تجهد نفسك معى فلم أعد فى حاجة إليها ولا أعبأ بآلامها.
- يباغته مختار بصفعة كريح دفعت بابا بحدة ثم عقب: "ستأتى معى بارادتك أو رغمًا عنك".
- أتصفعنى؟!
- نعم أنت تستحق ذلك لأنك لا تقدر آلامها ورغبتها الشديدة في رؤياك.

يستسلم يوسف لنظرات الإصرار في عيني مختار ويهز رأسه موافقاً، فأسرع مختار ومعه يوسف إلى المستشفى وحينما وصلاً أوقفه مدير المستشفى ومنعه من الدخول إلى حجرة منال، وبعد تردد أخبره أنها فارقت الحياة انهمرت دموع مختار وضرب رأسه في الحائط ندماً على حرمانها من رؤية يوسف.

حينما كان الأطباء يخفون عن مختار كان يوسف يقف جامداً كالصخرة الصماء؛ لم يعد في قلبه مكاناً لأى امرأة في الوجود وقرر منذ تلك اللحظة أن يوصد قلبه تجاههن جميعاً وأقسم لا تدخل قلبه امرأة مهما كانت ومهما فعلت.

وحدث نفسه بصوت مرتفع صارم: "لن أغفر لن أغفر"، طرق مختار الباب فانتبه يوسف من شروده في كهف الماضي الأليم وأجاب:

- ادخل يا عمى .

- لقد أضعت الفرصة للمرة الثانية .

- عن أي فرصة تتحدث؟!

- الفرصة التي ستعيدك إلى إنسانيتك وتحررك من سجنك اللعين .

- أنا لا أفهمك .

- لقد توفيت والدتك اتصل بي زوجها الآن وأخبرنى أنها ماتت وهى

تناديك وتطلب رؤيتك .

يغمض يوسف عينيه ثم يتنفس نفساً قوياً معقباً:

- هذا اختيارها الذي تدفع ثمنه الآن .

- إذن ستدفع أنت أيضاً ثمن اختيارك .

- أنا لم أضر أحداً .

يتنهد العجوز: "أدعوا الله أن يغفر لك وألا يحاسبك بما فعلت".



## الفصل الثالث: التأمين

وإذا ما طِحْتُ إلى غَایة  
رَكِبْتُ الْمُنَى وَنَسِيْتُ الْحَدَرَ

وَلَمْ أَتَجَنَّبْ وَعُورَ الشَّعَابَ  
وَلَا كَبَّةَ الْهَبِ الْمُسْتَعِرَ

أبو القاسم الشَّافِعِي

(١)

"كشن ملك" .

بهذه العبارة المقتضبة أنهى يوسف لعبة الشطرنج مع صديقه الوحيد نبيل ذي القامة المتوسطة والشعر المجد و البشرة البيضاء، "يسارى" خصص جزءاً من ربح الصيدلية التي يملكتها لمساعدة القراء الفاسد المشترك الوحيد بينه وبين يوسف الذي يناقشه في كل صفاتة، ورغم ذلك كانت صداقتهما أرسخ من الجبال .

تعرف نبيل على يوسف في إنجلترا حيث كان نبيل يبرم صفقة أدوية  
تشعبت علاقات نبيل ولكن ظل يوسف قريباً روحه، بل ارتبط أيضاً  
بزوج عمه الذي عوشه عن وفاة والديه وتعلم منه لعبة الشطرنج .  
اعتدل يوسف في جسلته بضيق كسا وجهه قائلاً: "لنكتفى بذلك" .  
بجدية أجاب نبيل: "بل أريد جولة أخرى لتعويض الخسارة" .  
ـ أنا لا أرغب في اللعب .  
ـ ماذا بك يا يوسف؟!  
ـ أشعر بملل يكاد يمزقني .  
ـ تشعر بملل! نحن نعيش أحداً ساخنة لا تتبع الصحف؟!  
ـ على ذكر الأحداث الساخنة كيف تتوقع رد الرئيس?  
ـ صادماً، هو لا يقبل الإهانة مطلقاً من أحد فلديه ذات منتفخة .

- بل لديه اعزاز بوطنه "مصر" نابع من وعيه بقيمتها لذا لا يطيق إهانتها فلا تحوله إلى أمر شخصي .
- إنه مستبد والاستبداد يُسقط الأمم .
- كيف ذلك وهو يدعم كل حركات التحرر في شتى بقاع الأرض .
- في الخارج أما في الداخل فقد عصف بالديمقراطية واستثار بالحكم، الديمقراطية هي الحل الأمثل لكل مشكلتنا لذا لا أقبل مطلقاً ما فعله بالأحزاب .
- الأحزاب التي لا يشغلها إلا صراعها على السلطة! أنسنت أن "الوفد" حزب الأغلبية قَبِل الحكم على رأس الدبابة الانجليزية يوماً ما؟!
- هذا لا ينطبق على كل الأحزاب .
- ما فعله الوفد ربما كان سبباً جعله يكفر بالديمقراطية .
- أنت دائماً تدافع عنه مصيناً أو مخطئاً .
- أنا أرى الأمور بالعقل لا بالأحلام والشعارات هل تتصور أن حكومة أي حزب كانت ستقيم مشروع الإصلاح الزراعي؟ أو ستعقد اتفاقية الجلاء مع الإنجليز؟
- ليس من حقك التنبؤ بالمستقبل؛ لقد تخلصنا من الملك وكان الأجدر أن تستمر تجربة الديمقراطية، وبمرور الوقت ستتصوب نفسها بنفسها الإنسان لا يتعلم إلا إذا أخطأ .

- لو حدث ذلك لعادت الأمور إلى محراها الأول، وفشل الثورة لأنهم لم يفعلوا شيئاً حيال مشكلات القراء، ولم يحاولوا التخلص من الإنجليز فعلياً وهم في السلطة.
- هذا ما يصدره إلى الناس ولكن الحقيقة أنه يريدنا جميعاً وفق رؤيته وهذه ديكاتورية.
- ما أسهل الكلام! وأنت تجلس في الهواء الطلق بلا مسؤولية وما أصعبه! حينما تحملها
- أتعلم بمن يذكرنى يا يوسف؟
- بمن أيها الفصيح؟!
- الوالى "محمد على" وطريقته في التخلص من خصومه.
- لا تنسَ أنك تتحدث عن مؤسس الجيش المصري.
- ربما ورث "جمال عبد الناصر" صفاته لأنه ينتمي إلى هذا الجيش الذي أسسه.
- لا مجال للتشابه؛ محمد على ليس مصرياً ورغم تقديرى لما أجزه مما فعله كان لمجد أسرته في النهاية، أما عبد الناصر الذى نبت من طين أرضنا يصنع لمصر لا لذاته.
- ربما ولكنه يعمل وفق منطق محمد على في التخلص من خصومه "الغاية تبرر الوسيلة".

- هؤلاء الخصوم يتاجرون بالديموقراطية من أجل الكرسى وهى حسان "طروادة" الذى تخلى بداخله كل مطامع السلطة .
- تأمل يوسف نبيل بدهشة ثم استطرد قائلاً: "هل تمعن في نبيل؟" .
- لقد سألتني سؤالاً عسيراً لا أعلم إن كنت أحبه أم أمقته، أحترمه أم أذريه؟ إنه دائماً يحيرنى حينما أحاول وصف شعورى نحوه .
- ربما أنتك الإجابة بعد رحيله حينما تقارن بينه وبين من سيخلفه فتنضج الصورة .
- رغم كل شيء أدعوا الله أن يلهمه القرار الصائب الذى يحفظ كرامتنا ويدعم مشروعنا العلائق .
- "يسارى وتتحدث عن الله ما أعجب ذلك!" ، بابتسامة ساخرة عبر يوسف ،
- "أنت أيضاً تردد الادعاءات التى يروج لها رئيسك" ، بغضب شديد عبر نبيل .
- رئيسى! أتتبرأ منه الآن؟!
- لتعلم أن هناك يساريين كانوا يهوداً وأسلموا فى المعقل .
- اهدأ يا بليل أنا أمزح معك ما رأيك فى تناول عصير ليمون بارد يطفئ حرارة الجو؟
- كما تشاء .



(٢)

"إن والدى تترقب خطاب الرئيس الليلة" .

بضيق عبرت نور وهى تجلس يسار سميرة التى تسكن (حي العرب) واسمه يعبر عن طبيعة ساكنيه فهم أساس بور سعيد، هم من حفروا القناة ولم يجعوا منها سوى الموت والفقر فى حين استأثر الأجانب بخيرها .

انتمنت سميرة إلى أسرة فقيرة والدها صياد بسيط لا تكفى حرفة لسد جوع أسرة من سبعة أفراد، ولكنها تمكنت من الحصول على شهادة متوسطة أهلتها إلى العمل بمكتب البريد بمساعدة أسرة نور .

كانت سميرة عزيزة النفس شامخة الأنف دون كبر تعشق القراءة وتحرم نفسها من أشياء تحبها لتشتري كتاباً كان بمثابة لها شيئاً تطل منه على العالم .

جلست سميرة على الكنبة الإسطنبولى المتهالكة بحجرة بسيطة تحوى سريراً نحاسياً ومصباحاً يعمل بالكريوسين معلق على حائط نقش برسومات عربية، وخزانة للملابس قديمة وجلست إيرينى عن يمينها وهى تعد القهوة فى إناء نحاسى على موقد نحاسى .

أجبت سميرة وهى تترقب غليان القهوة:

- كيف تتركينها وهى على هذه الحالة من الفلق .
- لقد فشلت محاولاتى فى تهدئتها أو حتى صرفها عما يحدث .

أطفأت سميحة الموقد وصبت القهوة بينما بدا الفلق على وجه إيرينى  
التي عقبت قائلة:

- دعك من السياسة يا نور هل وجدت لى حلًا؟
- نعم لقد دبرت خطة وقام دانيال بتنفيذها واكتشفت أنه ممثل موهوب  
ويمكننا في المستقبل تأسيس شركة لانتاج السينمائي تنافس شركة  
"مترو جولدن ماير" .
- دعك من المزاح وأخبريني ماذا حدث؟!
- لقد دبرت خطة للتخلص من هذا الكائن .
- "الكائن!" . بدهشة عبرت سميحة وهي تقدم إليهما القهوة .
- نعم وهو تكريم لا يستحقه؛ ليس هذا الكائن سوى الله تعالى وفق من  
يضغط زرها .
- أرأيتِ يا نور لقد كنت محقًّة في وصفي له وإصرارى على رفض  
الزواج به؟
- إن زواجك به كارثة دونها الموت لا قدر الله لقد خبره دانيال جيداً .  
- كيف؟!
- وطد دانيال علاقته به ثم أخذه معه إلى إحدى الملاهي الليلية بعد أن  
اتفق مع فتاة جميلة تعمل في أحد الملاهي على الإيقاع به باعتبارها  
من عائلة ثرية، وبالفعل وقع في حبائلها وقد دفع لها دانيال مبلغًا من  
المال مقابل ذلك .

- إذن سقط هذا الشقى لمالها وجمالها معاً .
- لا يا إيرينى ليس جمالها ومالها فحسب بل الخبرة .
- أى خبرة يا سميرة؟!
- هذا النوع من الفتيات لديهن خبرة فى اصطياد الرجال وأسرهم .
- ولكن هذا لا يعني تراجعه عن الزواج" . بقلق عبرت إيرينى .
- لقد حدثت المعجزة وأخبر أخاك أنه يعشقاها، ولن يستطيع الزواج منك وأنه حُجل من نفسه لذلك بل طلب الصفح من دانيال .
- أشكر الرب الذى استجاب لصلاتى ودعواتى .

تبتسم سميرة:

- من أين أنته هذه الشجاعة يا نور ليعرف لDaniyal ويتخذ قراراً بنفسه؟
  - ليس فى الأمر شجاعة إنه يعلم جشع والده الذى لا يهتم إلا بالمال فسيدعم قراره وربما فرح بصغريه الذى أوقع هذا الصيد الثمين .
  - حسناً ولكن الأمر لن يتوقف عند هذا الحد؟
  - ماذا تقصدين يا سميرة؟
  - ربما تمسك هذا الشقى بالفتاة حتى بعد معرفة حقيقتها المخجلة .
  - "لا إنه لا يملك هذه الشجاعة" ، بإصرار أجابت إيرينى .
- تنتهى سميرة ثم تشرب القهوة:

- هذا النوع من البشر ضعفه سلاح ذو حدين إنه كالمسدس في يد من يمسك به والآن أمسكت به هذه العاهرة فستصوبه في وجه أبيه، وقريباً تستنزف أمواله بلا رحمة.

- أنا أشعر بالذنب الآن فكل ما أرددته إنفاذ إيريني ولم أشاً إيزاًءه.

- لا تلومى نفسك يا نور إنه لا يستحق الشفقة فهو ضحية نفسه.

- كيف؟!

- لقد منحه الله عقلاً والعقل أمانة إذا تنازلنا عنها نصبح خائنين لأنفسنا ولمن أودعنا هذه الأمانة العظيمة، لقد خان نفسه قبل أن يخونه الآخرون.

تبتسم إيريني بإعجاب:

- ما هذه الحكمة يا سميرة؟! أهذا أثر الكتب التي تأخذ اهتمامك ووقتك؟!

- الكتب حتماً تؤثر في تفكيرنا ورؤيتنا للأمور ولكن رأيي نتاج تجربتي الخاصة.

- ماذا تقصدين؟

- أنت تعلمين يا إيريني ضيق ظروف أبي وحينما أتقنلت القراءة والكتابة قرر أن أكتفى بذلك لتخفيض العبء عن كاهله لأن الفتاة مصيرها الزواج، إلا أنني صممت على استكمال دراستي وأقنعته أننى سأغزل الملابس لأهل الحي واتكفل بمصاريفى حتى عملت بمكتب البريد.

تنظر إليها إيرينى بدخل وقد طأطأت رأسها فتعقب سميحة بغيظ:

- إن استسلامك يغطينى أنا أمقت الخضوع والاستكانة،

- ترقى بها يا سميحة،

- إنها مريضة تحتاج إلى مشرط لاستصال الضعف والخضوع.

- ثقى أن شفاءها قادم لا محالة ولكن كل شيء يأتي في موعده.

يقطع الحديث صوت آلة تنبية من الخارج ففتح نور الشباك:

- إنه دانيال لقد أخبرته أن يأتي إلينا هنا إذا لاح في الأمر جديد.

- أدعوا رب أن يكون لديه أخبار تخلصني تماماً من هذا الأمر.

- إنه يبتسم يا إيرينى وهذا يعني أن لديه أخباراً سوف تتلاজ صدرك علينا الذهاب الآن.

تنهض نور وإيرينى بينما تنظر سميحة إلى القهوة التي لم تمسها

الفتانان:

- لقد استرسلنا في الحديث ولم تتناول القهوة.

- أغفرى لنا؛ أنت تعلمين مدى القلق المسيطر على إيرينى.

- كما تحبين ولترسللى سلامى إلى دانيال وامتنانى له بإيقاظ إيرينى.

- سلمت يا سميحة من كل سوء.

تنصرف الفتاتان وتهبطان السلم المتهالك حتى تصلا إلى سيارة دانيال المتواضعة فتركب نور في الخلف وتركب إيريني بجواره وتتساءل بلهفة: "هل هناك جديد يا دانيال؟"

- لقد أُسْدِلَ الستار منذ قليل على هذه المسرحية السخيفة،
- كيف؟!
- لقد جاء والده إلى الأستديو واعتذر لوالدى عن إتمام زواج ابنه بك.
- لماذا؟! ألم يسأل والده عن الفتاة؟!

الطمع يعمى الأبصار يا نور كما أننى أقنعت هذا الشقى أن ينهى والده قصة زواجه بإيريني قبل الشروع فى الارتباط بالفتاة؛ بور سعيد مدينة صغيرة وربما علمت أسرتها بالأمر فرفضون زواجه بالفتاة،

كم أنت شرير.

- بل والده ويؤسفنى أن يحمل خالك نفس الصفة،
- لماذا؟!
- لقد ثار خالك فى وجهه وقال إنه على يقين بوجود فتاة أكثر ثراءً من إيرينى وأنه لا يهمه سوى المال ووصفه بالجشع.
- لماذا؟! كيف يفكر خالى بهذه الطريقة؟!
- إن خالك يعميه حلم العودة إلى وطنه القديم فلا يرى سواه غافلاً عما يدور حوله.
- هذا يعني أن هذه المحاولة لن تكون الأخيرة،

- لاتشغلني تفكيرك يا إيريني، أنت تستحقين أفضل الرجال وثقى بي  
فمتي لاح هذا المحظوظ في حياتك ستظفررين به مادمت على قيد  
الحياة.

- أدامك الله لي يا أخي الحبيب.

- وأدامك أنت أيضا يا حبيبتي ولا حرمني منك ومن عطفك.

- وأدامكما لي يا أحب الأقارب والأصدقاء أيضاً. انطلق بنا فوراً إلى  
بيت عمتك فالقلق يتملّكها انتظاراً لرد الرئيس.

- أنا أيضاً أترقب خطابه ويمزقني الفضول كيف سيصفعهم الصفعة  
التي يستحقونها؟

- الأمر كلّه لا يعنيني.

- أنت تصيبيني بالضيق يا نور حينما تفكرين بهذه الطريقة.

- لماذا؟ أنا أمقت السياسة؛ هي الغاز أعجز عن حلها ولست صانعة  
قرار والحمد لله فلا جدوى من اهتمامى بها.

- كيف تفكرين هكذا؟! نحن جميعاً مشاركون في صنع القرار مع  
الرئيس؟

- وما علاقتنا به؟

- إن تأييدنا لقراره أو رفضنا له يساهمن في اتخاذ القرار.

- وهل يعبأ بتأييد أو رفض؟

– نعم إنه لا يعبأ إلا بشعه ولا يحتمى إلا به فى مواجهة المتربيين  
بوطننا.

– كفى يا دانيال؛ حديث السياسة ينهكنى ويسلبنى طاقتى أرى أن  
تنطلق بنا إلى الشاطئ ثم اذهب إلى بيتك لتستمعا إلى الخطاب  
سوياً.

ينطلق دانيال بالسيارة مسرعاً



(٣)

"ماذا في جعبتك الليلة يا جمال؟!" .

همس مختار بهذه العبارة ثم أشعل غليونه ونفث دخانه في الهواء  
يتربّب خطاب الرئيس حيث أعلن المذيع عن قرب وصوله إلى ميدان  
المنشية .

كانت التساؤلات تعصف بختار هل سيقدم الرئيس ردًا شافيًا أم  
يمر هذا الخطاب كسابقه منذ ثلاثة أيام في عيد الثورة؟!

اقرب يوسف من العجوز الذي شرد بعيداً ولم ينتبه إلى وجود  
يوسف حاملاً صينية عليها كوبان من الليمون البارد، ووضعها أمامه  
على المائدة الصغيرة ثم أمسك كوبًا وقدمه إلى العجوز الذي انتبه  
واستنشاط غصباً حينما رأى كوب الليمون:

- ما هذا؟! لقد طلبت فنجانًا من القهوة السادة .
- أنت متوتر والقهوة تزيد حدة التوتر والليمون سيمتحنك الهدوء .
- هل نصبت نفسك واصيًا علىّ .
- لا لم أقصد ذلك ولكن أردت تهدئتك .
- مازلت رجلاً رشيداً ولا أحتاج إلى نصائحك الذهبية .
- أنا لم أقصد ذلك ولكن أراك متوتراً وهذا الغليون يزيد توترك .
- هذه نصيحة ثانية تريده أن أدع الغليون أيضًا رائع!

- انا آسف يا عمى سأعد لك القهوة الساده حالاً ولا أريدك أن تغضب .

بدا الحرج على وجه العجوز فوضع الغليون على المائدة، والتقط كوب الليمون ورشف منه رشفة ثم ابتسם وقال: "إنه لذيد يا يوسف" .

- هنئياً لك يا عمى .

- هل يُحسم الأمر الليلة أم يُغلق إلى أجل غير مسمى؟

- لدىَ يقين قوى أنه خطاب الجسم ولا رب .

- من أين لك هذا اليقين يا ولدى؟!

- قال في خطابه السابق: "سنبني السد ولو بالمقاطع" . أعتقد أن لديه حلولاً للأزمة لذا تحدث بهذه الثقة وهذا اليقين .

يعلن المذيع عن وصول الرئيس فيلتقط العجوز غليونه بصورة لا إرادية ويضعه في فمه نافتاً دخانه بترقب شديد فابتسم يوسف وقال:

- ها قد وصل وستظفر بإجابات عن كل تساؤلاتك .

- إليك أن تتفوه بكلمة وإلا لكمتك أريد أن أنصت إلى ما سيقول .  
يابتسم يوسف ويضع يده على فمه .

يببدأ خطاب الرئيس بالحديث عن ثورة يوليو وإنجازاتها بعد مرور أربعة أعوام وكيف تتقدم مصر بخطوات سريعة نحو البناء والتممير فيغضب مختار ويعقب:

- هل جاء ليتحدث عن إنجازات الثورة؟!

- صبراً يا عمى٠

يتهد العجوز ويتابع الخطاب فيسترسل الرئيس في الحديث عن صلف الدول العظمى وغطرستها في التعامل معنا، فيبدو الغضب على وجه مختار فينفث دخان غليونه بيساس يمحوه فجأة عبارة يلقبها الرئيس على غير توقع:

"تؤم الشركة العالمية لقناة السويس البحرية شركة مساهمة مصرية"٠

يسقط الغليون من فم العجوز ذاهلاً بينما ينهض يوسف فاغراً فمه مقرباً من المذيع كمن أراد التثبت مما سمع فابتلع العجوز ريقه بصعوبة معقباً:

- ماذا قال؟! أسمعته حقاً أم أتخيل من فرط الفضول؟! إن تكهناتي لم تصل إلى ذلك٠

- نعم يا عمى ما سمعته حقاً أصبحت القناة ملكاً لنا٠

- بل قل عاد حقنا السليم٠ اليوم ترد مصر اعتبارها أمام العالم بأسره، وتسترد مواردها التي ستكتفيها ذل السؤال وتمنحها قيمتها الحقيقة بين الأمم٠

يضع يوسف رأسه في حضنه فيكي العجوز ويحتضنه قائلاً:

- لا أكاد أصدق يا يوسف٠

- بل صدق يا حببى اليوم تهداً أرواح شهدائنا فى القناة، وتهداً قلوب  
ذويهم بعد مرور كل هذه السنوات نحن مدينون بشكر لمن رفض  
تمويل السد .

يبتسم العجوز ودموعه تبلل خديه بينما يدق جرس التليفون ينهض  
يوسف ويجيب:

- آلو .
  - آلو مساء الخير يا (جو) .
  - مساء النور يا ببلب كيف حالك؟
  - كحال شعبنا الآن فرحة عارمة وعزّة تكلل هامتنا .
  - لا حرمنا الله كليهما يا ببلب .
  - لا بد أن نحتفل بهذا الحدث العظيم يا (جو) . إنها ليلة تاريخية لا  
تكرر كثيراً .
  - أصبحت أسرع إلى منزلنا العامر وسأرسل في طلب الحمام المشوى  
الذى تعشقه .
  - منزلكم العامر ! الناس في الشوارع يرقصون احتفالاً بالتأميم، سأتى  
لأصطحبكم إلى مكان رائع لنحتفل ونتناول الحمام المشوى في الهواء  
الطلق على ضفاف النيل السعيد قبل أن يُلجمَه السد المرتقب .
  - كما تحب يا ببلب نحن في انتظارك فلا تتأخر .
- يضع يوسف السماعة ويقترب من العجوز مبتسمًا:

- نبيل قادم إلينا ،

- أسرع وأرسل البواب ليأتينا بالحمام المشوى قبل أن يصل برياحه  
العاتية متسائلاً:  
"أين الحمام؟" .

- لن يتناوله هنا بل سيصحبنا إلى مكان جميل على النيل لتحفل .  
- أسعدكم الله دائمًا يا ولدي استمتعوا بوقتكم أما أنا سابقى هنا .  
- لماذا؟!

ينهض العجوز ويقترب من الحائط متأنلاً إطاراً ذهبياً كبيراً يحوى  
صورة زوجته منال ويتهد بشدة فائلاً: "سأتحفل مع حبيبة العمر" .

يرمقها يوسف بننظره غضب ثم يتأمل مختار بدھشة معقباً:

- أتحفل مع الأموات يا عمى؟!

يغلق العجوز المذيع الذي صدح بالأغاني الوطنية ثم يجلس مجبياً:  
- إذا رحل جسدها فقد بقيت روحها بجسدي حتى نلتقي حين يأذن الله .  
- هذا حديث الروايات يا عمى .  
- الروايات تسرد الواقع .

- ولكنها تضفي عليه خيالاً يحيل حياة من يصدقه إلى جحيم مستعر بل  
تسلبه حياته أحياناً ولهذا لا تنال استحسانى مطلقاً، هي حديث الخداع .

- بل حديث الحياة التي حُرِّمت منها فصرت آلة ربما تتحرك كالسيارة أو تتحدث كال воздействи لكنك في النهاية آلة صماء .
  - لم كل هذا؟! هل تستحق عمتى كل هذا الحب والإخلاص؟!
  - تستحق أكثر من هذا .
  - كيف؟! وهى تقفر إلى المشاعر .
  - لن أسمح لك بالإساءة إليها وإن كانت عمتك فهى زوجتى وحبيبة ورفيقه عمرى .
  - إن حديثك عنها وعن روحها التي تحل فيك يستفزنى .
  - أنت لم تعرف الحب من قبل .
  - ولا من بعد ولن أعرفه مطلقاً .
  - إذن لن تعرف معنى السعادة .
  - تقصد الحزن والشقاء .
  - السعادة والشقاء جزء من الحياة وكل شعور يعطى نقيضه قيمة ومذاقاً يشعرنا بالحياة ولن تفهم إلا بالتجربة .
  - لن أبدل قناعاتى مطلقاً وعفواً لن أغير رأى فيها وفي جميع النساء .
- يلنقط العجوز غليونه ويشعله ثم ينفث دخانه مسترجعاً الماضي:

– لقد نشأت قصة حبنا فى ظروف فاسية وحرب شعواء، فرفضتها أسرتها الثرية التى رفضت ارتباط ابنتها الجميلة المدللة بشاب من أسرة عائلها فلاح باع الفدان الذى يملكه ليعلم ابنه الوحيد .

كيف تعرفت عليها إذن؟

خلال دراستى الجامعية وأحببتهما حبًا شديداً ولكن جدك رحمه الله رفض زواجى منها أما هى فقد صممت على الارتباط بى رغم أنه هددها بحرمانها من الميراث .

– أفعلت ذلك حقاً؟!

– نعم فكل ما يُحارب يا ولدى يستأسد وتنبت له أنبياب . لقد هربت من القصر الفاخر ورحلت معى إلى فرنسا لاستكمال دراستى ونحن صفر اليدين .

– وهل تحملت صعوبة الحياة دون ضجر؟!

– لم أسمع منها كلمة سخط أو ندم حتى حينما توفي جدك وحرمتها من الميراث الذى خصصه لوالدك رحمه الله، ولم ألم فى عينيها ولو نظرة تأييب رغم شعورى بالخجل فى أعماقى .

– هذا يدل على عنادها وإصرارها على ما ت يريد وقد رأيت لمحات من ذلك فى الماضى .

– نعم كانت تتمسك برأيها وهذه ميزة أحياناً وعيوب أخرى . وحيثما عدنا إلى مصر أعطاها والدك رحمه الله حقها فى الميراث ولم يقبل ما فعله جدك وكانت مفاجأة لنا .

- كان والدى كنزًا من الأخلاق لم تقدره أمى .
- رحهما الله يا ولدى . نعود إلى حديثنا قررت عمتك أن تسترى الشقة والعيادة التى نعمل بها اليوم فى نفس العقار حتى لا أبتعد عنها مطلقاً .
- ولكنها تعاملت معى على النقيض مما تروى فهذا ما يثير عجبى .
- حينما كنا بالخارج كنا نلهث وراء لقمة العيش لاستكمال دراستى ولم ننتبه إلى تأخرنا في الإنجاب ولكن بعد استقرارنا بدأنا نبحث عن الإنجاب ، وبعد الكشف وإجراء الأشعة تبين أنى لن أتمكن من منها طفلاً ولم تهتم بهذا الأمر مطلقاً .
- هذا ما يثير دهشتى؛ يُشَاع دائمًا أن النساء قرة أعينهن الأطفال .
- النفوس البشرية مختلفة ، لقد أحبتني عمتك في سن مبكرة تنازلت فيها عن كل مباح الحياة مقابل حبى وحنانى لها، فصار حضنها وطنها وأمانها وأصبحت مشاعرها تجاهى متطرفة تحول حبها إلى تملاك شديد ، ولم تقبل أن ينماز عنى فيها أحد ولم يصبى ذلك بالضيق .
- عقلى يرفض هذه التبريرات .
- ألم تسمع عن زوج يغار على زوجته من صغاره وأم أحبت ابنها إلى حد الجنون فأحالت حياته الزوجية إلى جحيم ل تستائز به لنفسها ، وابن يغار على أمه من أبيه ، النفس تحفل بالتناقضات والغرائب التى يأباهَا العقل .
- مازلت تحاول استدرار غفرانى فلثرح نفسك فلن أبدل رأىي .

دق جرس الباب فنهض يوسف وفتح الباب فوجد نبيل الذى فتح  
ذراعيه قائلًا:

- بالأحضان يا (جو) بالأحضان .
  - يحتضنه يوسف بحماس ثم يدخلان ويغلق يوسف الباب .
  - ينطلق نبيل نحو العجوز ويحتضنه قائلًا: "بالأحضان يا عمى" .
  - أسعدك الله يا بليل أنت بهجة منزانا .
  - أخجلتني يا عمى لا وقت لدينا هيا بنا لنجتقل وسط الجماهير .
  - عمى لن يأتي معنا سيرجت مع زوجته الحبيبة .
  - ماذا تقول يا يوسف؟! هل سلبتك الفرحة عقلك؟!
  - عقلى راسخ لا يقوى مخلوق على انتزاعه .
  - تأدبا فأنا أيضًا عقلى راسخ بداخلى . استمتعوا بوقتكم ولا تشغلوا  
بى .
- يقرب نبيل من العجوز ويقبل يده:
- أرجوك يا عمى أريد أن نجتقل كأسرة وأنت رب أسرتنا الصغيرة  
أنا ويوسف فلا تحرمنا من هذه السعادة التى لن تكتمل بدونك .
  - بل أنتما يا ولدى من منحنى هذه الأسرة وهى مبعث السعادة فى  
حياتى أadamكم الله لي .
  - وأدامك الله لنا .

ـ آه منك أضعف أمامك دائمًا سأبدل ملابسي وآتى معكما .  
ينهض العجوز بينما يشير نبيل بقبضته يده فى الهواء قائلاً :  
"ما أروعك يا عمى " .



(٤)

لحظات السعادة كوميض البرق تومض سريعاً وتنطفئ سريعاً،  
هكذا مرت لحظة التأمين تتهدر بعدها سيول من المؤامرات الجسمان  
على مصر التي قررت أن تسترد حقها وتصون كرامتها وتأخذ مكانها  
تحت الشمس.

إن مكانتها أرفع من ذلك؛ لقد كانت الشمس التي تنشر حضارتها  
على الكون قبل أن تعصف بها رياح الغزارة وتلقي بها في الظلام.

اقضت حكمة الله أن يولد الإنسان ضعيفاً ثم يصل إلى ذروة قوته ثم  
يصير إلى الضعف مرة أخرى والأمم كذلك تسير حياتها بهذا المنحنى  
صعباً وهبوطاً، وهذا قد مرت سنوات الهبوط التي يكفي مصر منها  
ما عانته بسبب طمع هؤلاء المستعمرين الذين اعتادوا الحياة على دماء  
غيرهم فقررت أن تستعيد مكانتها بخطوات حثيثة صامدة في مواجهة  
العثرات والعقبات.

في اليوم التالي للتأمين تقدمت إنجلترا وفرنسا باحتجاج رسمي إلى  
مصر على ما حدث وتلاه تجميد أرصادتها في بنوك بريطانيا وفرنسا  
ثم شكلت بريطانيا وفرنسا قيادة عسكرية مشتركة.

كان على مصر أن تكون على قدر المسؤولية فأعلنت أن حرية  
الملاحة محفوظة في القناة التي أديرت بكفاءة رغم مؤامرة انسحاب  
المرشدين الأجانب لتعطيل القناة وإخراج مصر واستعداء العالم  
عليها، تم اكتشاف شبكة تجسس بريطانية في شهر أغسطس وأعُقل

أربعة من الإنجليز وبعدها تم طرد اثنين من الدبلوماسيين الإنجليز  
لتورطهم في التجسس على مصر.

بعد نجاح مصر في إدارة القناة بمرشدين مصريين ويونانيين  
وإيطاليين وأسبان ثم نجاحها في إثبات حقها أمام العالم، لم يعد أمام  
إمبراطورية الشر سوى الحرب فاتفقت مع حليفتها فرنسا وإسرائيل  
على غزو مصر تحفظ هم قوتهم ونظرتهم الدونية لها.

لم يكن العدوان على مصر وليد التأميم ولكنه كان نزع فتيل قبلة  
اختزن غطسة بريطانيا التي توهمت رجوع عجلة الزمن إلى  
الوراء، بريطانيا التي مازالت تحيا في وهم الماضي الذي ولّى وتريد  
استعادته، ولا تبصر أنها لم تعد تلعب دور البطولة على مسرح التاريخ  
فسعت بقدميها إلى حتفها؛ من لعب دوراً لا يليق به صار أضحوكة  
الآخرين.

في فجر التاسع والعشرين من أكتوبر هاجم الإسرائيليون سيناء في  
اتجاه موقع الكونتيلا تلاه إنذار إنجليزي فرنسي لمصر وإسرائيل  
بالانسحاب بعيداً عن القناة عشرة أميال لسلامة صادرات العالم، وبعد  
الإنذار كانت أول غارة بريطانية على مطار الماظة عبرت فوق منزل  
الرئيس "جمال عبد الناصر" فقرر الرئيس سحب القوات المسلحة من  
سيناء حتى لا يشتت الجيش بين الإسرائيليين من ناحية والإنجليز  
والفرنسيين من ناحية أخرى، وكان مبرره أن مواجهة الإنجليز  
والفرنسيين لها الأولوية وبهزيمتهم يسهل مواجهة الإسرائيليين كما  
قرر إبعاد الطيران المصري لعدم تكافؤ المعركة.

قرر جمال عبد الناصر إزاء ذلك استرداد كل منابع البترول من الشركات الإنجليزية التي كانت محتكرة منهم خطوة مكملة للتأمين والتحفظ على ممتلكات حوالي ستة آلاف من الأجانب معظمهم يهود لا ينتمون إلى جنسيات معروفة وإن كانوا يحملون جوازات سفر من بعض الدول.

لم يكن يوسف ونبيل بعيدين عن هذا لقد قررا الرحيل إلى بورسعيد وكان قراراً صعباً حيث غادر آخر قطار إلى بورسعيد من القاهرة في ظهيرة يوم الخميس الأول من نوفمبر وأصبح المنفذ الوحيد عبر بحيرة المنزلة.

"سأذهب معكما"

· بإصرار تحدث مختار مشعلاً غليونه ونفت دخانه في الهواء

فأجاب يوسف:

- لا يا عمى يكفى سفرنا ·

- ويكفيني متابعة نشرة الأخبار في جانب من منزلتي احتسى القهوة واتدثر بقطاء ثقيل من برد الشتاء، بينما شيوخ بورسعيد ونساؤها قبل شبابها ورجالها يموتون فداءً لبورسعيد ·

- عفوًا يا عمى ولكن الرحلة ليست سهلة ·

- لاتحاولا لقد قررت السفر معكما أو وحدى فما رأيكما؟

- لا نستطيع حرمانك من حلقك في الدفاع عن وطنك يا عمى ·

- أحسنت يا نبيل .

- كيف سذهب إلى بورسعيد يا نبيل؟!

- لقد استطاع صديق لي تدبير الأمر يا يوسف وسذهب الليلة مساءً على أن نصل صباحاً .

- من هذا الصديق يا نبيل؟

- لا تعرفه يا يوسف لنعد أنفسنا للرحيل إلى بورسعيد دفاعاً عن وطننا وموتاً في سبيله .

- انتبه يا نبيل إننا راحلون دفاعاً عن الوطن وهذا هو الهدف أما الموت فليس هدفاً في حد ذاته وإنما خيار تفرضه الضرورة فلا ينبغي أن نموت بتهاور هdraً بل ينبغي أن نحافظ على حياتنا حتى لا تخسر مصر شرفاءها ومحببيها .

- الموت في سبيل الوطن أسمى هدف في الوجود .

- هذا ما أخشاه لأن التفكير بهذه الطريقة يجعل مصر تخسر أحراها فلو كان موتك سيحمي الكثيرين فاحرص عليه، أما إذا كان الموت والاستشهاد هدفاً لذاته فلا معنى له ، ولتعلم أننى مسافر بصفتي طبيب أو لا وفدائى ثانياً .

- لماذا؟!

- إذا حرص الأعداء على قتل الفدائين مرة فهم أحرص ألف مرة على قتل الأطباء الذين يحافظون على حياة الفدائين، وبخاصة في مجتمع يقل فيه الأطباء بل المتعلمون .

– لا وقت لدينا لمناقشة الأدوار التي سيؤديها كل منا فلنستعد  
إلى الرحيل •



## الفصل الرابع : لقاء عاصف

فِي الْبَدْءِ كُنْتُ رَجُلًا وَامْرَأَةً وَشَجَرَةً

أمل دنقل

(١)

انطلقت نور نحو المطبخ تعد طعام الإفطار فتحت باب المطبخ المطل على الحديقة وتطلعت إلى السماء التي بدت ملبدة بغيم كثيرة تنذر بالمطر، ورغم أن نوفمبر خريف فقد بدا الشتاء متھمساً لغزو بورسعيد كالعدوان.

قررت أن تعد الإفطار وتضعه في الحديقة وتفترط مع والدتها رغم نذير غارات الحرب والمطر معاً، وكان مبررها تغيير الحالة التي مرت عليهما منذ دق العدوان أبواب بورسعيد.

بدأت تعد الطعام وتضعه على صينية وبعد الفراغ من تجهيزه حملت الصينية التي حوت البيض المسلوق وحبات الزيتون الأسود، والجبن والخبز وبرتقال تعشقه نور على مائدة الإفطار مع بشائر الشتاء وسكاكين لوضع الجبن على شرائح الخبز.

اتجهت نور إلى الحديقة ووضعت الصينية على مائدة فيها واتجهت إلى المطبخ ثانية لتتأتي بصينية الشاي. ظهر شابان داخل الحديقة بملابس حرفيين يكسو وجههما بالإجهاد والضعف.

كان هذان الشابان يوسف ونبيل متنكرين في ملابس عمال السباكة لإصلاحها في المنزل وكان هذا كله جزءاً من خطة لدخولهما بورسعيد كبقية الفدائيين الذين تتکروا في ملابس صيادين وباعة ألبان، واستتبع ذلك دخولهما إلى هذا المنزل ليختقيا عن الأنوار.

حينما لمح نبيل الطعام رکز نظره إليه في حين انشغل يوسف بتأمل المكان حوله.

"سأفقد صوابي من فرط الفتنة" ، بلهفة عبر نبيل ،

– عن أى فتنة تتحدث يا نبيل؟!

– وهل هناك فتنة تنافس فتنة الطعام وأنا رجل خاوي المعدة منذ مدة طويلة؟!

يلحظ يوسف نظر نبيل المركز على الطعام فيتساءل:

– فيم تفكر أيها المتهور؟

– لم يعد لدى عقل لأفكر به؟

– ليس طعامنا أنفهم؟

– ليس لدى عقل يفكر أو يفهم فلا حرج على فيما أفعل ،

– ماذا تقصد؟!

– سألتهم الطعام ول يكن ما يكون ،

يسرع نبيل نحو الصينية فيحاول يوسف منعه فيدفعه نبيل ويتقدم نحو الصينية فيسرع يوسف ويمسك يده ليمنعه بجسم قائلاً:

– نبيل أرجوك لا أريد إثارة المشاكل ،

– هذا الطعام منحة من السماء يا يوسف فلا يليق أن نردها ،

خرجت نور حاملة صينية عليها فناجان فار غان وإناء الشاي وإناء السكر وملاعق وتقدمت خطوات إلى الحديقة فلمحتهما عند مائدة

الطعام، فوضعت الصينية على الأرض وتناولت فنجانًا وقذفتهما به فطار بعيدًا دون أن يصيّبها، فانتبهما إلى وجودها فقذفتهما بالثاني فخضًا رأسيهما.

"أيها اللصوص أيها الأوغاد" . عبرت نور بغضب .

"أرأيت أيها المتهور؟ لنرحل فوراً" . بغضب تحدث يوسف .

- لا يمكننا الرحيل لقد جئنا لمهمة لا يمكن أن نحيد عنها سأتفاهم معها .

- إنها متواحشة بلا عقل .

تجري نور نحوهما فيراها نبيل فيمسك يوسف ويبعدا قرب شجرة، فتقرب من صينية الطعام وتأخذ برنقالة وتقذفهما بها فتصيب يوسف فيقع فيتناولها نبيل مبتهمًا ومختبئًا خلف الشجرة،

ينهض يوسف معقبًا بغضب:

- أيتها المجنونة ماذا تتعلمن؟!

- أنا مجنونة أيها اللص الوجع!

تقذفه نور بالبيض والبرتقال فيلتقطه نبيل من الأرض وهو يتمتم:

"ويرزقكم من حيث لا تعلمون"

يسرع نبيل خلف الشجرة ويتناول الطعام فيسرع يوسف نحوها ممسكًا يدها فتصرخ:

- دعني أيها اللص الحقير .

- لا حقير هنا سواكِ أيتها المتوحشة ،
- تغافله نور وتمسك السكين وتصبّيه في يده يترك يدها ثم يياغتها بصفعة قوية من فرط الألم فتسقط مغشياً عليها ، يتوقف الطعام في فم نبيل ذاهلاً فيجرى نحو يوسف متسائلًا :
- لماذا فعلت أيها الجنون؟!
- بل تصرفك الأحمق هو ما دفع بنا إلى هذا المصير سأرحل فوراً .
- هل يليق بك كطبيب وكرجل ذي مرؤدة أن تتركها هكذا بعد ما فعلته بها؟!
- لقد أصابتنى في يدى إنها حيوان مفترس .
- لا بد أن نقوم بإسعافها ثم نشرح الأمر لأهل البيت وبعدها نقرر البقاء أو الرحيل .



(٢)

"أنت تضئ منزلنا يا دكتور مختار" .

بابتسامة عبرت سارة عن امتنانها بوجود الدكتور الذى تنكر فى ملابس باائع لبى مرتدىاً جلبًا فوقه معطف طويل، ومعه إناء لبيع اللبن وضعه بين ساقيه .

أطرق الطبيب العجوز رأسه متراجًا ثم عقب:

- أشكركِ يا سيدتى لقىولكِ استضافتنا .
- أنتَ فى بيتكِ يا دكتور .

بدا مختار مجهد العينين من مشقة الرحلة بين القاهرة وبورسعيد، أتى به دانيال إلى المنزل لأنه لم يجد له ولا ليوسف ونبيل مكانًا آمنًا أكثر من منزل عمه بالحى الأفرونجى .

قامت الخطة على دخول دانيال أو لا ثم مختار وبعد وقت قصير يدخل نبيل ويوسف إلى المنزل استبد القلق بمختار بمرور الوقت ولكنه صمت فكسرت سارة حالة الصمت بقولها:

- يبدو أن الرحلة كانت شاقة .

- ليست الأزمة فى مشقة الرحلة ولكن فى المخاطر التى طوقتنا لولا عنابة الله لصرنا طعاما سائغاً لبنادق الإنجليز .

- الحمد لله على سلامتك وسلامة من معك .

- أشكركِ يا سيدتى القلق يستبد بي لماذا تأخر؟

نهض دانيال واقترب نحو الباب ثم قال مهدئاً:

– لا تقلق يا دكتور مختار سأخرج لاستطلع الأمر.

ينصرف دانيال بينما ترسم أمارات القلق والخوف على وجه مختار:

– أدعوا الله ألا يصيّبهمَا مكروه.

– تقاءُل بالله خيراً يا دكتور مختار.

– ونعم بالله يا سيدتى.

يسود قليل من الصمت يقطعه دخول دانيال حاملاً نور غائبة عن الواقع، فتفزع سارة وتنهض مقتربة منه بينما يدخل خلفه يوسف ونبيل.

– ماذا أصاب نور يا دانيال؟!

– لاشئ يا عمتى لاشئ.

– إنها غائبة عن الواقع تماماً!

– ستكون على مايرام أحضرى لى زجاجة عطر بسرعة.

تسرع سارة ثم يضع دانيال نور على الكتبة فيغلق نبيل الباب.

يرمق مختار يوسف بنظرة ريبة يعقبها نظرة تساؤل إلى نبيل الذي يومئ برأسه مؤكداً لمختار شكوكه في أن يوسف السبب في رسم الغضب على وجه مختار، تأتى سارة بزجاجة العطر وتقربها من نور التي تفيف وتنتظر حولها وما إن تقع عيناها على يوسف ونبيل فتصرخ:

- الصوص لقد سرقة الطعام يا أمى وحينما تصدت لهما صفعنى هذا اللص المتواش.

"لست لصاً أيتها الخرقاء" . بغضب عقب يوسف .

- لا يليق بك أن تجib هكذا يا ولدى .

- ألم تسمعها يا عمى وهى تصفعنى باللص .

- هل تريدى أن أشكرك على سرقة الطعام وصفعى أنت متبح!  
اتصل بالشرطة يا أمى .

يبدو القلق على وجه دانيال:

- الشرطة! إنهم فدائيان يا نور وليسوا لصين كما تتوهمين .

تنأملهم نور باشمئزاز معقبة:

- فدائيان! لا أصدق ذلك .

يتقدم نبيل من سارة التي بدت كاتمة غضبها ثم يبتسم قائلاً:

- لقد حدث سوء فهم أنا سببه يا سيدتي؛ كنت جائعاً فلم نتناول الطعام  
منذ تركنا القاهرة وحينما رأيت صينية الطعام لم أستطع مقاومته فأكلت  
منه، فحدث الصدام وأنا اعتذر لك ولها يا سيدتي .

- ولكن هل يصل الأمر بصديقك إلى صفع ابنتى؟!

"لقد أصابتني بالسکين" . بغضب دافع يوسف عن نفسه مشهراً يده  
الجريحة في وجه سارة .

التفت سارة بغضب مكتوم نحو نور وتساءلت:

ـ لماذا أعددت الطعام في الحديقة لا تنتبهين إلى ظروف البرد  
والحرب؟!

ـ وما علاقتنا بذلك؟!

همس يوسف في أذن نبيل: "أرأيت إنها معتوهه" .

ـ ماذا تقولين يا نور؟ السحب تتذر بالمطر وال الحرب أيضا تتذرنا بقنايل  
وصواريخ .

ـ لا علاقة للحى الأفرنجى بالقنايل والصواريخ أما المطر فانا أعشقه  
وأعشق السير فيه وأردت كسر حالة الكآبة التى فرضتها الحرب  
 علينا .

"أنت رائعة!" . بإعجاب عبر مختار فاستقر يوسف فانكمش وجهه  
كقطعة قماش أطبقت يد عليها بقوه . انتبهت نور إلى مختار ورمت  
Daniyal بنظرة تساؤل ومن يكون فأجاب Daniyal:

ـ الدكتور مختار طبيب أمراض نفسية وعصبية ودكتور نبيل صيدلى  
ودكتور يوسف طبيب تقاطعه نور: "بيطري" .

يضحك نبيل فيرمقه يوسف بنظرة غضب فيكتم نبيل أنفاسه  
وابتسامته .

ـ أرأيت يا عمى إنها سليطة اللسان تفتقر إلى الأدب .

ـ أنا سليطة اللسان! أنا أفتقر إلى الأدب أيها الأحمق!

- لا يليق هذا يا نور؛ إنه ضيفنا يا ابنتى.

- إنه يسبنى بدلًا من الاعتذار إن صديقه قد سرق الطعام مثله ولكنه مهندب ذو خلق.

يرمقها نبيل بنظره ضيق هامسًا فى نفسه:

- سرق الطعام! أخطأ حين صفعك صفعة واحدة كان عليه أن يمطرك وابلاً من الصفعات.

يبتسم دانيال لتنطيف الجو ثم يوضح لها:

- دكتور يوسف طبيب فى أمراض القلب.

- إذن لم أخطئ يا دانيال أمراض الكلب تابعة للطب البيطري.

يكاد يوسف ينفجر من الغضب فينهرها دانيال:

- كفى يا نور إنه ضيفنا ولا يليق معاملته بهذه الطريقة.

تبتسم سارة ثم تعقب: "عذرًا يا سادة فلنجاوز ما حصل من سوء فهم، تفضلوا بالجلوس".

يجلس الجميع ثم يتبادل يوسف ونور نظرات غضب كعدوين خاضاً أعواًماً في العداوة.

يبتسم مختار ويقول:

- إن المحبة تأتي بعد العداوة كما يقول المثل، وقد زالت العداوة نحن في انتظار المحبة الآن.

- أصبت يا عمى ولكن المحبة أولها خبز وملح .
- رمق مختار نبيل بنظرة غضب فابتسمت سارة وأشارت إلى نور:
- هيا يا نور لنعد الطعام .
- نهضت نور تصحبها سارة متوجهتين إلى المطبخ .
- أعتذر لكم يا سادة عما بدر من ابنة عمتي نور إنها طيبة القلب رقيقة كالنسيم .
- يهمس يوسف في أذن نبيل:
- نسيمها كالعواصف ورقتها كالأفاعي؛ كادت تفتّك بنا من أجل صينية طعام .
- "ما أخبار العمليات الفدائية يا دانيال؟" . بلهفة تسأله مختار .
- إننا نقوم الآن بتنظيم أنفسنا وفي انتظار الأوامر ولكن عفواً يا سيدي هل تزيد الاشتراك في المقاومة لقد تصورت أنك جئت كطبيب حتى لو كنت غير متخصص في الجراحة .
- لا يضللك لون شعرى تأمل صحتى إنها موفرة والحمد لله والدليل تجاوزى مشقة السفر .
- أنا معجب بحماسك يا دكتور مختار .
- أشكرك يا ولدى وأدعو الله أن يدفع عن بور سعيد ومصر كلها البلاء .

أثناء الحوار بين مختار وDaniyal كان يوسف ونبيل يرافقان كلام مختار بدهشة ولكنهما لم يعقبا مكتفين بما حدث من استفزازات ومضايقات.

"أود أن ألفت انتباهم أن والدى لا يعلم شيئاً عن انضمامى إلى الفدائين" . بحذر تحدث Daniyal .

تبادل الرجال الثلاث نظرات دهشة .

- لا تندهشوا فهذه قصة طويلة أرويها فيما بعد .

- لا تخش شيئاً يا ولدى .

أقبلت سارة حاملة أطباق الطعام وخلفها نور حاملة صينية عليها الشاي فدعاهم Daniyal لتناول الطعام فنهض الرجال وجلسوا حول السفرة .



(٣)

"عليكِ أن تتحلى بالعقل يا نور" .

بوجه صارم تحدثت سارة إلى نور وهمَا جالستان على الفراش  
بحيرة نور .

- مَاذَا تقصدين يا أمِي؟! هَلْ تريِنِي مَعْتُوهَة؟

- أَعْنِي مَا حَدَثَ الْيَوْمَ .

- مِنَ الْذِي بَدَأَ بِالْعَدَاءِ؟!

- مَا يَهْمِنِي رَدُّ فَعْلَكَ الَّذِي اتَّسَمَ بِالرَّعْوَةِ .

- مَاذَا تَنْتَظِرِينَ مِنِّي حِينَمَا أَرَى غَرَبِيِّينَ يَسْطُوْانَ عَلَى بَيْتِنَا؟!

- الْأَمْرُ لَا يَسْتَحِقُ كُلَّ هَذَا وَبِخَاصَّةِ أَنَّكِ تَسْاعِدِينَ الْفَقَرَاءِ .

- لَمْ يَطْرُقَا الْبَيْتَ طَلَبًا لِلمساَعَةِ بَلْ أَخْذَا مَا أَرَادَا رَغْمًا عَنِّي .

- مَافَاتَ انتهَى يَنْبُغِي الْإِهْتَمَامُ بِمَا هُوَ آتٍ عَلَيْكِ التَّحْلِي بِالصَّبَرِ .

- لَا مَجَالٌ لِلصَّدَامِ؛ فَهَمِّتْ كُلُّ شَيْءٍ .

- الصَّدَامُ مازَالَ قَائِمًا؛ الْدَّكْتُورُ يُوسُفُ يَبْدُو لِي شَخْصًا لَا يَأْلِفُ النَّاسَ،  
وَلَا يُحِبُّ المَزَاحَ لِذَا عَلَيْكِ تجنبِه قدرِ المُسْتَطَاعِ .

- كَمَا تَشَائِنِينَ يا أمِي .

- علينا أن نفرغ خزانة ملابسك وخزانة ملابسي ونذهب بهما إلى حجرة جدك لأننا سننام فيها وسينام يوسف ونبيل في حجرتك وحجرتى ستكون لدانيال ودكتور مختار .

- حسناً يا أمي اذهبى إلى حجرتك وأحضرى ملابسك وسأتبعك إلى حجرة جدى .

تصرف سارة بينما تنهض نور وتبدأ في وضع الملابس بحقيقة السفر ثم تشد فيرتسم أمامها ما حدث بالحديقة كأنه مشهد سينمائي يُعاد فتجلس على السرير، وتضع يدها على موضع الصفعه من خدها قائلة بسخط:

- هذه أول مرة يصفعنى أحد كيف يتعامل هذا المتواحش مع مرضاه كيف يشفى القلوب وقلبه مريض بالقسوة والجفاء؟!

طرق سارة الباب منادية من الخارج: "هل انتهيت يا نور؟" .

- سأفرغ من جمع الملابس حالاً .

تجمع نور ملابسها وتتجه إلى حجرة جدها وتقوم بتنظيف الحجرة وتذهب سارة إلى الرجال وتدعوهن لينالوا قسطاً من الراحة .



(٤)

"ما هذا الحظ التعس؟!" .

بسخط شديد عبر يوسف عن غضبه بعبارة مقتضبة .

غطَّ نبيل في نوم عميق بينما قطع يوسف الحجرة ذهاباً وإياباً وقد أعجزه التفكير عن النوم رغم قسوة الرحلة، وما خلفته من إجهاد ولكن عقله لم يعد يشغل إلا هذه المخلوقة التي لم تكن ضمن حساباته .

جلس يوسف على مقعد أمام السرير فلمح صورة نور على التسريحة داخل إطار ذهبي فنهض وأدار الإطار ليخفى صورتها عن ناظريه، وتحرك خطوة ثم عاد وقلب الإطار على وجهه وجلس شارداً عن كل ما حوله إلا صورة نور التي لم يستطع إخفاءها عن خياله يحادث نفسه:

ـ لن أحتمل البقاء مع هذه المخلوقة من يخشى العفريت يظهر له والعفريت يتعقنني في المستشفى في العيادة وحتى هنا في بور سعيد .  
يسمع يوسف طرقاً على الباب فيجيب: "من؟" .

ـ أنا نور .

يتملأ يوسف الغضب فينهض ويضيئ الحجرة ويفتح الباب:

ـ ماذا حدث؟

ـ لقد نسيت بعض الأشياء الخاصة بي .  
ـ أيُّ أشياء؟

- حامل الرسم وبعض الأوراق والروايات ،  
- تفضلى خذى ما تريدين .

تدخل نور وتأخذ أوراقها ورواياتها ثم تأخذ حامل الرسم فتبعدوا لا تستطيع حمل الأشياء لكثرتها وثقلاها، فتنتظر إليه طالبة المساعدة فيتجاهل نظراتها فترمه بنظره غضب وتنقدم نحو الباب فتسقط حامل الرسم على زهرية فوق منضدة قصيرة أمام السرير فتسقط الزهرية متهمة فتثير ضجيجاً يوقد نبيل فرعاً صارحاً:

- هل هجم الإنجليز؟

يتبه نبيل إلى ما حوله فيخجل من نفسه ثم يتجاهل ما فعل متسائلاً بهدوء شديد:

- ماذا حدث؟!

- لقد أطاح حامل الرسم بالزهرية فسقطت على الأرض اعتذر عن إيقاظك على هذا النحو ،

- إنها تعذر يا نبيل أرأيت؟! لم تستطع الصبر حتى تستيقظ ثم تأتى لتأخذ ما تريده .

ترمه نور بنظرة غضب معقبة: "آسفة، ولكن يبدو أنك لم تتم" .

- هذا شأنى وإياك وإigham نفسك فى أمورى .

- يوسف أرجوك توقف عن هذا هى لم تتدخل فى شئونك .

- سأذهب لأضع حاجياتي بحجرة جدي وأحضر المكنسة لتنظيف  
المكان .

تتصرف نور بينما يتأمل نبيل يوسف بغضب شديد ثم يتحدث بلهجة  
تأنيب :

- أنسىتنَا ضيوف بمنزلهم؟! هل فقدت صوابك؟!

- و القدرة على النوم أيضاً بسبب ما حدث منذ دخلنا إلى هذا المكان  
الملعون .

- عليك أن تتحمل حتى تنتهي الحرب .

- لا أحتمل البقاء هنا مع هذه المخلوقة .

- رغم ما حدث إلا أتنى على يقين أنها رقيقة ولطيفة .

- لا تردد على مسامعي مميزاتها؛ لم أقطع هذه المسافة لأظفر بيدها .

- يوسف يبدو أنك نسيت لماذا جئنا إلى هنا، هذا المكان الذي تصفه  
بالملعون مكان آمن لأنه بحى لا تستهدفه قوات العدوان، وسيكفل لنا  
دانيل الدخول والخروج بأمان .

- لا أشعر فيه بالأمان والراحة .

- بديلك إذن معسكرات الإنجليز ولكن أخشى أن تكون الإقامة غير  
مرية هناك .

تقع نور الحديث بالطرق على الباب فيجيب نبيل: "تفضلى" .

تفتح نور الباب وتدخل حاملة المكنسة وباسم تتحدث إليهما ناظرة إلى  
يوسف:

- ينبغي أن تغادرا الحجرة لأنظفها.

يخرج نبيل ويوسف فتبدأ في تنظيف الحجرة فيلفت انتباها صورتها  
المقلوبة فترسم أمارات الغيظ على ملامحها، فتعيد الصورة كما كانت  
ثم تبدل رأيها وتأخذها وتضعها على الكومود المجاور للفراش ثم تكمل  
تنظيف الحجرة وتفتح الباب فتراهما أمام الباب:

- تفضل لقد انتهيت من تنظيف المكان.

يدخل نبيل خلفه يوسف الذي يغلق الباب باندفاع في وجه نور فيسرع  
نبيل ويفتحه ثم يعتذر:

- عفوا يا نور لقد أفلت الباب من يده دون أن يشعر.

- حفأ إنك رجل مهذب ذو خلق رفيع لا تشغلي بالك يا دكتور نبيل.

انصرفت نور فأغلق نبيل الباب ثم أمسك بذراع يوسف بغضب  
وأجلسه على السرير مؤنباً:

- هل ينبغي أن أذكرك في كل لحظة لماذا جئنا إلى هنا؟!

- لا أستطيع تبديل نفسي بهذه السرعة.

- لترحل إذن؛ لست كفانا للمهمة التي جئنا من أجلها.

- لماذا تقول؟! هذه أول مرة تجرحني على هذا النحو.

– إن مصر تواجه معركة البقاء وأنت تقول لا أستطيع إنها معركة  
الرجال أتفهم؟!

– ألا تراني رجلاً على قدر المسؤولية؟!

– أنت سجين مأساتك والدليل أنك في غيبة عما يحدث حولنا ولا  
ترى سوى مشكلاتك أنت.

– هذه قسوة لم أعهد لها منك.

– لأنني أحبك حباً شديداً كما أحب مصر ولا أتحمل ما يحدث لها الآن  
 علينا أن نفرغ عقولنا مما يشغلها إلا شيئاً واحداً الخلاص من هؤلاء  
المعتدين.

– حسناً يا نبيل.

– لتنل قسطاً من الراحة لتجدد نشاطك فأمامنا عمل شاق.

أغلق يوسف النور وعاد نبيل إلى النوم.

حينما وضع يوسف رأسه على السرير اصطدم بصورة نور بجواره  
على الكومود، فنتهد وهم بقلبها ثم بدل رأيه وغطى وجهه تجنباً  
لرؤيتها.



## الفصل الخامس : الماضي الحزين

إذا ظَالِمٌ يُسْتَحْسَنُ الظُّلْمَ مَذْهَبًا  
وَلَجَّ عُتُوًّا فِي قَبِيحِ اكْتِسَابِهِ

فَكِلْهُ إِلَى صِرَافِ اللَّيَالِيِّ ٠٠٠٠ فَإِنَّهَا  
سَبَدِي لَهُ مَالِمٌ يَكُنْ فِي حِسَابِهِ

الإمام الشافعى

(١)

استيقظ مختار ونظر فى ساعته فوجدها تخطت الثامنة مساءً لقد غفا  
كثيراً من فرط التعب ارتدى المعطف، وهبط السلم فوجد سارة ونور  
تنالوان القهوة فى ركن الأنترىيه بينما دانيال بركن السفرة يستمع إلى  
المذيع متابعاً أحداث الحرب منعزلاً عما حوله.

انتبهت نور إلى وقع أقدام مختار مبتسمة برقعة ثم تسأله:

ـ كيف حالك الآن يا عم؟

ـ الحمد لله يا ابنتى ما أعدب كلمة عمى من شفتياك الرقيقين!

تعلو حمرة الخجل وجه نور فتخفض رأسها بينما تبتسم سارة قائلة:

ـ يبدو وجهك أفضل من الصباح الحمد لله وكيف حال الشابين  
العزيزين؟

ـ إنهم يغطّان في نوم عميق.

يخرج مختار غليونه وبיהם بإشعاله فتمنעה سارة:

انتظر يا دكتور حتى تعد لك نور فنجاناً من القهوة كيف تفضلها؟

ـ سادة يا سيدتي.

تنهض نور وتذهب إلى المطبخ بينما يتأمل مختار سارة في دهشة  
تفطن إليها فتعقب:

ـ لا تتعجب يا دكتور مختار كان والد نور رحمة الله يحب تناولها مع  
السيجار.

ينتبه مختار إلى دانيال وقد استغرق في الأخبار التي يبثها المذيع،  
فتتساءل مختار:

- ما الأخبار يا دانيال؟

- لقد ضربت قوات العدوان الإذاعة المصرية وبعدها بدقائق خرجت  
إذاعة سورية الشقيقة تقول " هنا القاهرة من دمشق" مؤازرة لمصر في  
محنتها.

- ليس غريباً أن يفعل أحرار سورية عريقة المنبت ذلك وأنتوقع الكثير  
منهم ومن العرب جميعاً ولكن كيف تتبع الأحداث الآن؟

- على الموجات الإضافية وأحياناً الإذاعات العالمية،

- هل هناك حدث آخر؟

- نعم خطب الرئيس اليوم من الجامع الأزهر في صلاة الجمعة.

- ماذا؟!

- روى تفاصيل المؤامرة الدينية التي حاكها الشياطين الثلاثة إنهم بلا  
شرف أو مروعة.

- الحرب والشرف لا يتفقان ولو أنك قرأت ما فعله هتلر بالأسرى وما  
فعلته قوات الحلفاء عقب هزيمة ألمانيا ستدعى ما أقوله، عالم الحرب  
كعالِم البحار القوي يأكل الضعيف.

- قال الرئيس: "لقد فرض علينا القتال ولكن لن يوجد من يفرض علينا  
الاستسلام وسنقاتل دفاعاً عن حريتنا وكرامتنا".

يلمح مختار مكتبة بجوار السفرة تحوى كتبًا إسلامية ومصحف  
كبير على الخزانة المجاورة لها، فيتعجب ثم ينتبه إلى صوت أقدام على  
السلم فيرى يوسف ونبيل يهبطان يتثاءب كل منهما ثم يقتربان من  
السيدة التي تلقاءهما بابتسامة متسللة:

– كيف حالكم الآن؟

يتجاهلها يوسف بينما يجيب نبيل مبتسمًا:

– الحمد لله أفضل كثيراً من الصباح.

– استريحوا وسألحق بنور لأعد لكم القهوة، كيف تقضلانها؟

– أنا أفضلها مضبوطة ويوسف يتناولها باللبن.

– وأنا أيضاً يا عمتي أحتج فنجاناً من القهوة.

– حلال يا حبيبي.

تنصرف سارة بينما يجلس يوسف مجاوراً لمختار ويجلس نبيل  
مجاوراً دانياً لمتابعة الأخبار فيتأمل مختار يوسف:

– لماذا أنت عابس هكذا؟

– لأشئ لم أفق من النوم بعد.

– أهو النوم فقط؟!

يشيخ يوسف بوجهه متهرباً من نظرات مختار الذي يبدو كاتماً  
غضبه ثم يسود الصمت.

بعد قليل تظهر نور حاملة صينية القهوة، تتبعها سارة تحمل صينية  
عليها أطباق الحلوى وتقترب نور من مختار ،

– هذه قهوتك يا عمى ،

– أشكرك يا ابنتى ،

– بالهناء والشفاء يا عمى ،

يرمقها يوسف بنظرة غيظ وغضب لكلمة عمى فتقرب منه وتقدم إليه  
القهوة قائلة:

– القهوة باللبن التي طلبتها ،

– أنا! أنا لم أطلب شيئاً ،

ترمّق نور بنظرة غضب واسمية راز:

– ماذاإ؟! ماذاإ تقول؟!

يتمالك يوسف نفسه متجاهلاً ما تلفظ به ويتناول القهوة معقباً بوجه  
جامد: "شكراً" ،

تتجاهله نور وتذهب إلى الشابين اللذين يتبعان المذيع وتضع القهوة  
على السفرة ثم تعود إلى الجلوس في ركن الأنترنيه بينما تقدم سارة  
الحلوي إلى نبيل وDaniyal الذي رفض قائلاً:

– لن أستطيع تناول الحلوي مع القهوة يا عمتي ،

– قطعة واحدة فقط تمنحك طاقة في البرد وأنت يا دكتور نبيل لا تحتاج  
إلى دعوة أنت في بيتك ،

– أشكرك يا سيدتي .

تعود سارة وتجلس بجوار نور التي تبادلت مع يوسف نظرات  
كفوهة مسدسات كاتمة للصوت غائبين عن حولهما .

كان الطبيب العجوز يرقبهما بعينين تبتسمان ابتسامة ماكرة  
مستشرقاً شيئاً يبعث على التفاؤل خيم الصمت على المكان، فجأة انتبه  
الجميع إلى صوت طرق على الباب فانتقض دانيال واتجه نحو الباب  
بحذر متسائلاً: "من الطارق؟"

– أنا يعقوب افتح يا دانيال .

يفتح دانيال الباب فيدخل يعقوب الذي بدا رجلاً في السابعة  
والخمسين تقرباً طويلاً القامة له شارب وملامح تشبه دانيال، يتدرج  
شعره بين الأبيض والأسود بصحة جيدة .

نظر يعقوب بوجه متجمهم متعجب من رؤية هؤلاء الغرباء ففطنت  
سارة إلى نظراته بينما أغلق دانيال الباب نهضت سارة واقتربت من  
يعقوب وابتسمت لتخفف من حدة نظراته إلى الضيوف وقالت:

– تعالى يا يعقوب للتتعرف على الضيوف دكتور مختار ودكتور نبيل  
و دكتور يوسف .

– أهلا بكم .

يتقدم مختار ويمد يده ليصافحه: "أهلا بك يا سيد يعقوب" .

يصافحه يعقوب بصمت وتجهم؛ لم يدرك من هؤلاء .

- هذا يعقوب أخي ووالد دانيال .  
يلتفت إليها يعقوب بتعجب وتساؤل كائناً غضبه فتجيئه فوراً:
- الرجال جاءوا من القاهرة لينضموا إلى الفدائين .  
- من أتى بهم إلى هنا .
- أنا يا والدى؛ طلب منى صديق مع الفدائين أن أذهب لهما مكاناً آمناً  
ولم أستطع رد طلبه ولم أجد أمن من بيت عمتي، كما أتنى سأقيم معهم  
حتى تنتهي مهمتهم .
- يبدو يعقوب مقتنعاً إلى حد ما برواية دانيال فيبتسم ابتسامة تفتقر  
إلى الحماس ثم يعقب:  
"لقد أضأتم بورسعيد تفضلوا" .
- يجلس الجميع بينما يعقب مختار: "بورسعيد مضيئ يا سيد يعقوب  
بأهلها الأبطال" .  
ابتسم نبيل بسخرية: "وبنيران العداون أيضاً" .
- لماذا جئت بهم إلى هنا ولم تأت إلى منزلنا يا دانيال فهو أيضاً آمن؟  
- تحسباً لأى هجوم ولو بنسبة ضئيلة والمنزل هنا به قبو يمكنهم  
الاخباء به عند الخطر .
- أصبت يا ولدى فليباركك الرب، اطمئنوا يا سادة أنتم هنا في أمان  
وسننزل جهذا لتأمينكم هذا أقل ما نقدمه إلى مصر التي أكرمتنا وهي  
 بمثابة وطنٍ ثانٍ لنا .

تبعد الدهشة على وجوه الرجال الثلاث فيبادر نبيل بالسؤال:

ـ ألسنم مصربيين يا سيد دانيال؟!

ـ لا إننا أرمنيون، وطننا الأصلى هو الأناضول الذى غادرناه قهراً ولكن الرب خير معوض.

ـ الأناضول! أليست مدينة تركية؟!

ـ نحن أقدم من سكن الأناضول تحديداً الهضبةالأرمينية شرق الأناضول.

ـ ولماذا غادرت وطنك قهراً؟!

ـ إنها قصة طويلة وقديمة لا أريد إيلامكم بها.

ـ إن الألم لا محل له من الإحساس فى مثل هذه الظروف إلا إذا كان سرّاً فعلىً أن أحترم احتفاظك به.

"لا ليس سرّاً يا دكتور نبيل قصّ عليهم يا يعقوب"، بحزن عبرت سارة.

ـ كنا نعيش فى الأناضول أنا وأمى وأبى وأختى سارة وكانت طفلة حينها فى منزل لا تبرح صورته خيالى وفجأة تبدلت حياتنا إلى جحيم.

"لماذا يا سيد يعقوب؟". بترقب طرح نبيل السؤال.

ـ فى يوم أسود من أيام أبريل قررت الدولة العثمانية القضاء على جنس الأرمن إما بالقتل أو بالتهجير من الأناضول، وبقاع أخرى وكنا حينها فى زيارة عمتى التى تقيم فى "سيفيديا" قرب "جبل موسى".

- "جبل موسى" فى سيناء!
- عفوًا يا دكتور نبيل "جبل موسى" الذى أتحدث عنه غرب أنطاكية لا موجود بسيناء.
- "جبل موسى" الذى يتحدث عنه يا نبيل يقع الآن فى لواء الإسكندرونة السورية الذى استولت عليه تركيا عام ألف وتسعمائة وتسعة وثلاثين، لقد قرأت كتاباً كاملاً عنه وعن النزاع بين تركيا وسوريا حوله.
- ولكن معلوماتى يا (جو) أن الإسكندرونة ضمن الأراضى السورية،
- هذا لأن سوريا تضعها ضمن خريطة أراضيها، وتعتبرها ضمن محافظاتها ولا تعترف بالوجود التركى فيها.
- اللصوص!
- بل السفاحون يا صديقى لقد أساءوا معاملة السكان العرب والأقليات العرقية ومنها الأرمن وتسببوا فى هجرة الكثير منهم.
- وماذا حدث بعد ذلك يا سيد يعقوب؟
- فقررتنا الاعتصام بجبل موسى واستمر ذلك من يوليو إلى سبتمبر عام ألف وتسعمائة وخمسة عشر وتعذر على الأتراك مهاجمتنا لطبيعة المكان الجغرافية ولو جود المؤن والذخيرة التى مكنتنا من الدفاع عن

أنفسنا رغم حصارهم للمكان، ولكن الذخيرة والطعام كانا قد أوشكا على النفاد .

- وكيف واجهتم ذلك؟ .

- لحسن الحظ كانت لدينا حرية الاتصال عن طريق البحر فرفعنا رايات الاستجاد التي استجابت لها سفن فرنسية عابرة في البحر، ونزل قائدتها وتحدث مع قائد المقاومة "بيدروس ديملاكيان" . وطلب منه نقل النساء والأطفال والشيوخ إلى قبرص .

- يجعل الله في قضائه رحمة يا سيد يعقوب .

- الرب رحيم يا دكتور مختار ولكن هناك عباد يفتقرون إلى هذه الفضيلة لقد رفض المنصب السامي البريطاني بقبرص استقبالنا، فقرر القائد الفرنسي مخاطبة مندوب بريطانيا في مصر .

- يبدو أنه كان رحيمًا أكثر من مثيله بقبرص .

- للأسف لم يصل إلى القائد الفرنسي ردًا بالرفض أو القبول فنقلنا على مسئوليته إلى بور سعيد وكان عددها يفوق أربعة آلاف، لم تحمل عمني مشقة الظروف التي عشناها فارقت الحياة قبل ركوبنا السفن .

- رحمها الله، ولكن لا أفهم كيف قبلت بريطانيا وجودكم كأمر واقع . ربما لأن بريطانيا وفرنسا كانتا حليفتين أثناء الحرب العالمية الأولى .

- ولكن لماذا ارتكبوا كل هذه المذابح يا سيد يعقوب؟!

– أثناء الحرب العالمية الأولى حاولت روسيا أن تستغل سخط الأرمن لاستخدامهم ضد الدولة العثمانية التي كانت على مشارف الهاك، والغرب يتنازع على أملاكها،  
– وما سبب سخط الأرمن؟!

– بعد ضعف الدولة العثمانية لم تعد قادرة على حمايتنا من هجمات الشركس والأكراد ولا حتى تحسين أحوالنا وربما كان هناك من تعاون مع الروس ضدها ولكن ما ذنبنا نحن؟!

يخرج يوسف عن صمته:

– التاريخ حافل بمذابح ارتكبها الإنسان بحق أخيه الإنسان ولم يعد مبرراً لأفعاله الدينية.

يشعل مختار غليونه وينفتح دخانه متخلصاً من شحنة غضبه:  
– وكيف سارت حياتكم هنا يا سيد يعقوب؟

– أقمنا في خيام أعدها أهل بور سعيد الكرام وأطلقت دعوات في ربوع مصر لمساعدتنا تبرع فيها الفقراء قبل الأغنياء، والمسيحيون والمسلمون سواء،

– هذه هي مصر يا سيد يعقوب كما هي الآن في مواجهة العدوان جسد واحد.

بحماس شديد يقتحم دانيال الحوار:

- إن ما يميز مصر كثير يصعب حصره بل تفسيره إنها لغز كبير لى  
يا سادة .

"لماذا يا دانيال؟!" ، بتعجب تسأله نبيل .

- إنها تفتن الغرباء فتنسيهم أوطنهم فيذوبوا فيها وكأنها وطنهم  
الحقيقي ولا أعرف سرها مطلقاً

- يعقوب يوسف الذى كان مولعاً بقراءة التاريخ:

- حقاً لقد فتنت علماء الحملة الفرنسية فلم يعودوا إلى وطنهم بعد فشل  
الحملة، وهناك الشاعر "بيرم التونسي" الذى لم يتحمل نفيه إلى باريس  
وهرب ليعود إلى مصر .

"هي جريمة نكراء حقاً" ، بضيق عقب نبيل .

- لم تكن الجريمة الوحيدة؛ لقد أبادوا أعرافاً أخرى من السريان  
والأشوريين والكلدان .

"صار بنا الحديث فى اتجاه آخر وأريد أن يكمل السيد يعقوب حدثه" ،  
بلهفة تحدث مختار .

- لقد احترف والدى التصوير على الشواطئ بкамيرا أهدأها إليه أحد  
أبناء الجاليةالأرمنية المستقرين هنا منذ عقود، وكانت حجر الأساس  
للسديو الكبير الذى أديره الآن .

تقاطعه سارة: " ثم أقام هذا المنزل الذى نشأت فيه وتركت فيه نور  
أيضاً" .

- إذن يضم هذا المنزل الماضي والحاضر والمستقبل .
- نعم وقد أخبرنى والدى أن الشيخ "سليم البشرى" شيخ الأزهر أصدر فتوى بتجريم ما فعله الأتراك، وأنه يتعارض مع تعاليم الإسلام السمحاء وكان ذلك سبباً فى إسلام والدى وقد نشأت على الإسلام فى حين بقى أخي يعقوب وأمى على المسيحية .
- عفواً يا سيد يعقوب هل المكتبة المجاورة للسفرة تخص والدك رحمه الله .
- نعم ويوجد مكتبة أكبر منها بحجرة الصالون .
- إنها تحفل بكتب عن الإسلام وعن تاريخ الفراعنة .
- لقد كان والدى مفتوناً بالفراعنة العظام على حد وصفه لهم . وكل ما أوده منكم أن تتقدوا أنكم فى مأمن وبخاصة مع وجود قبو أسفل المنزل لا تصل إليه العفاريت .
- "قبو! أى قبو هذا؟!" . بدھشة تسأله نبيل .
- ينهض دانيال: "بعد إذنك يا والدى هل يمكن أن أطلعهم عليه ليطمئنو" .
- بالطبع يا ولدى وأنا سأتى معكم تفضلوا يا سادة .



(٢)

"تفضلوا يا سادة" .

بهدوء تحدث يعقوب وهو يضغط على أحد جدران المطبخ الذى تحرك إلى الداخل ليسفر عن ممر مظلم خلف الجدار فى نهايته درجة سلم يتجه إلى أسفل، فنزل يعقوب والجميع خلفه إلا نور وسارة .

ظهر قبو يتسع لمساحة البيت بعد برهة تكشفت بالكاد ملامح المكان فى ضوء مصباح يحمله يعقوب، ظهر صندوق خشبي طويل يشبه التابوت الفرعونى يعلوه قفل كبير ويتوسط القبو منضدة صغيرة عليها آلة كاتبة وكرسى خشبي خلفها، وضع يعقوب المصباح على المنضدة فاعترت الدهشة الوجوه فاقترب نبيل من الصندوق وتحسسه ثم سأله يعقوب:

- من يسكن هذا التابوت؟!

- التاريخ يا دكتور .

"التاريخ!" . بدھشة عقب يوسف .

- أھو لغز؟!

- لا يا دكتور نبيل ليس لغزاً إن لهذا التابوت قصة .

"إنها ليلة القصص إذن" . بسخرية عبر نبيل بما يحدث في ذلك اليوم الحالف بالمخاطر والصراعات في بدايته والقصص العجيبة في نهايتها .

نظر يعقوب إلى الصندوق نظرة استرجاع ذكريات قديمة ثم أجاب:

– بنى والدى هذا القبو ليسجل فيه التاريخ لقد أحب مصر والتحم بأهلها في الأفراح والأحزان وألمه كثيرا إساءات الإنجليز لهم فقرر أن يسجل كل شيء هنا على الآلة الكاتبة.

أشعل مختار عود ثقاب وقربه من الصندوق وتأمله:

– وما علاقة هذا الصندوق الضخم بذلك؟!

– اعتاد والدى في نهاية اليوم تسجيل كل ما يشاهده أو يسمعه في أي مكان في مصر، ويحتفظ به في الصندوق بل كان يصور ويؤرخ الأحداث بالصور أيضاً.

تنهد نبيل وقال: "ولماذا احتفظ بما سجل هنا؟"

– بالرغم من شعورنا بالأمان في مصر إلا أن والدى كان بداخله روابط مما حدث في الماضي من قتل وتهجير قسري لنا، فخشى أن يقع الورق في يد الإنجليز فقرر إخفاءه هنا.

يقرب دانيال من الصندوق مبتسمًا:

– أول مرة دخلت هنا ارتعدت من ظلمة المكان ولكن مع الوقت ألفته وحينما رأيت الصندوق قلت له أريد أن أختبئ فيه، ففزع وقال لا أحوجنا الله إلى ذلك يا حبيبي.

يمسك يوسف بالقفل الذي يبدو ثقيلاً ثم يتركه ويتأمل الصندوق:

– أتعنى أن هذا الصندوق يحوى جزءاً من تاريخ مصر؟

- نعم يا دكتور بالليوم والشهر والسنة بدقة شديدة .
  - عفواً يا سيد يعقوب لا يمكن وصف التاريخ بأنه دقيق .
  - لماذا يا دكتور يوسف؟!
  - التاريخ عهدة كاتبه الذي هو في النهاية مهما كانت ثقافته أو أخلاقه الرفيعة يعاني من الهوى أحياناً أو ضعف القدرة على الوصف الدقيق .
  - كيف ذلك؟!
  - أنا شغوف بقراءة التاريخ من أكثر من مصدر وللأسف الحادث الواحد لا تظفر فيه برواية محددة أو مضمون واحد وتظل نهباً للحيرة .
  - ربما الخوف من الحكم أو الطمع في رضاه هو السبب وهذا لا يتتوفر في حالة والدى .
  - ربما فيما شاهده أما ما سمعه من الناس فمحل نظر ورغم ذلك فإن هذا الصندوق يحوى كنزاً عظيماً هل لي أن أطلع على ما فيه .
  - بالطبع يا دكتور .
- يفتح يعقوب القفل ثم يفتح الصندوق فتبعد حافظات أوراق متراصة فوق بعضها نظيفة حيث كانت سارة تتبعه بالنظافة يومياً .
- بدت الدهشة والإعجاب على وجوه الضيوف فاقترب يوسف وأمساك حافظة كتب عليها ثورة يوليو وبدأ يتصفحها ثم رمق يعقوب بدهشة وعلق :
- الأحداث مكتوبة يوماً بيوم .

- نعم ولكنه لم يتمكن من تسجيل قانون الإصلاح الزراعي لقد داهمه المرض وتوفي بعده.

- ألم تفكر في طباعة ذلك الكنز؟

- بالطبع سأفعل ولكن حينما لا يمثل ذلك خطراً لقد كان والدى محقاً فيما فعل.

- لماذا؟

- فى عام واحد وخمسين بعد تججير معسكرات الإنجليز انتشرت فى شوارع بورسعيد ببحثون عن الفدائين وحينما وصلتهم أنباء عن اختباء أحدهم فى الحى الأفرنجى داهموا المنازل وأحمد الله أن الأوراق لم تقع فى أيديهم.

- وهل كانوا سيصلون إلى هذا القبو؟!

- كان رئيس مخابرات بريطانيا (ميجرور ويليامز) يقود عمليات البحث بنفسه وقد استطاع الإيقاع بالكثير من الفدائين ربما أمكنه الوصول إلى هذا القبو إنه كارثة.

"كم أشتاق لرؤيته" ، بغضب شديد ولهمة أشد عبر نبيل.

- إنه رأس الحربة لقوات العدوان الآن؟

- لماذا؟

- لأنه يعرف بورسعيد ويحفظ شوارعها وأزقتها أكثر من بريطانيا، ويجيد اللغة العربية كما يجيد اللهجات المصرية.

- ربما استيقاه الله ليدفع ثمن ما اقترف على يد أهالى بور سعيد .  
"لقد كان والدك حكيمًا فيما فعل فلا تتعدل طباعتها حتى يرحلوا" .  
بابتسامة عقب مختار :  
- لقد أثقلت عليكم بالحديث يا سادة وكل ما أردته أن تعلموا أن لدينا  
مكانًا آمنًا لكم هنا .  
"إذن نسميه قبو الأمان" . بابتسامة عقب نبيل .



(٣)

"من يطرق الباب في هذه الساعة؟!" .

بتربق وقلق تساءلت سارة .

- هل أذهب إلى القبو لأنبه الرجال ألا يصعدوا؟

- لا لنعلم أولاً من بالباب يا ابنتي .

تقربان من الباب فتساءل نور: "من بالخارج؟"

- أنا شريف يا نور افتحي أرجوك .

- أخي!

تهرع نور وتفتح الباب فترى شريف ومعه شاب آخر مرتدبين قبعتين أوروبيتين . كان شريف طويلاً يشبه أخيه إلى حد كبير وهما يشبهان والدهما و كان الشاب الآخر سامر ابن عمه شعره بنى وأشقر وله عيناه بنيتان .

لم تتمالك نور نفسها حين رأت شريف فألفت بنفسها بين ذراعيه واحتضنته بقوة . انتبهت نور إلى الشاب الآخر فنظرت إلى شريف نظرة تساؤل فأجاب:

- هذا سامر ابن عمنا

تأملته نور بإعجاب وحب ثم مدت يدها وصافحته قائلة:

- أهلا بك يا سامر .

صافحها الشاب بحرارة شديدة:

ـ أهلا بك يا نور أنا سعيد برؤيتك .

ـ تفضل وأنا أيضًا سعيدة برؤيتكما .

يدخل الشابان فتغلق الباب فيواجهان سارة التي تكسوها الدهشة حينما ترى شريف وكأنه صورة تطابق والده في مثل عمره، تقترب نور من سارة وتقدمها إليهما:

ـ هذه أمى .

ـ أهلا وسهلا يا سيدتي أنا شريف أخو نور .

ـ أهلا بك يا ولدى .

ـ تشرفت برؤيتك يا سيدتي .

ـ وأنا سامر ابن عم نور .

ـ أهلا بك تفضل .

يجلس الشابان بينما تبتسم سارة بعطف وتعقب:

ـ مفاجأة رائعة! أنتما هنا في مثل هذه الظروف لطمئننا على نور هذا يوحى بحكمة الشديد لها .

ـ إن رؤيتكما والاطمئنان عليكم حلم راودنا كثيراً، ولكننا جئنا لأمر آخر .

ـ ما هو يا ولدى؟

– لقد جئنا دفاعاً عن الوطن ستنضم إلى كتائب الفدائين،  
– الوطن!

– لا تتعجب يا نور، إننا نرتبط بمصر ارتباطاً وثيقاً ولا علاقة لنا  
بجذورنا التركية.

– لم أنت صامت يا سامر؟

– ليس لدى ما أقوله؛ إن حسن لقائكم يأسنني أكاد أموت خجلاً مما  
حدث في الماضي.

– لا علاقة لنا بالماضي الآن.

يقطع الحديث ظهور يعقوب وDaniyal وخلفهما الرجال الثلاث عائدين من  
القبو.

يتأمل يعقوب الشابين بنظرة تساؤل، يبدو التردد على وجه المرأةين  
فتسجّم نور شجاعتها المعهودة وتواجهه:

– هذا أخي شريف وهذا سامر ابن عمى.

يستشيط يعقوب غضباً يكاد يحرق المكان فيصرخ في وجهها:  
– ماذَا؟! من؟!

– خالي أرجوك.

تحول سارة بين نور ويعقوب وبجسم تنذر يعقوب:

– يعقوب إنهم ضيافان في بيتي ولن أسمح بالإساءة إليهما.

يتحاشى يعقوب الصدام مع المرأتين المتحفظتين لوجود غرباء بالمنزل  
فيكتم غضبه ويقول:

ـ سأذهب لأحضر إيريني من بيت خالتها وسيكون لي معك يا سارة  
حديث طويل لنحسم هذه المهزلة، إياك يا دانيال أن تبرح المكان.  
ـ أمرك يا والدى.

ينصرف يعقوب غاضبًا دافعًا الباب بعنف خلفه.

ـ عفوًا يا سادة إن والدى لا يقصد الإساءة أعتذر نيابة عنه، أنا دانيال  
ابن خال نور.

يصافحه شريف:

ـ أهلا بك يا دانيال تشرفت بمعرفك.

ـ وأنا أيضًا تشرفت بمعرفك وبمعرفة سامر.

ـ الشرف الأعظم لي يا دانيال.

ـ تفضلوا يا سادة لا داعي للانزعاج.

يجلس الجميع بينما تبدو الدهشة على وجوه الأطباء الثلاث.

يهمس نبيل إلى مختار: "سأموت إذا لم أعرف سبب غضب السيد  
يعقوب من الشابين".

ـأغلق فمك وإلا لكمناك فتموت دون أن تعرف.

يضع نبيل يده على فمه بينما تبتسم سارة وتقدمهم إلى شريف وسامر:

– أعرف كما بالسادة الدكتور يوسف والدكتور نبيل والدكتور مختار جاءوا من القاهرة لنفس المهمة التي جئتما من أجلها.

يتبادل الجميع إيماءات التحيات ثم يسود صمت قصير فتلمح نور نظرات فضول على وجه نبيل فتبتسم وتسأله: "أديك كلاما تخرج من قوله؟" ،

– نعم لا ربما لا أعلم.

تضحك نور بينما يتكتم الشابان شريف وسامر الضحاك فيستجمع نبيل شجاعته فيتسائل دفعة واحدة وبسرعة شديدة:

– لماذا كان حالك غاضباً إلى هذا الحد؟

يخفى مختار وجهه بكفيه بينما يرمي يوسف نبيل بنظرات غيظ فيتجاهله نبيل ،

– إنها قصة قديمة.

– كيف يا سيدتي؟!

– لقد تعرفت على والدها في استديو التصوير الخاص بأبي ومعه أصدقاء لالتقاط صور تذكارية وحينما رأيته وقعت في حبه والتقينا عدة مرات انتهت بطلبه الزواج مني فوافقت فوراً ولكنني أخبرني أن والده لن يوافق لأنه من وجهاء المجتمع ويريد له زوجة ثرية.

"اللعنة على هذا المجتمع وعلى تقاليده؟" ، بتبرم عبر نبيل .

– لقد طلب منى أن يكون سرًا مؤقتًا حتى يقنع والده فقبلت ولكن والدى ووالدى ثارا ثورة عنيفة أما يعقوب كاد أن يفتاك بي لأن نور الدين زوجى من أسرة تركية.

"اللهذا الحد غضب السيد يعقوب؟!" . بدھشة تسأعل نبيل .

– لقد وصفنى بعاهرة من عاهرات الطريق بلا قيمة ولا كرامة ورغم ذلك تزوجته ومرت أيام زواجنا الأولى حلم .

"لقد تزوجت زوجتى فى ظروف مشابهة وكانت حياتنا معًا كالحلم الجميل" . بتأثر عبر مختار .

– نعم يا دكتور مختار كان حلمًا فى البداية انقلب إلى كابوس مرعب حين علم أخوه وطلب منه أن يطلقنى وإلا سيحرمه والده من الميراث، "وماذا كان رأى والد نور؟" . تسأعل مختار بترقب وهو يشعل غليونه .

– طلقنى فورًا وعاد إلى القاهرة ولم يسأل عنى أو عن نور حتى بعد علمه بميلادها .

– أبهذه السهولة تخلص من حبه لكِ!

– لا أعتقد ذلك ولكنه لم يكن من النوع الذى يتحمل مشاق الحياة فاختار الطريق الأيسر .

بدا الحرج على وجه شريف ونظر إلى سارة بخجل:

- أعتقد أن والدى مدین لك باعتذار يا سيدتى أو ديه الآن، ولو أمكننى تعويضك لفعلت ولكن العمر لا يعوض مطلقاً فاغفرى له .

- هون عليك يا حببى لقد سامحته منذ زمن بعيد ولم أحمل بقلبى ضغينة له، بل صممت أن يكون اسم ابنتى نورهان كما طلب منى فى أيام زواجنا الأولى إذا منَ الله علينا ببنت إكراماً لذكرى والدته التى كان يحبها بشدة، وكنت أناديها نور كما كنت أناديه لأنشعر أنه لم يفارقنى مطلقاً .

- الآن فهمت أمراً حيرنى كثيراً .

- ما هو يا ولدى؟

حينما كان والدى على فراش الموت طلب منى كثيراً أن يرى نور وترددت متوجهةً رفضها زيارته، وفي النهاية أرسلت لها خطاباً وكانت المفاجأة زيارتها، وحسن لقائها له لقد علمت الآن أنها تعلم التسامح والغفران منك يا سيدتى .

يتأمل العجوز نور بإعجاب ودهشة:

- هل ذهبت إليه لرؤيته رغم كل ما فعل يا نور؟

- نعم يا عمى كنت أشتاق إلى رؤيته ولكنني خشيت أن يرفضنى كما رفضنى في الماضي .

- ما أروعك يا نور! إن التسامح لا يصدر إلا من نفس قوية متحركة من الحقد والكراهية والنفوس المظلمة يحتجب نور الحياة عنها فتلحرم

من جمالها ولا تدرك قيمتها، أنت حين سامحت أباك منحك الله هذين  
الشابين الرائعين عوضاً عما حُرمت منه في الماضي.

– أشكراك يا عمى.

– أنت منحة السماء لي.

– كيف؟

– لن أستطيع أن أفسر لك الآن.

ثم همس العجوز في نفسه:

"يارب حكمتك عظيمة نقىض المنطق أن تكون هذه المعركة هي المعجزة  
التي انتظرتها طويلا؟!"

ولكن هل ما تصوره مختار كان حقيقة أم أن الأمل يجعلنا نتوهم ما  
نتمنى؟



(٤)

"إلى أين يا أبي؟" .

بدهشة تساءلت إيرينى .

بدا يعقوب بجوارها شارداً غافلاً عنها تماماً يتمزق بين الدهشة والغضب، وكان الماضي يصر على مطاردته، وكلما تصور أنه نسيه ظهر جلياً فارضاً وجوده بقوة . شغلته أفكاره عن ابنته التي تسير بجواره فعادت تسأله ثانية:

- هل تسمعني يا والدى؟

ينتبه يعقوب ويجيب: "ماذا تريدين يا إيرينى؟" .

- فيم شرودك؟!

- لاشئ .

- ألن نذهب إلى منزلنا؟!

- لا سنذهب إلى بيت عمتك أولاً؛ أريد لها فى أمر هام .

- ما هو؟

- لا شأن لك بهذا والزمى الصمت فلا أحتمل نفسى .

- كما تشاء .

سار يعقوب تجاوره إيرينى بخطوات مسرعة حتى وصلا إلى منزل نور ودق يعقوب الجرس بقوة، وكأنه يفقأ عين الجرس ففتح دانيال الباب محيياً:

ـ أهلا يا إيرينى حمداً الله على سلامتك.

دخل يعقوب وخلفه إيرينى فأغلق دانيال الباب. تلفت يعقوب حوله ثم تسائل:

ـ أين عمتك يا دانيال؟

ـ إنها بالمطبخ تعد طعام العشاء.

اتجه يعقوب إلى المطبخ مسرعاً بملامح غاضبة، انقضت نور حينما رأت إيرينى فأسرعت إليها مبتسمة: "أهلا يا ريري".

ـ أهلا يا نور.

تبعد الدهشة على وجه إيرينى حينما ترى الغرباء الذين حفل بهم المنزل فتوضح لها نور الأمر:

ـ أريد أن أعرفك بالضيوف: الدكتور مختار والدكتور نبيل والدكتور يوسف وابن عمى سامر وأخى شريف لقد جاءوا من مصر للانضمام إلى الفدائين.

ـ حقا! أهلاً وسهلاً.

يومئ الجميع بالتحية فتقوم نور بتعريف الجميع بإيرينى:

ـ إيرينى ابنة خالى يعقوب.

يلفت انتباه إيرينى شريف الذى يعبرها اهتماماً مميزاً فيتبادلان نظرات سريعة تنم عن إعجاب فبيادرها شريف بالحديث: "تفضل بجوارى" .

- أشكراك ،

جلست إيرينى ثم ذابت مع شريف فى حديث يفصلهما عما يدور حولهما بينما عاد الجالسون إلى حديث الحرب فافتتح دانيال الحديث:

- هل تعتقدون أن رفض إنجلترا وفرنسا قرار الأمم المتحدة بوقف إطلاق النار اليوم وقول مصر له سيكون ذا أثر فى سير المعركة ،  
"لا أعتقد" ، بإصرار أجاب نبيل ،

"ما العمل إذن؟" ، بقلق تساءل سامر ،

فأجاب يوسف :

- لن ينفعنا سوى سواعدنا فما حك جلتك مثل ظفرك ، علينا أن نجبرهم على الرحيل والاستسلام .

"الرحيل والاستسلام ! إنهم يفوقوننا عدداً وعتاداً" ، بدھشة عقب دانيال ،

فأجاب يوسف :

- لو فكر المصريون هكذا لما هزموا الحملة الفرنسية رغم أن حال مصر حينها كان متربداً .

لا تنس يا (جو) أن هناك أسباباً كثيرة ساهمت فى فشل الحملة الفرنسية وأنا لا أعني بذلك التهوين من قيمة المقاومة المصرية حينها .

أشعل مختار غليونه ونفثه في الهواء:

– أصبت يا نبيل ولكن أود أن أفت انتباهم جميعاً أنكم إذا أديتم  
واجبكم على أكمل وجه سيريكم الله عجائبأ لأنه أعظم من عددهم  
وعتادهم ولكنه لا يمنحك معجزاته للكسالى المتواكلين.

"ما أروعك يا عمى هذا كلام العقل والإيمان". بـإعجاب عبر نبيل.

كانت نور أثناء الحديث شاردة لا يجذبها سوى مشهد يحاكي مشاهد  
السبيناً يؤدي فيه شريف وإيريني دورى البطولة، فألقت نظرة تتارجح  
بين الإعجاب والقلق، كانا كالعاشقين فى بستان لا يضم سواهما  
ولكنها تدرك موقف خالها من والدها، ومن يتمنى إليه فكان قلقها  
وخوفها سبب إفساد إعجابها بهذا المشهد البديع، لمح مختار شرود نور  
وعدم مشاركتها في الحديث فنهض وجلس مجاوراً لها دون أن تشعر  
به وتساءل:

– نور فيم شرودك يا ابنتى؟

انتبهت نور إلى مختار فأجابته: "لاشي يا عمى".

– أحقاً؟!

تنهدت نور بقوه ثم أشارت برأسها إلى شريف وإيريني قائلة:

– ما تراه أمامك هو سر قلقى وشرودى.

– لماذا؟!

– ألا يُنبئك هذا المشهد يا عمى بشئ مخيف؟!

- بل بشئ جميل .

- ولكنك علمت موقف خالى من أبى وبالتالي فإن ما تراه محکوم عليه بالفشل وإيرينى رقيقة القلب وشريف أخرى ولن أحتمل تحطيم قلبيهما .

- لقد تزوجت حبيبة عمرى عمة يوسف فى ظروف أصعب من ذلك ونعمنا بسعادة لم أكن أتخيلها فلا يوجد مستحيل على هذه الأرض مادمنا نسعى لتحقيقه متسلحين بالإيمان بالله وبقدراته التى تفوق كل قدرة .

تنتبه نور إلى قوله "عمة يوسف" . فتعقب بدهشة:

- كنت أتصور ان الدكتور يوسف ابن أخيك .

- لا ولكنه بمثابة ابن لى فأنا من تولى تربيته .

- وماذا عن دكتور نبيل فهو يناديك عمى أيضا؟

- إنه صديق يوسف الوحيد وهو يعتبرنى بمثابة والده الذى رحل منذ زمن طويل .

- أرجو أن يتسع صدرك لى فيما سأقول .

- قولى ما تشاءين فلا تعلمين ما أكتنزه لك من محبة بداخلى .

- إن الدكتور يوسف ينافض الدكتور نبيل تماماً ومُحال أن يكونا صديقين مقربين .

- إذا عُرف السبب زال العجب كما يقول المثل .

- لك مطلق الحرية أن تروى السبب أو تخفيه يا عمى .

- لقد فتحتمنا لنا أنتِ ووالدتك الكريمة قلبكما وخلالكِ أيضًا فكيف أوصده  
في وجهك، على النقيض أنا أتمنى بشدة أن أروي لكِ الماضي •
- وأنا كلی آذان صاغية •
- حسناً فلننجه إلى ركن السفرة بعيداً عن صخب السياسة •
- كما تحب يا عمِّي •

ينهض مختار نور ويتجهان إلى ركن السفرة ويجلسان ويروى لها  
الماضى، بينما يستعرق العاشقان شريف وإيرينى في حديثهما الذى بدا  
لا حدود له فقد أفرغ كل منهما ما بقلبه لآخر •

انتبه دانيال إليهما وبدأ الخوف يتسلل إلى قلبه فاقترب من إيرينى  
هامساً:

- أريدك بضع ثوانٍ •
- أستأذنك يا شريف لثوانٍ قليلة •
- تفضل يا إيرينى •

تنهض إيرينى فيرافقها دانيال بعيداً بجوار باب المنزل ويتسائل  
بهشة:

- ألا تنتبهين إلى ما تفعلين؟!
- ماذا تقصد؟!
- ماذا لو جاء والدك مفاجأً لنا ورآك تجاورين شريف وتحادثينه؟!

- عفوا يا أخي لم أنتبه إلى ذلك .
- يبدو أنك فقدت ذاكرتك فلم يعد بها سوى هذا الشاب الذى هبط علينا فى ليلة عجيبة وظروف أكثر عجباً .
- لا أدرى يا دانيال ماذا حدث لى حينما رأيته؟!
- أشكر الرب الذى جعلنى أنتبه إليكما وإلا تحطم المعبد على رءوسنا جمیعاً ولكن الصدام يبدو مؤجلاً بتساؤلك هذا يا إيرينى .
- لا أستطيع الحديث الآن فلتؤجل كل ما تريد قوله فى وقت آخر .
- بالطبع فلا هذا الوقت المناسب ولا المكان الملائم للحديث يظهر يعقوب من جانب المطبخ تعقبه سارة يرسم وجههما آثار مبارزة كلامية شديدة نتیجتها تعادل بلا أهداف، يبدل يعقوب ملامحه الجامدة إلى ابتسامة زانفة:
- أعتذر لكم يا سادة أنا مضطرب إلى الرحيل وأرجو أن تتعموا بالإقامة هنا فأنتم في منزلكم .
- "شكرا يا سيد يعقوب" ، بابتسامة عقب مختار .
- اقترب يعقوب من إيرينى أمراً: "هيا يا إيرينى" .
- هل ت يريد أن أرافقكما إلى المنزل يا والدى ثم أعود .
- لا تغادر المكان مطلقاً يا دانيال .
- كما تحب يا أبي .

يلتفت يعقوب فحأة ويرمق شريف وسامر بنظرات غضب يخالطها  
وعيد فيطرق سامر برأسه خجلاً، بينما يبادله شريف بنفس النظرة ثم  
يشيخ بوجهه في إصرار فيأخذ يعقوب إيريني ويغادرا المكان، فيغلق  
دانיאל الباب خلفهما في قلق تتبه إليه سارة فتقرب من دانيال:

– مَاذَا بِكَ يَا دَانِيَال؟

– لَا شَئٌ يَا عُمْتَى ، وَلَكِنْ أَخْشَى أَنْ يَصْطَدِمَ وَالَّذِي بِشَرِيفٍ وَسَامِرٍ  
فَأَخْسِرَ نُورَهُ .

– لَنْ يَحْدُثْ مَا دَمْتَ أَسْيَطِرُ عَلَى الْأَمْوَارِ هِيَا لَنْعَدُ الْمَائِدَةَ؛ نُورٌ مُسْتَغْرِقَةٌ  
فِي الْحَدِيثِ .

تسرع سارة إلى المطبخ بينما يتساءل دانيال في نفسه:

"أَحْقَا يَعِدُ التَّارِيخَ نَفْسَهُ؟"



## الفصل السادس : صراع الحب وال الحرب

غَيْرَ أَنَّ الْفَقَىٰ يُلَاقِي الْمَنَائِا  
كَالْحَاتِٰ وَلَا يُلَاقِي الْهَوَانَا

وَلَوْ أَنَّ الْحَيَاةَ تَبَقَّى لِحَىٰ  
لَعَدَنَا أَضَلَّنَا الشُّجَاعَانَا

وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَوْتِ بُدُّ  
فَمِنَ الْعَجَزِ أَنْ تَكُونَ جَبَانَا  
الْمُتَنَبِّى

(١)

"الشاي على الفحم" .

بجدية أخبر سلامة دانيال الذى بدت عينيه معبرة عن أرق شديد داخل المكان الذى تجمع فيه الفدائيون الذين تجمعوا طوحاً بل رغبة فى القتال؛ دفاعاً عن الوطن بعد خطاب الرئيس وكانوا من مستويات مختلفة اجتماعياً وثقافياً مدنيين وعسكريين من الشرطة والجيش متعلمين وغير متعلمين، جسد واحد فى مواجهة العدون الغاشم .

سلامة أخوه سميارة شاب أسمى طويلاً شعره مجده ملامحه مصرية يفور شهامة ونبلاً اكتفى بتعلم القراءة والكتابة ثم احترف الصيد مع والده ليساعده على تكاليف المعيشة، ورغم ذلك كان مُشجعاً لسميرة فى مسيرة تعليمها ومحفزاً لإخوته الصغار على مواصلة التعليم .

حينما أشرقت الشمس حضر دانيال والتى بسلامة وهو يعد الشاي على موقد الفحم بدا دانيال متلهفاً للإفصاح عن أمر هام:

ـ لقد وصل خمسة متظوعين من القاهرة أمس وقامت بترتيب إقامتهم لدى عمتي .

ـ وما وصفهم؟

ـ طبيبان أحدهما فى جراحة القلب والثانى طبيب نفسى وصيدلى ومهندس ومحاسب، وأحدهم تجاوز الستين ولكن بصححة جيدة والبقية شباب .

ـ الجراح سنحتاج إليه بشدة لرعاية المصابين أكثر من القتال .

- هل أعددتم مكاناً للمصابين؟
- هناك مستشفيات في بور سعيد ونحتاج إلى الأطباء لأن عددهم قليل.
- لابد من وجود مستشفى احتياطي يا سلامة في مكان آمن.
- بدت الدهشة على وجه سلامه وهو يصب الشاي ثم قدمه إلى دانيا  
متسللاً:
- لماذا؟
- إن ما أخشاه أن يتم ضرب المستشفيات وحينها ستصبح في مأزق كبير.
- وما العمل إذن؟
- لدى فكرة يمكنني أن أقيم مستشفى في بيت عمنى تحسيناً لذلك.
- فكرة جيدة يا دانيا.
- ماذا عن السلاح؟
- لقد تسلمنا شحنة سلاح من ضباط الجيش أمس.
- وكيف قاموا بتوريبيه؟
- في براميل الطرشى واللبن وبمساعدة بعض النساء.
- إذن لدينا الفدائيون والسلاح سنزلزل الأرض تحت أقدامهم. أين سيتم تجهيز الخطط؟

- لقد جاء بعض الضباط من القاهرة والجبيرة في ذراعهم تخفى الخطط المعدّة حتى الآن وسيتم إعداد بقية الخطط بمبني المباحث الجنائية، وسيقود العمليات ضابط بالجيش.
- ما المطلوب مني الآن بالتحديد؟
- إعداد المستشفى وإحضار الفدائين لتدريبهم على السلاح.
- نعم ينبغي أن يتدرّبوا جيداً ونكون على حذر المعركة ليست سهلة والمؤامرة كبيرة.
- ثلث دول يحاربون دولة واحدة بل مدينة صغيرة.
- الأمر أكبر من ذلك يا سلامه؛ إن أمريكا التي رفضت تمويل السد سحببت رعاياها في اليومين السابقين على الهجوم الإسرائيلي على سيناء.
- هذا يعني أنهم كانوا يعلمون بما تم تدبّره لنا؟!
- بشكل مباشر أو غير مباشر.
- لا أفهمك.
- ربما أسرّوا لها بنو آيام وتركتهم يفعلون ما يريدون دون الظهور في الصورة، وربما كانت تعلم من مكتب استخباراتها الله أعلم.
- إنهم يفتقرون إلى المروءة حينما يتقاتلون لقتال مدينة صغيرة كبور سعيد قاتلهم الله.
- الرب أعظم من كل قوة وسيكون بجوارنا فنحن أصحاب الحق.

- ينهض دانيال:

- سأذهب إلى بيت عمتي لإعداد المستشفى ثم أحضر الرجال.
- ينصرف دانيال بينما يتهدد سلامه متضررًا إلى الله:
- حفظك الله يا دانيال وحفظ وطننا الغالى من كل المتربيين.



(٢)

"حقًا لا يمنع حذر من قدر" .

بسخط عبر يوسف والضيق والغضب يكادان يفجران حجرته  
· منزل نور ·

قرر يوسف أن يحبس نفسه طواعية بعد أن تم إعداد حجرة الصالون بالطابق السفلي صباحاً لتصير مستشفى ونقل طاقم الصالون إلى القبو، وأخرجت المكتبة لتجاوز المكتبة الأخرى بركن السفرة وتم تجهيز صيدلية بالحجرة والاكتفاء في حجرات النوم بمरتبة واحدة لكل سرير والاستعانة بالثانية ليرقد عليها الجرحى ·

بعد رحيل الرجال مع دانيال، وجد يوسف نفسه وحيداً في مواجهة نور ثانية فقرر تجنب الصدام معها، وحبس نفسه بالحجرة ومعه كتاب من مكتبة جدها ليشغل نفسه بالقراءة ·

تبدل حال نور منذ عرفت ماضيه من مختار وتأثرت بما حدث له حتى بكت تألمًا وإشفاقاً لما قاساه في صغره ولم تتم ليلتها؛ شغلا التفكير فيه عن النوم وأدركت من تأمل ما علمته عنه أنه إنسان نبيل أصيل المعدن فلا يتاجر بمهنته رغم مهارته الشديدة في زمن تقل فيه أعداد الأطباء كما أنه حاصل على الدكتوراه في إنجلترا، ولن يست القسوة إلا درعاً يتدثر به ليفيشه الوقوع في حب امرأة تشفيه فهو يتعامل بالمبدأ الطبي القائل: "الوقاية خير من العلاج" ·

تحول إحساس نور بمرور ساعات الليل وهي تفكر فيه إلى تعلق وإحساس بالمسؤولية تجاه ما رسم بذهنه من فكرة خاطئة عن النساء،

وقررت أن تحمل على عاتقها تبديل هذه الفكرة التي تحولت بمرور الزمن لمرض تأصل في أغوار نفسه، وفشل الطبيب النفسي ذاته في تخلصه منه ورأت أن تسامحها ورقتها ستكون سلاحها لاستئصال المرض الذي حجب عنه نور السعادة وجعله يعيش في صحراء جراء خالية من الجمال الذي يتصوره جحيمًا بأفكاره الخاطئة.

كانت نور تدرك أن مواجهته ستكون حرًّا شعواء كالتي تخوضها مصر أمام ثلاثة دول فهل ستنتصر؟! رأت أنها بصبرها وذكائها يمكنها تحقيق الانتصار عليه، ووجدت أن صراعها معه إن كان قاسياً فسيعطي لحبها لذة يعرفها المحبون جيداً في السهر والقلق وترقب ما يحدث.

قررت نور أن تبادر بالهجوم متسللة رد فعله العنيف فماذا سيحدث أكثر مما حدث في أول لقاء لهما؟! وبدأت تفكك كيف تبادره بالهجوم وتتقحم عليه الحجرة التي حبس نفسه فيها، فجأة جاءتها فكرة إعداد طعام خفيف له شارف النهار على الانقضاض، ولم يتناول شيئاً بعد الإفطار وأخبر والدتها أنه لن يتناول الغداء إلا بعد رجوع الرجال في المساء.

انتهزت نور انشغال والدتها بالمذيع ومتابعة الأخبار بترقب وقلق شديدين وأعدت له القهوة باللبن التي يعشقها، وشرائح الخبز التي يعلوها الزبد والمربي، وحملت الصينية وما إن اقتربت من السلم حتى لمحتها سارة فنادت عليها:

– إلى أين يا نور؟

- سأقدم الطعام للدكتور يوسف.

- لكنه لم يطلب شيئاً.

تقرب نور بالصينية وتضعها على السفرة وتجلس أمام أمها فتخفض صوت المذيع وتقول:

- لن يطلب يا أمي نظراً لطباوه التي تعلمينها، كما أنه ضيف لدينا.

- أخشى أن يرفض الطعام بأسلوب فظ.

- لا يا أمي لقد تعهدتى الدكتور مختار أنه لن يتجاوز حدوده معى.

- كما ترين وينبغى أن أذكرك بما تعهدتى لي أنت أيضاً من قبل حتى تنتهى الحرب.

- على ذكر الحرب ما الأخبار؟

- حاولت بعض القطع البحرية لإنجلترا وفرنسا إنزال قوات بحرية بالسويس لتصل إلى بور سعيد فقصدت لها زوارق الطوربيد المصري، وأغرقت ثلاثة منها فانسحبت البقية إلى قاعدتها بعده.

- يبدو أن الأمر سيتخذ صورة جدية ولم أشهد حرباً من قبل.

- إن الحرب موت وخراب يا ابنتى وقانا الله شرها.

- لا بد أن أصعد قبل أن تبرد القهوة باللبن.

تنهض نور وتصعد إلى أعلى بينما تدير سارة المذيع وتتابع الأخبار.

حينما تصل نور إلى حجرة يوسف يخفق قلبها بشدة فتأخذ نفسها عميقاً وتنتمسأ ثم تطرق الباب، فيتحول هذا الطرق إلى غارة على حجرة يوسف الذي ينتفض متبرماً، ويضع الكتاب بجواره على السرير ويتأمل الباب برهة ثم يحاول أن يهدأ ويجيب:

ـ من بالباب؟!

ـ أنا نور ،

ـ ماذا تريدين؟!

ـ هل يمكنني الدخول؟

يهمس يوسف في نفسه: "ما هذه الجرأة؟!" .

ينهض يوسف ويفتح الباب فيصطدم بنور حاملة الصينية مبتسمة .

ـ مساء الخير لقد أعدت لك طعاماً خفيفاً لم تتناول شيئاً منذ الصباح ،

ـ لم أطلب شيئاً ،

تبعد نور بالصينية وتقتحم الحجرة ثم تصفعها على المائدة الصغيرة قائلة:

ـ أنت ضيفنا وينبغي إكرامك دون أن تطلب .

يرمقها يوسف بدهشة ثم ضيق وغضب فتكاد أوداجه تنفجر، تتجاهله نور وتبتسم بهدوء فيحاول التماسك متسائلاً: "هل هناك أمر آخر؟" .

ـ نعم أود أن أخبرك بشئ سيسعدك تماماً .

- يسعدنى! ما هو؟!

- أنا أجيد التمريض؛ تعلمته لرعاية جدى فى مرضه فسأعاونك فى رعاية الجرحي.

يستشيط يوسف غضباً فاقداً أعصابه:

- لا أحتاج إلى مساعدة أحد فلا تتطوى بشئ لم أطلبه منك أتفهمين؟

- اهداً يا دكتور لماذا كل هذا الغضب؟!

- لا شأن لكِ بي؟

- هذا أمر عجيب الطبيب فى حاجة دائماً إلى ممرضة.

- أنتِ تفرضين نفسكِ علىّ وهذا يقلل من رصيد كرامتك ألا تدرکين ذلك؟!

تطعن كلمات يوسف كرامة نور وكبرياءها فتحاول دموعها السقوط ولكنها تتماسك وتبتسم ابتسامة ساترة لألمها:

- طاب وقتك يا دكتور يوسف.

تنصرف نور بينما يشعر يوسف بالحرج البالغ لأنه أدرك من ملامحها وردها أنه جرحها بالفعل، وهى لم تفعل ما تستحق عليه التجريح بهذه القسوة، بل تستحق الشكر لقد أعدت له طعاماً بعد يوم طويل لم يذق فيه شيئاً، وعرضت عليه المساعدة التى بالفعل سيحتاجها، لم ت تعرض عليه الغرام كما تفعل معه بعض النساء اللائى

يحتقر هن فأدرك خطأه الحسيم ونقضه للعهد الذي قطعه على نفسه أمام نبيل.

ألقى يوسف نظرة على صينينة الطعام وتنهد ضيقاً من نفسه لماذا فعل ذلك؟ إنه يشعر بالجوع فعلاً ويحتاج إلى فنجان القهوة باللين، فجلس وبدأ يأكل شرائح الخبز التي بدت لذية وتناول مشروب المفضل وبدأ يفكر ماذا يفعل، أيدذهب إليها متعللاً بإعادة الصينية ليباردها بالاعتذار الذي لم يصدر منه لامرأة من قبل؟ أم يتتجاهل الأمر تماماً لأن ذلك سيريحه منها؟

دار بداخله صراع حسمه في النهاية أن ما فعله ليس من المروءة وأن اعتذاره ليس اعترافاً ضمنياً بالإعجاب بها، وليس وثيقة زواج ستربطه بها وبالفعل حينما انتهى من تناول الطعام حمل الصينية، وهبط السلم فوجد سارة تتبع الأخبار وحدها فلمحته ونادت عليه:

ـ مساء الخير يا دكتور يوسف.

ـ مساء النور.

وضع يوسف الصينية على السفرا ثم عبر عن إعجابه بالطعام قائلاً:

ـ شكرًا على الطعام الذي لقد جاء في وقته وبخاصة القهوة باللين.

تبتسم سارة في دهشة من أسلوبه الرقيق:

ـ بالهناء والشفاء يا ولدي!

تقع كلمة ولدى على قلب يوسف كقطرات الندى على الطائر فيهتز جسده؛ لم يسمعها من امرأة سوى مرات قليلة في الماضي من سيدة زوجة راضى وسرعان ما نسيها.

يدرك يوسف أن كلماته كان لها وقع أشد مما تصور لأن نور ليست هنا فعلى الأرجح بحجرتها فتلمح سارة الحزن بوجهه فتسأله:

ـ ماذا بك يا دكتور يوسف؟!

ـ لاشئ سوى القلق على الرجال ما الأخبار؟

ـ عند هبوطك السلم كان هناك خبر هام.

ـ ما هو؟

ـ أغرفت خمس سفن عند مدخل القناة فتعطلت عن العمل وأنا لا أفهم مغزى هذا الفعل.

ـ في اعتقادى أن عبد الناصر أراد الاستفادة من دروس التاريخ؛ خدع "ديليسبيس" الضابط الثنائى "أحمد عرابى" أثناء حربه مع الإنجليز وأخبره أنهم لا يستطيعون دخول مصر منها وكان ذلك سبباً فى هزيمته واحتلال مصر، كما أن تعطيل القناة سيجعل العالم يدرك غباء العowan الذى تسبب فى ذلك بعد إدارة مصر القناة بمهارة.

ـ فليكن الله فى عون مصر يا ولدى.

خفق قلب يوسف لكلمة ولدى ثانية وكأنها سهم يصوبه فأجاب فوراً:

ـ أستاذناك يا سيدتى.

- في رعاية الله يا ولدي .

ينصرف يوسف بينما تعود سارة إلى متابعة الأخبار .

حينما وصل يوسف إلى حجرة نور تردد قليلاً في طرق الباب وليس ذلك لغطسة منه وإنما لشعوره أنه سقط في خطأ فادح لا يدرى كيف يعتذر عنه ولكنه استجمع شجاعته وطرق الباب فجاء صوت نور من الداخل متهدجاً: "من؟" .

- أنا يوسف .

صمتت نور برهة فاستشعر يوسف رفضها النابع من غضب شديد وشعور عميق بالإهانة فأدار ظهره إلى الباب وهم بالرحيل فأتى صوتها من خلفه:

- دكتور يوسف!

التفت يوسف فوجدها في مواجهته تماماً فابتلع ريقه بصعوبة ثم تراجع خطوة فبدت له آثار دموعها الجافة معبرة عما فعله، فشعر بالخجل فبادرته بالسؤال:

- لماذا تريدين؟!

- أشعر أنني قد أساءت إليك بكلماتي التي لم أقصدها ربما خانني التعبير نظراً لظروف الحرب التي أورثتني القلق والتوتر لذا أرجو أن تغفر لي خطئي .

تناثر نور بشدة حيث بدا يوسف كطفل أخطأ ويعتذر لأمهاتهم نور بالابتسام ولكنها تتراجع سريعاً وتعقب بجدية:

- لم يحدث شئ أنا أدرك الظروف التي نعيشها لذا لم أغضب منك .

يهز يوسف رأسه متفهماً وينهى الحديث كرسول جاء لتوصيل رساله فيستأننها وينصرف فتدخل نور حجرتها سريعاً لتعبر عن سعادتها التي تملكت جسدها فصارت تقفز من الفرحة وجرت نحو المرأة لتأمل نفسها ثم قبلت وجهها في المرأة وهي تخاطب نفسها:

- أنت رائعة! أنت قوية!

وفجأة خطر لها خاطر حينما تأملت وجهها جيداً في المرأة أنها تحتاج إلى حمام ساخن لتزيل آثار الحزن عن وجهها وقلبها ولتحتفل بانتصارها عليه .

على الفور ملأت حوض الاستحمام بالماء الساخن ووضعت بعض الزيوت العطرية وألقت بنفسها في الحوض وأغمضت عينيها وأطلقت العنان إلى خيالها يفكر فيما سيحدث في المستقبل وكيف أن الطريق سار ممهداً لتخترق قلبها .

ولكن هل كانت نور محققة فيما تسرب إلى نفسها من إحساس بالنصر؟!  
هل السد الذي شيدته السنون يمكن هدمه بضربة معمول واحدة؟!



(٣)

"لقد سلب حبها عقلى و قلبي" .

بحزن بدأ نبيل يروى قصة جه ثم أخرج سيجارة وأشعلها ونفث دخانها .

تبادلت سميرة ونور نظرات دهشة وتساؤل ارتسمت على وجههما، كانت سميرة قد تطوعت لرعاية الجرحى مع نور ويوفى بعد ساعات عملها فى مكتب بالبريد، وبعد تناول الغداء أعدت نور القهوة وقررت تناولها مع سميرة فى الحديقة وقد خيم الظلام على المكان وحين خرج نبيل للسير وحيداً فيها شارداً نادته نور ليجلس معهما .

لم تفعل نور ذلك من تلقاء نفسها وإنما تلبية لرغبة سميرة التي منحته اهتماماً خاصاً لم تمنحه أحداً من قبل نظراً لحيثه الذي يغور حماساً وحبّاً جارفاً للوطن ودفاعه عن حقوق الفقراء وخفة ظله، حينما فرغ نبيل من الطعام كانت سميرة قد انشغلت بالتفكير فيه فبادرته بالسؤال بلهفة:

- من تكون يا دكتور نبيل؟

- ابنة عمى وحبي الوحيد .

- حبك الوحيد!

- نعم يا نور لقد نشأنا سوياً منذ تعلمنا السير وكانت الحياة جنة نحيا فيها وحدنا ولكن لحظات السعادة قصيرة .

"لماذا يا دكتور نبيل؟" . بحزن تساءلت سميرة .

نفث نبيل دخان سيجارته بحزن شديد أعقبه تنهيدة قوية ثم أجاب:

ـ لأننا حينما نكبر نفهم الحياة جيداً ونعلم أننا لا نحيا وحدنا بل بين الناس، وكلما اقتربنا منهم قلَّ رصيد حريتنا التي يكلونها بقيود القاليد التي ابتكروها ليحيلوا الحياة سجنًا لا يتحملونه، ولكنهم يدفعوننا لتحمله.

ـ أنتِ محق يا دكتور نبيل.

ـ لقد خلق الله الحياة يا نور سهلة بسيطة ولكن الإنسان يسعى ليحيا في الهموم التي هي فيحقيقة الأمر صغار نمنحها قيمة من صنع خيالنا.

رشفت نور القهوة شاردة ثم تسأله:

ـ ما علاقتك بذلك وبابنة عمك؟

ـ لكي أزيل الغموض عن حديثي لابد أن تعرفوا من أنا وكيف سارت حياتي.

ـ لتناول قهوتك أو لا يا دكتور نبيل.

ـ أشكرك يا نور.

يتناول نبيل القهوة مستطرداً: "نشأت في أسرة ثرية تملكآلاف الأفدنـة وكنت الوريث الوحيد لوالدى". وحينما دخلت الجامعة تعرفت على طلاب يساريين انخرطت معهم؛ مؤمناً بحق كل مواطن في ثروات الوطن".

"أنا اقدر هذا الفكر رغم أنى لست يسارية" ، بـاعجاب عبرت سميره ،

لم ينتبه نبيل إلى كلام سميره فقد شرد بحزن شديد كسا وجهه حينما  
استوقفته سميره فلفت نور انتباهاه ليكمل حديثه وقالت: "أكمل يا  
دكتور نبيل" ،

- صرت ناقماً على أسرتي التي تملكآلاف الأفنة في مقابل آلاف  
ال فلاحين المعدمين الذين يملكون قوت يومهم بالكاد، تبلى ملابسهم على  
 أجسادهم فلا تقيهم حر الشمس ولا قسوة البرد ،

رشفت سميره القهوة ثم عقبت بسخط:

- لقد كانت مصر حكراً على ندرة من البشر يشقى فيها الآلاف وينعم  
بالثمار فئة قليلة ،

- نعم يا سميره لذلك قررت تصويب هذا الوضع ،

- كيف يا دكتور نبيل ،

قررت أن أمنح ثروتى لمن يستحقونها حينما تسنح لي الفرصة وأرث  
أسرتى ،

"تمنحها كلها! هذا أمر عجيب" ، بدهشة عبرت نور ،

- وما العجيب في ذلك يا نور؟! هل ترين هذا الوضع عادلاً؟

- العدل منحة إلهية لا بشرية لذا فإن ما قررتنه يُعد أتعجبة الأعاجيب ،

- بل ما فعلته حينما ورثت ثروة والدى قررت توزيع الأراضى على  
ال فلاحين ولكن بعد تفكير متعقل تراجعت ،

تقاطعه نور: "أرأيت؟! هذا هو السلوك الطبيعي" .

- لاتتسرعى يا نور فلم أتراجع عن قرارى بل تراجعت عن الوسيلة،
- كيف؟

- لقد قررت بيع الأراضى وتوزيع المال على الفلاحين فلا يمكن عمى من استردادها بسطوته وسلطانه وزعوت بعضًا من المال على العمال والجمعيات الخيرية، واحتفظت بمبلغ أقمت به صيدلية لأعوال نفسى وأساعد الفقراء بجزء من ربحها،

- تأملته سميحة بدهشة شديدة وإعجاب ثم خفق قلبها لهذا المخلوق العجيب الذى بدا أقرب إلى الملائكة فى صفاته من البشر، إنه يفوق أبطال الروايات التى كانت تتصورها خيالاً فأصبحت أسيرة له، وأدركت أنه لا فكاك منه رغم أنه يحيا فى عالم امرأة أخرى .
- "إن ما فعلته يثير إعجابنا يا دكتور" . بابتسامة عبرت نور .

- إن حديثك يمسح الألم الذى تعرضت له بسبب ما فعلت وفجر سخط عمى الذى ثار كثور مطعون وانهال على السباب واتهمنى بالجنون والحمق ،

- ألهاذا الحد؟!

- نعم يا نور بل وزاد على ذلك رفضه القاطع زواجى بنسمة؟
- "هل اسمها نسمة؟" . بحزن تساءلت سميحة .
- نعم واسمها يعبر عنها .

- إذن دفعت ثمناً فادحًا لمبادئك ونبلك الذي يعبر عنه اسمك أيضًا.
- حفأً يا سميرة و هي أيضاً دفعت ثمناً لما لم تختره بل ما فرضته عليها فرغم جبها الشديد لى و توسلاتها إلى أمها تمسك عمى برأيه.
- ألم يكن في العائلة أحد يمكنه التوسط بينك وبين عمك؟
- اللعنة على هذه العائلة يا نور إن توصيفها الدقيق قطيع من الغنم؛ تبرأوا مني جميعاً بل تقدم عمى الأكبر يطلب زواج ابنه بنسمه ليقطع السبيل إلى زواجي بها، وضياع ثروتها مستقبلاً.
- "وماذا كان موقفها؟!" ، بلهفة تسألت سميرة.
- للأسف لم تكن مقاتلة كى تجهر بالرفض بل استسلمت لإرادة عمى.
- لقد تغير المجتمع ولم تعد الفتاةاليوم كما كانت في الماضي يا دكتور نبيل.
- أنتِ مخطئة التغيير اختيار شخصي وليس مجتمعيًا كما تتصورين.
- هل أنتَ واثق أنها كانت تحبك قدر حبك لها؟
- لا تظلميها يا سميرة لقد كتمت أحزانها بداخلها حتى تجمعت وصارت ورمًا سرطانيًا أسلمها إلى الموت بعد عامين من زواجهما.
- ملذا؟!
- لقد أسلمنى موتها إلى عزلة فرضتها على نفسى ولو لا يوسف وعمى مختار لكان مصيرى مصحة نفسية.

– الله يخلق فى قضايه كثيراً من الرحمة لذا حبك بصديق مخلص وأب حنون أنقذاك من هذا المصير التعيس .

– لقد شعرت أنتى مسئول عما حدث لها يا سميره .  
– وما ذنبك يا دكتور نبيل؟

– كان بإمكانى أن أفرض ما أريده حتى لو اضطررت إلى خطفها والزواج منها رغمًا عنهم .

– إنها إرادة الله الذى سيعوضك حتماً جزاء نبالك .

– أنتِ محقه يا نور فى ذلك لقد صارت مصر حبى الجديد الذى ملأ فؤادى .

– ماذ؟!

– لقد صارت هموم وطني ما يشغلنى الآن وحينما حل العدوان تذكرت مأساة حبى؛ إن حبى الجديد يتعرض إلى عدوان يربى أن يسلبه منى ولن أستسلم هذه المرة .

أطلقت سميزة سراح دموعها بانفجار فبدأ نبيل متاثراً فاعتذر قائلاً:

– أنا آسف يا سميره لقد أثقلت قلبك بهمومي سامحيني .

– لا تعذر يا دكتور لقد تأثرت أنا أيضاً مثلها، وكل من يعرف قصتك سيكون هذا رد فعله .

نهض نبيل: "أستأذنكما أريد السير منفردًا فى الهواء" .  
– كما تحب يا دكتور .

ينصرف نبيل فتهض نور وتحتضن سميرة فتنفجر دموعها كالسيل  
فتخفف نور عنها قائلة:

– كفى يا سميرة هونى على نفسك لم أراك بهذا الضعف أبداً .  
– لا يستحق يا نور؟!

– يستحق الكثير ولكن لا تستغرقى فى جرحه الذى تجاوزه وشغل  
نفسه بقضايا أخرى .

– أنت واهمة إنها تحيا بداخله .

– إنها فى ذمة الله وهذه حقيقة يمكنها أن تكون نبتة أمل لك معه .

– إن إخلاصه الذى هو أنبيل ما فيه هو نفسه الحال بيني وبينه .

– أنت حقيقة وهى خيال .

– هذا تصورك أنت اللعنة على الحرب التى ساقته فى طريقى؛ لم أقابل  
إنساناً بهذا النبل وهذه القوة من قبل .

– لقد قدر الله ذلك لحكمة وعليك أن تتعاملى مع غريمتك على أنها طلل  
ومهمتك اقتلاعه وبناء صرحاً مكانه .

– أنت تنسين أن بورسعيد تواجه عدواً شرساً والظروف لا تسمح .

– ربما تأتى المنفعة من منبع الضرر ومن يدرى ما الذى تخفيه الأيام؟

تشرد نور قليلاً فما تقاسيه صديقتها ذكرها بمساتها؛ لقد تجاهلها  
يوسف على المائدة تماماً، حينها أدركت أن اعتذاره لم يكن إلا شعوراً

بالخطأً وما إن اعتذر حتى أسقطها من ذاكرته فشعرت بخفة عقلها  
ومن سذاجتها لأنها توهمت أنها ربحت المعركة بهذه السرعة ،

إنه صرح منيع بسور مرتفع يصعب اختراقه ولكنها كما تبث الأمل  
في صديقتها عليها أن تبته في نفسها مهما كانت ظروفها أصعب . إذا  
كانت سميرة تواجه طلل امرأة فإنها تواجه طللين تغلغلًا بداخله ،

انتبهت نور إلى سميرة التي هزتها بقوه :

ـ نور إلى أين تحلقين؟!

ـ ليتني أملك القدرة على التحليل عاليًا ،

ـ أتریدين الهروب من نفس المصير الذي أواجهه؟

ـ ماذا تقصددين يا سميرة؟

ـ أتخفين عنى ما رأيته واضحًا كالشمس ونحن نتناول الطعام؟!

ـ عم تتحديث؟

ـ عن الدكتور يوسف ،

تشيح نور بوجهها حزنًا وأسى ،

ـ لماذا تخفين عنى؟! إن والدتك صديقة حنونة متفتحة ورغم ذلك أنتِ  
لا تخفين عنى شيئاً ،

ـ إن ظروف الحرب تشغلى أمى فلا مجال للحديث معها وهى تتخذ منه  
موقفاً صارماً ،

- ولماذا تتخذ منه ذلك الموقف؟!

- إنها قصة تعارفنا رسخت بداخلها انطباعاً سلبياً عنه.

- يبدو بالفعل شخصاً صموئلاً جاماً على التقىض من نبيل.

- ما علمته عن حياته جعلني أبدل رأيي وأتعلق به ولا أستطيع إفلات قلبي من قبضته.

- وماذا علمت عنه حتى يأسرك إلى هذا الحد.

- سأروي لك ولكن عذيني ألا يعلم أحد بما سأروي لك.

- أعدك يا نور.

- هيا بنا نصعد إلى حجرتى حتى نتحدث بحرية.

- كما تحبين يا نور.

تنتبط نور ذراع سميرة ويتوجهان إلى حجرتها.



(٤)

انكمشت نور داخل فراشها فى الظلام تتصارع الأفكار برأسها بينما سارة مستغرقة فى النوم بجوارها . استبد بها اليأس دقائق قليلة ولكن سر عان ما تذكرت أن كل أمر لا ينجح مع المحاولة الأولى حينما خططنا أول خطوة ونحن أطفال نتعلم السير سقطنا ، وما زلنا نحاول حتى صرنا نجري فأدركت أنها لم تفشل ولكن عليها المثابرة والصبر .

وسر عان ما فتحت للتردد باباً حين تبادر إلى ذهnya سؤال اندفع كشلاً متدفع هل الصبر والمثابرة يمكنهما تبديل قناعاته؟! هل ما شيدته السنون يمكن هدمه في أيام؟! نعم ولكن الوقت عدوها؛ هي لا تعلم متى تنتهي الحرب ولا تستطيع تمنى طول عمرها .

صار السؤال الأهم كيف تنتصر على الوقت وهذا يتطلب معرفة الثغرة التي تنفذ من خلالها إليه وعلى الفور تذكرت ما حدث من صدام في أول لقاء لهما وقد تركت في نفسه أثراً قوياً والدليل أنه لم يتحمل صورتها بالحجرة ، وهنا أدركت أن رقتها ليست سبيلاً إلى قلبه بل الصدام والاستفزاز ربما بدا ذلك غريباً ، ولكن البشر خلقوا مختلفين مما يناسب إنساناً لا يناسب آخر .

وقادها ذلك القرار إلى تساؤل آخر كيف ستستقر غضبه حتى تلفت انتباهه وبعد العداوة كما قال الدكتور مختار تأئي المحبة ، لم تكن الإجابة عسيرة فهى تعلم أن لديها ذكاء في تدبير المؤامرات الكوميدية التي كانت تدبرها لدانيل وإيرينى في صغرهم ، ولديها سعة صدر

تؤهلها للوصول إلى الهدف؛ من يملك الصبر يملك مفاتيح النجاح أما هو فصدره ضيق كثقب الإبرة لذا سيكون يسيراً إثارة غضبه.

قررت نور ألا تنتظر الصباح فهبطت من الفراش في خفة ثم أمسكت بحذائها الفرو الوردي وتحركت نحو الباب وفتحته فتحة صغيرة، ونظرت فبذا الظلام مخيناً على الطرقة إلا من ضوء خافت، ينبعث من مصباح كهربائي صغير معلق في نهايتها بالقرب من الحمام.

فجأة انفتح باب حجرة يوسف فابتھجت نور وشعرت أن القدر يساعدها ولكن تبدلت بهجتها إلى خيبة أمل حينما وجدت نبيل يخرج من الحجرة متوجهاً إلى الحمام، فانتظرت حتى أغلقه على نفسه وخرجت وأغلقت الباب خلفها.

وقفت نور أمام باب حجرة يوسف شاردة لا تدرك ماذا تفعل ثم وضعت يدها على مقبض الباب ولكنها شعرت بالخجل من نفسها؛ هل يليق بفتاة مهذبة أن تقتحم حجرة رجل نائم؟ ماذا لو لم يكن نائماً؟ إنها تتبعى استفزاز غضبه لا احترافه الذى هو سبب كراهيته للنساء كما لا ترى أن تخسر احترامها لنفسها، فتراجع عن قرارها وترك مقبض الباب وارتدت خطوة إلى الخلف.

انقطع التيار الكهربائي فجأة وهذا سمعت صوت مقبض باب الحمام فأسرعت الخطأ نحو حجرتها، ودون أن تتنبه اصطدمت بمائدة مستديرة صغيرة يعلوها تمثال فسقط على قدمها فصرخت أسرع نبيل نحوها وأخرج من جيبه علبة الثواب، وأشعل عوداً فرأى قدمها تنزف.

فتح يوسف باب حجرته وخرج على أثر صوتها فلم يكن من النوع  
الذى يستغرق فى النوم بشدة أما سارة فلحسن حظ نور كانت نقىض  
ذلك فلم تشعر بشئٌ

اقرب يوسف من نور ونبيل متسللاً:

- ماذَا حدث؟!

- لقد سقط التمثال على قدمى وأنا فى طريقى إلى الحمام؟

- هل كنت تنوين دخوله فى الظلام؟!

- لقد انقطع التيار عقب خروجى من حجرتى، آه إن قدمى تؤلمنى  
بشدة.

- إنها تنزف يا نور لابد أن ننقالك إلى حجرتك ونقوم بتضميد الجرح.

- لا يا دكتور نبيل أرجوك إذا استيقظت أمى ورأنتى مصابة بهذا  
الجُرح ربما أصابتها صدمة فلا تحتمل أن يصيّبَنى شئٌ.

- إذن سأحملك إلى حجرتنا ونجري لك إسعافاً سريعاً.

فجأة يرتعد نبيل حينما تلهب إصبعه نار عود الثقاب عقب احتراقه  
 تماماً.

"انتبه يا نبيل" . بفزع صرخ يوسف.

- لا تهتم يا يوسف المهم الآن إسعاف نور .

أخرج نبيل عود ثقاب آخر وأشعله ثم طلب من يوسف أن يحمل نور  
إلى حجرتهما فرمقه يوسف بننظرة غيظ، أسرع نبيل إلى حجرة

الحرارة بالطابق السفلي وأحضر مستلزمات الإسعاف من شاش وقطن  
ومطهر .

رقدت نور على الفراش وهي تشعر أن الغضب يكاد يفجر يوسف  
ويحيله إلى أشلاء فقررت انتهاز الفرصة للطرق على الحديد وهو  
ساخن :

- الحجرة مظلمة تماماً والظلام يصيّبني بالكافحة ،
- ليس لدى ما أضئ به؛ أنا لا أدخن ،

يتهدى يوسف بغضب شديد تستشعره نور من صوت زفيره ورغم  
الألم الذي تملكتها من جراء جرح قدمها غمرتها السعادة لما حدث؛ لم  
تتصور أن الخطوة التي خطتها أدت إلى كل ما حدث في لحظات  
قليلة . من يدرى ماذا سيحدث بعد ذلك؟!

قطع شرودها دخول نبيل يحمل شمعة كبيرة ووضعها بجوار  
الفراش على الكومود ثم أعطى يوسف أدوات الإسعاف، فتناولها وبدأ  
يضمد جراح نور التي كانت تتآوه من الألم فنهرها يوسف غاضباً:

- أخفضي صوتك؛ لا يليق أن يراكِ أحد هنا في الحجرة حتى لو كنت  
أضمد جرحك؟

- إنه يؤلمني بشدة ولا أحتمله .

- تحاملى على نفسك قليلاً حتى انتهى .

- لا أستطيع؛ الكحول على الجرح كالنار تکوى الجلد .

يتجاهلها يوسف رغم ما بدا على وجهه من غضب شديد ثم أنهى لف  
الشاش حول قدمها .

- سلمت يا نور .

- سلمك الله يا دكتور نبيل .

- سأحملك إلى حجرتك لستريخي .

- لا أرجوك أريد أن أهبط إلى الطابق السفلى؛ لقد طار النوم من  
عيني من شدة الألم .

- ولكنك تحتاجين إلى الراحة حتى يهدأ جرحك .

- لن أستطيع النوم وأخشى أن أتألم فستيقظ أمي ويحدث ما  
أتفاداه . أريد أن تستيقظ كما اعتادت وبعد أن تهدأ وتستقر تعلم بما  
حدث .

- كما تحبين يا نور هيا سأحملك إلى الطابق السفلى .

تناؤه بشدة وتسigliث بنبيل أن يحضر لها مُسْكناً فيسرع على الفور  
بينما يطلب من يوسف نقلها إلى الطابق السفلى، فيحملها بغضب شديد  
تشعر من وجهاه فى ضوء الشمعة الخافت الذى حملتها لتضئ لهما أنه  
يود أن يلقى بها من فوق السلم .

حينما وصلا إلى ركن الأنترية، وضعها يوسف بعصبية فوق  
الأريكة فشكرته فتجاهلها بغضب بينما جاء نبيل حاملاً المُسْكَن وكوب  
من الماء فتناولته نور وشكرته فابتسم لها قائلاً:

- سلمت يا نور من كل سوء .  
- أنت إنسان رقيق يا دكتور نبيل !  
- أشكرك يا نور .  
- أهناك ما يعكر صفو الدكتور يوسف ؟  
"لا شأن لك بى" . بوجه جامد أجاب يوسف صادماً نور .  
- ألم تتعلم اللياقة في حياتك مطلقاً؟! لا أصدق أنك حصلت على  
الدكتوراه من إنجلترا .  
- من أنت كي تصدقى أو لا تصدقى؟  
- أنا نور . ربما يخدعك مظهرى الهدئ الرقيق ولكن ثق تماماً أننى  
لست مسكونة كسيرة الجناح تتبلع إهاناتك المتكررة وتصمت .  
- لقد خبرتك جيداً منذ رأيناك ولم أستشعر ما تقولين مطلقاً بل رأيت  
الشراسة والوحشية أما أنت فما عرفتني جيداً و الأفضل ألا تحاولى .  
- بالتأكيد لا أرغب فى معرفة كائن بغيض مثلك .  
- اخرسى وإلا انتزعت لسانك من جذوره .

كان نبيل يتبع الحديث رافعا حاجبيه من فرط الدهشة متسللاً في  
نفسه كيف تطور الأمر بهذه السرعة؟! و لكنه أدرك يقيناً أن نور  
تحاول استفزاز يوسف الذي سقط في بئرها بسهولة فلماذا تفعل ذلك؟!  
ولم يطل شروده فقد أفاق على صوت نور تهدى يوسف .

"سأذفوك بكل ما تقع عليه عينى حتى وإن كانت هذه الشمعة" ، بعينين مشتعلتين أكثر من الشمعة بدت نور وهى تهدى يوسف فقرر نبيل التدخل حتى لا يتتطور الأمر فقال:

ـ اعتذر يا نور عما قال يوسف.

ـ إنه لا يعرف اللياقة مطلقاً أنا أشك أنه طبيب.

ـ ليت يدى بُترت قبل أن أضمد جرحك.

ـ ليتها حقاً؛ إنها تؤلمنى بشدة أنت فاشل.

ـ أنا فاشل! أترى يا نبيل؟ هذا جراء من يعطف على الأفاسى.

ـ تأدب يا يوسف، عفواً يا نور أرجو أن تقبل اعتذارى نيابة عنه.

ـ ماما؟! أنا لم أفوضك لتعذر نيابة عنى هى المدينة باعتذار لى عن سوء أدبها.

ـ اعتذر ثانية يا نور.

يمسك نبيل بذراع يوسف ويتوجه به بعيداً مؤنباً:

ـ أهذا وعدك لى ولعمى؟! الرجال لا ينقضون عهدهم.

ـ ألا ترى ما تفعل يا نبيل؟!

ـ الرجل يجب أن يسيطر على غضبه.

يرمقه يوسف بغضب شديد ويشيح بوجهه بعيداً فيتركه نبيل ويدهب إلى نور ويتسائل:

– هل أنتِ أفضل الآن؟

– الحمد لله.

– إذن سأحملك إلى حجرتك لترتاحي.

– لا سأقضى ليلى هنا لا أرغب في النوم.

– الجو بارد وربما أصبت بالبرد.

– لا تشغلي بالك بي.

– سأحضر لكِ غطاءً من حجرة الجراحة تستدفين به.

ينطلق نبيل إلى الحجرة بينما تلمح يوسف يرميها بنظرة تكفي لإشعال المنزل فيأتي نبيل ومعه الغطاء فيعطيه لها فتشكره ثم يأخذ يوسف ويتوجهان إلى حجرتهما.

شردت نور فيما حدث لقد قدم القدر لها يد المساعدة فجرحها سيكون وسيلة تواصل بينهما وال موقف حتماً سيثبت مواقف أخرى للتواصل، وهذا أسندت رأسها إلى مسند الأريكة وشدت الغطاء على جسدها وأسلمت نفسها إلى النوم.



(٥)

"حينما أرى الإسكندرية كأني أرى اللاذقية لأأرى بلدين بل بلداً واحداً" .

بإعجاب عبر "جول جمال" ضابط البحريه السوري عن امتراج مصر وسوريا في جسد واحد ، نشأ جول جمال بمدينة اللاذقية بسوريا لأب ثائر ضد الاحتلال الفرنسي علمه والده حب القومية العربية هو وإخوته منذ نعومة أظفارهم .

قرر جول جمال دراسة البحريه فسافر مع البعثة التي جاءت إلى مصر ، وكان الأول على دفعته ومنحه الرئيس جمال عبد الناصر ساعة ذهبية تقديرًا لتميزه .

بعد تخرجه بقى بمصر ليتدرج على الطور بيد الجديد الذى اقتتنى مصر ، ثم عاد إلى سوريا وبعد هجوم العدوان الثلاثي على مصر أسرع إلى التطوع فى صفوف الفدائين ، فخلد اسمه بأحرف ذهبية فى سجل العظماء .

ابتسم الصاغ جلال الدين الدسوقي ضابط البحريه المصرى وعقب مداعبًا :

– أهذا ما دفعك إلى المشاركة في المقاومة؟

– لا إن ما يجمعنا أكبر من مدينتين متشابهتين؛ إنه التاريخ المشترك .  
– لقد قدر لنا القدر مصيرًا مشتركًا؛ أنا أذكر اتفاقى مصر والشام عن حكم الدولة العباسية والدولة العثمانية .

- للرب حكمة في أقداره

- أصبت أتدرى بمن تذكرني الآن؟!

- من؟

- بسلیمان الحلبي الذي قتل کلیبر والیوم أنت هنا تدفع عن مصر العدوان كما فعل في الماضي.

أطرق جول برأسه حياءً ثم استطرد يقول:

- لقد هاجمت الحملة الفرنسية مصر والشام معًا.

- والیوم فرنسا تعيد ما فعلته متحالفة مع بريطانيا ولا يحركهما إعادة القناة وحسب.

- ماذا تقصد؟

- إن بريطانيا يا جول تزيد العودة إلى مستعمرتها الكبرى مصر كما أن فرنسا ترغب في بتر يد "جمال عبد الناصر" التي تمتد بالسلاح لثوار الجزائر فتهدده وجودها هناك.

- إذن القناة ليست السبب الوحيد، مصر قلب العرب النابض إن توافق لا قدر الله سكن الجسد العربي كله، لقد أصبحت مركز إشعاعٍ بيت نور الحرية فيما حوله فإذا انطفأ أظلمت المنطقة العربية بأسرها.

- لقد طلب جمال عبد الناصر من فرنسا وقف دعم إسرائيل بالسلاح مقابل وقف الهجوم الإعلامي عليها فطلبت منه وقف دعم ثوار الجزائر أيضاً فرفض قائلاً:

- "لن ترتفع راية للحرية في العالم إلا ومصر وراءها".
- لهذا ينبغي أن نقف متحدين في مواجهة هذا العدوان الغاشم الذي ي يريد لنا الفناء جميعاً.
  - أصبحت يا جول إنها معركة البقاء لمصر والعرب.
  - وهم يدركون ذلك لذا أتوقع دعمهم جميعاً لمصر.
  - أنا أيضاً لدى هذا اليقين يا جول وكان أول الغيث أمس على بد الإذاعة السورية.
  - هذا أقل ما نقدمه لشقيقتنا الكبرى مصر.
  - إن سورية تدرك جيداً ما تطمح إليه مصر التي لا تكتفى باستقلالها وحدها وإنما تريد استقلال من حولها فإذا ملکوا قرارهم، واتحدوا تمكناً من مواجهة ما يُحاك لهم من مؤامرات تهدف إلى السيطرة على ثرواتهم.
  - نعم يا سيدى فما جدوى أن تكون مستقلاً بين أخوة مازالوا يعانون أسر الاحتلال؟
  - ستعود حتماً للأسر ثانية فالحكمة تقول: "المرء بنفسه قليل وبإخوانه كثير".
- تهجد جلال الدسوقي واستطرد يقول:
- كثيرون لا يدركون ما يرمي إليه عبد الناصر للأسف بل يتهمه البعض بالغطرسة وحب الزعامة، وهذا كذب ببين؛ يكفي أن يقول:

"إن القومية العربية لا تتوقف على جمال عبد الناصر ولا من يعملون معه إنها كامنة في ملابس العرب الذين يحمل كل منهم قبساً من شعلة القومية".

- فارق كبير بين من حباهم الرب بصيرة يطالعون بها المستقبل مستعينين بما حصلوه من ثقافة وفکر عميق وبين من يرون تحت حذائهم.

- إن فرنسا تحشد أقوى أسلحتها البحرية في هذه المعركة الفاصلة لتقضى على مصر وعلى كل مقاومة في المنطقة في مواجهة القوى الاستعمارية ولتثبيت دعائم الصهاينة.

- على جثتنا.

وكان جول كان يرى المستقبل ففي نفس الليلة في تمام الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل تحركت ثلاثة زوارق طوربيد مصرية يقودها الصاع吉ال الدسوقي، تقلّ عدداً من الجنود والضباط من بينهم الرائد جول جمال لعمل مسح تأميني للشواطئ المصرية وعند عودتها في تمام الخامسة والربع فجراً، رصدت مدمرة فرنسية ضخمة وطراد يتوجهان إلى بحيرة البرلس فتعاملت معها، ولم يكن هناك غطاء جوى يحمى الزوارق كما لا يوجد تكافؤ بين القوتين لكن السلاح البحري المصري سطر ملحمة مشرفة في خمس وأربعين دقيقة، فخررت المدمرة والطراد جثتين هامدين وعجزت فرنسا عن إتمام المهمة التي كانت تسعى إليها وهي التقدم إلى السويس.

عند العودة قصفتهم الطائرات المكلفة بحماية المدمرة واستشهد  
أبطال العملية إلا واحداً فقط.

سيظل الرابع من نوفمبر شاهداً على عظمة البحرية المصرية وعلى  
قيمة الوحدة العربية التي متى تحققت أنجذت الأعاجيب.



(٦)

"إنها تترصدني" .

بدهشة كست وجه يوسف أطلق استنتاجه مما حدث أمس بينه وبين نور وهو يراقب الشروق يخترق المكان دون استئذان، محاكيًا نور التي بدت نموذجًا مختلفاً عن كل النساء اللائي واجههن بل تجاهلهن رغم سعيهن نحوه بخطوات حثيثة يميزها استرضاؤه وإسعاده ولكنه واجههن بغلظة وقسوة تعمدها لتشفي غليله منها .

داعبت حرارة الشمس جفني نبيل ففتح عينيه ثم أشاح بيديه مبعداً الضوء ونهض مسندًا رأسه إلى الوسادة متأنلاً يوسف يبدو جانباً من وجهه، لم ينتبه يوسف إلى استيقاظ نبيل الذي تسأله:

- ماذا بك يا يوسف يبدو أنك لم تتم أمس؟

- لا شيء .

يُبتسِم نبيل وقد فطن إلى ما يخفيه يوسف فعقب بسخرية:

- أدعوا الله أن يترافق بك في محنتك .

تنتفخ أوداج يوسف لسخرية نبيل فيعقب:

- عدت للحديث عن الله ثانية أيها اليساري .

انتفخت أوداج نبيل غضباً فقذف يوسف بالوسادة فألقاها إليه ثانية ثم طرقت سارة الباب فقطعت ما يدور بينهما من شجار ففتح يوسف الباب فبادرته بالتحية مبتسمة:

- صباح طيب يا دكتور يوسف .  
- صباح النور يا سيدتي .  
- أود أولاً أنأشكرك لرعايتك ابنتى أمس ،  
- عفواً يا سيدتي لقد أديت واجبى .  
- لدى أيضاً خبر سار أزفه إليكما هذا الصباح .  
انتقض نبيل مسرعاً وقفز إليها متسللاً بلهفة:  
- ماذا حدث؟!  
- حققت البحرية المصرية فجرًا انتصاراً ساحقاً على الفرنسيين  
ومنعهم من التقدم إلى السويس .  
ابتسم يوسف فرحاً بينما قفز نبيل في الهواء معلقاً:  
- العزة والنصر لوطننا إن شاء الله إنه خبر رائع حقاً يا سيدتي .  
- إذن سيثير شهيتكما يا دكتور نبيل .  
- ماذا؟  
تبتسم سارة وتعقب:  
- نحن بانتظاركم على السفارة فاتلحاها بي فوراً .  
تصرف سارة بينما يبدل يوسف ونبيل ملابسهما ويهبطان السلم حيث  
تحلق الجميع حول المائدة منتظرين يوسف ونبيل وتبادلوا جميعاً التحية  
معهما ثم ابتسم دانيال وقال:

– لقد استقال وزير الدولة البريطاني للشؤون الخارجية منذ قليل .  
– أحقاً ما تقول يا دانيال؟!

– نعم يا دكتور نبيل كما أن العرب جميعاً قطعوا أنابيب النفط عن  
أوربا كلها، وأولهم سوريا لقد أمر المقدم "عبد الحميد السراج" بتجهيز  
أنابيب النفط القادم من العراق إلى أوروبا عن طريق الأراضي  
السورية .

"سلمت سوريا وسلم العرب جميعاً" ، بفرحة عبر نبيل عن سعادته بما  
حدث .

ابتسم يوسف وعقب وهو يضع الزبد على شريحة خبز:

– سيواجه الأوربيون وعلى رأسهم بريطانيا المؤمرة شتاًء قارساً هذا  
ما جنت يداها الدنسة .

اتخذت ملامح مختار جدية وقلقاً وهو يقول:

– أتوقع ردود أفعال وحشية ردًا على ما حدث بالفجر لم يعد الأمر  
يقف عند حد تحقيق ما جاءوا من أجله وإنما انتقاماً لكرامتهم الجريحة  
أمام العالم .

تناول شريف رشفة من كوب الماء ثم عقب:

– استقالة وزير الدولة البريطاني تتبئ عن تفكك في جبهتهم الداخلية  
فهل يواصلون القتال؟!

- الغطسة يا ولدى مرض لعين إذا استبد بالنفس دمرها و "إيدن" رئيس وزرائهم يبدو لي شخصاً متغطراً؛ أراه يخسر المعركة لا محالة.

يقطع سيل المناقشة جرس الباب فينهض دانيال ويفتح الباب فيجد أندرو صديقه بملامحه الأجنبية وعيونيه الزرقاويين وشعره البني وشفتيه الرقيقين . يبادره دانيال بالتحية قائلاً:

"أهلاً يا أندرو تقضل".

يدخل أندرو بينما يغلق دانيال الباب ثم يشير نحو صديقه معرفاً الجميع به فيتبادلون معه التحية ثم يدعوه دانيال لتناول الإفطار فيعتذر له حتى يلحق بالقداس في الكنيسة .

"لقد أنسنتى أحداث الحرب صلاة الأحد" . تحدث دانيال ضارباً جبهته بكتفه .

- سيقام قداس الجنائز أيضاً على أرواح الشهداء كما أن مسجد العباسى قد أقام صلاة الغائب على أرواحهم منذ قليل، سأنتظرك بالسيارة حتى تنهى إفطارك .

يسرع أندرو منصرفاً بينما تتساءل نور: "لم أره معك من قبل يا دانيال".

- لقد تعرفت عليه الخميس الماضى .  
- وكيف تعرفت عليه؟

- هاجمنى مجموعة من اللصوص عند عودتى إلى البيت وظهر فجأة وهبط من سيارته وأشهر مسدسه فى وجههم مهدداً فانصرفوا.

تأمله يوسف بدهشة ثم عقب:

- الأجانب لا يبادرون بالدفاع عن أحد على هذا النحو لقد خبرتهم جيداً وأنا بالخارج.

- إنه إيطالى وليس إنجليزياً.

- لقد زرت عدة عواصم أوروبية أثناء دراستى ووجدتهم يختلفون فى بعض الأمور ولكنهم يتطابقون فى أمر واحد فكل منهم لا يشغل إلا شأنه.

تبادر نور معقبة بتحفز:

- نظارتك السوداء لا تريك من الناس إلا شرهم فلتخلعها لترى الخير.

يرمقها يوسف بنظره غضب مكتوم فتنهرها سارة:

- ماذا تقولين يا نور؟!

- التمسى لها العذر يا سيدتى فهذا تأثير جرح أمس.

- لقد جرحت فى قدمى يا دكتور يوسف لا رأسى.

- كلامها سواء بالنسبة لكِ.

يرمقه مختار بغضب وينهره: "تحسس عباراتك يا يوسف".

ينتفض يوسف ناظراً إلى سارة بامتنان: "لقد شُبّعت سفراً هنيئة يا سيدتي" .

ينصرف يوسف بينما تبدو سارة متحرجاً مما حدث . ينهض دانيال مودعاً الجميع وينصرف فتنهض سارة وتقول: "فلتستمتعوا بإفطاركم يا سادة وسأعد لكم القهوة" .

تنصرف سارة بينما يرمي شريف وسامر نور بنظرات تعجب لما حدث .

دق جرس الباب ففتح نبيل الباب فوجد سلامـة أمامـه .

- صباحـ الخـير .

- صباحـ النـورـ تقـضـلـ .

- لا وقتـ لـدـيـ؛ يـجـبـ أـنـ نـتـجـمـعـ بـعـدـ قـلـيلـ سـأـنـصـرـفـ وـعـلـيـكـمـ أـنـ تـتـبـعـونـيـ .

اختـقـىـ سـلامـةـ مـسـرـعـاـ بـيـنـماـ بـدـاـ القـلـقـ وـالـتـرـقـبـ عـلـىـ وـجـهـ نـبـيلـ فـتـسـاءـلـ مـخـتـارـ:

- منـ يـاـ نـبـيلـ؟

- إـنـهـ سـلامـةـ يـاـ عـمـيـ يـرـيدـنـاـ أـنـ نـتـجـمـعـ حـالـاـ .

ينتفـضـ الجـمـيعـ مـتـرـقـبـينـ أـسـبـابـ اـسـتـدـاعـهـمـ .



(٧)

لم تك شمس الخامس من نوفمبر تشرق على بورسعيد حتى استحالت كتلة من اللهب جراء العدوان الوحشى الذى بدأ عند الفجر . ضرب العدوان بورسعيد بالنابلم وتركز فى مناطق الجميل والجبانة والرسوة وبورفؤاد؛ تمهدًا إلى إسقاط المظليين لإحكام السيطرة بعد فشلهم أمام البحرية المصرية فى معركة "البرلس البحرية" .

فى السابعة صباحاً أسقطت كتيبة إنجليزية بمنطقة الجميل قوامها مائتان وخمسين جندياً وضابطاً، استطاعت المقاومة إبادتها بالسلاح الأبيض؛ جندى المظلات حينما يهبط يكون مدرراً لثوانٍ انتهزتها المقاومة للقضاء عليهم .

قام الإنجليز بخدعه المصريين بإسقاط مظلات وهمية تحمل دمى قماشية لتكشف مناطق تمركز الفدائين، وبعد كشفها تم ضربها بالقابل بلا هوادة .

فى الحادية عشر صباحاً أسقطت كتيبة مظلات سُميت بالشياطين الحمر على دفتين بالجميل والجبانة، وفى نفس الوقت أُسقطت القوات الفرنسية ستمائة جندى بالرسوة واحتلت وابور المياه وأربعمائة آخرين بمنطقة بورفؤاد التى تصدت بشراسة دفعت قائد الكتائب الفرنسية إلى التهديد بنصف بورفؤاد .

استطاعت قوات العدوان قطع المياه والكهرباء عن المدينة نظراً لضرب وابور النور واحتلال وابور المياه، وفي السادسة والنصف

مساءً اشتعلت النيران في الكبائن الخشبية المملوكة للأهالى ثم ضربت  
الطائرات مستودعات البترول بالرسوة .

ظل يوسف طوال اليوم مجاوراً المذياع ينصلت إلى الأخبار  
بغضب، وقلق شديدين بينما تسارعت دقات قلب سارة قلقاً على الرجال  
ولا سيما قرة عينها دانيال، أما نور التي لازمت أريكتها بسبب جرحها  
تابعت الأخبار بترقب وحزن وقد شغلها العدوان الغاشم عن مشاعرها  
تجاه يوسف، فبدا وجهها شاحباً من قلة الطعام وشدة القلق .

اضطر يوسف إلى إغلاق المذياع لينال هدنة في الوقت الذي يبيث فيه  
الأغانى الوطنية التي تلهب حماس المواطنين وعلى رأسها نشيد (الله  
أكبر) .

راح يوسف يقطع صالة الاستقبال ذهاباً وإياباً فاستوقفته سارة مهدئة:  
- لابد أن تستريح يا ولدى .

شد يوسف في كلمة ولدى التي تمكنت من قلبه وأصبحت سارة تناول  
شعوراً بداخله ينافض شعوره حينما رآها أول مرة، بدا ضعيفاً أمام  
كلمة ولدى .

انتبه يوسف من شروده معقباً: "العجز والقلق يحرمانى من الراحة" .  
- أي عجز؟!

- الجميع يصد العدوان عن بور سعيد وأنا هنا أتابع الأخبار .  
- أنسى ما قاله دانيال: "إن حياتك تساوى حياة الكثرين"؟

- كان هذارأى أيضاً حينما قررت الرحيل إلى بور سعيد ولكن ما أسهل الكلام! وما أصعب الفعل يا سيدتي! أشعر بالصغر والضاللة،
- لا يا ولدى لاتقل ذلك؛ لديك مهمة عظيمة تؤديها كما أنك ترعانا أنا ونور.
- أشكرك يا سيدتي أنت تصيبين الماء البارد على نارى المشتعلة،  
تبتسم سارة برقة وحنان:
- ما رأيك فى تناول فنجان قهوة باللبن وشريحة خبز يكسوها الزبد؟
- أشكرك ولكن لا شهية لدى.
- أنت لم تتناول شيئاً منذ الصباح وقد شارف النهار على الانقضاض فلا ترددنى.
- كما تشاءين يا سيدتي فلا أستطيع ردك.

تبتسم سارة له مربتة على كتفه فيخفق قلبه ثم تصرف بعد أن ألقت نظرة فلقة على وجه نور الذي كساه الحزن والشروع.

انتبه يوسف إلى نور مندهشاً؛ لم تعقب على حديثهما وبدت غائبة عن المكان فاقرب منها وجلس على المائدة القصيرة المواجهة للأريكة وتأملها:

– أنت صامتة تماماً فلماذا؟!

- القلق يكاد يقتلنى فلا تعلم مقدار حبى لدانيل رفيق الطفولة والصبا وبهجة حياتنا بل وحبى لشريف وسامر رغم قصر الوقت الذى قضيته معهما، والأمر كذلك بالنسبة إلى الدكتور نبيل وعمى الدكتور مختار .

- أشاركك عين الإحساس تجاههم جميعاً وعلى كل مواطن من شعبنا .

- لقد قفزت صورة سميرة أمامى حينما أذاعوا ضرب حى العرب على هذا النحو من الوحشية ولا أعلم مصيرها .

تنفجر نور باكية فيبدو متاثراً لحمرة وجهها، وانكماسه من البكاء الشديد متعجبًا في أعماقه كيف تحولت إلى كائن يثير الإشفاق بعد شراستها معه من قبل .

- اهدئي يا نور ليس أمامنا سوى الصبر فلا نملك سواه .  
 تتوقف نور عن البكاء وتتأمله كأنها تراه لأول مرة فقد بدا صوته رقيقًا وهو يتقوه باسمها

هل أخطأت حينما تصورت أن استفزازه وإثارة غضبه هو سبب لها نحوه؟ ولكن لم تطل حيرتها كثيراً فما يشغل قلبها في تلك اللحظة أشد من ذلك فعقبت قائلة:

- لم أتصور الحرب بهذه البشاعة؟

- الحرب تعنى الموت والخراب ونحن نواجه عدواناً يفوقنا عدداً وعتاداً وأقسم أننا نفوقه إيماناً بعدلة قضيتنا، وبالله وهمادعامتا النصر بإذن الله .

– إن عباراتك تغذى روحي بصر منبعه اليقين بالله ومساندته لنا ،  
ينظر يوسف إلى ساعته فينتقض: "نشرة الأخبار" ،

يدير يوسف المذيع الذي يبث أخباراً مكررة إلى أن يعلن عن نباء  
عاجل حيث أذر الاتحاد السوفيتي قوات العدوان بإطلاق صواريشه  
عليها إذا لم توقف عدوانها على بور سعيد ،

وقع الإنذار على سمع يوسف كالصاعقة فهتف: "اللهم احفظ مصر  
وانتقم من ترقص بها" ،

تسقط الصينية من يد سارة من فرط المفاجأة فيسرع يوسف نحوها:  
– هل أنت بخير؟!

تبكي سارة معقبة: "الحمد لله ، الحمد لله فلا رحيم سواه" ،  
– ربما يرسل الله لنا إشارات طمأنينة يا سيدتي ،

ينتبه الجميع إلى صوت طرق شديد على الباب فيقترب يوسف من  
الباب حذرًا ويتساءل:

– من بالخارج؟  
– أنا نبيل افتح يا يوسف ،

يسرع يوسف ويفتح الباب بينما يخفق قلب سارة ونور قللاً فيدخل نبيل  
ويغلق يوسف الباب ،  
– حمداً لله على سلامتك ،

- سلمكم الله جميعاً .

تقرب سارة منه بقلق وترقب: "أين الرجال؟" .

- لاتقلقى يا سيدتى كلنا بخير والحمد لله .

- لماذا لم يأتوا معك؟!

- سيلحقون بي بعد قليل .

تبعد الفرحة على وجه سارة فتنظر إلى نور التي تتبدل ملامحها إلى

تفاؤل فتحمد الله في قلبها .

"هل علمت بنبأ الإنذار الروسي يا نبيل؟"؟ بجدية تسأله يوسف .

- نعم سمعته وأنا في الطريق ولا أظنه يؤتي ثماره .

- أظنه جاداً .

- المهم أن يأخذوه هم مأخذ الجد أنا لا أفهم إلا ما يجري على الأرض

رغم أنهم في حالة سكون الآن بعد أن حل الظلام .

- ماذا تقصد؟

- لن تتوقف المقاومة إلا بعد رحيلهم عن أرضنا .

- أنا أؤيد استمرار العمليات ضدهم لأنهم ربما أوقفوا الحرب النظامية

بحراً وجواً ولكنهم سيستمرون في البحث عن الفدائين والسلاح، وما

أعنيه أن القتال لن يكون على هذا النحو الشرس الذي شهدناهاليوم،

ولم نشهد له مثيلاً من قبل .

- لا وقت لدى للنقاش يا يوسف لقد جئت لمهمة محددة ٠

- ما هي؟

- سيعتمد نقل المصابين ذوى الحالات الحرجة إلى هنا؛ خشية أن يقصفوا المستشفى ٠

- كيف ستتقاهم وسط هذا الجحيم حتى لو بدا الجو هادئاً من القتال؟!

- في سيارات نقل الموتى وستكون حافلة بالقنابل وأسلحة أخرى فإن هاجموا سنهم المعبد علينا وعليهم، وإن تمكنا من نقلهم سنظرف أيضاً بالسلاح الذي سنخرزنه هنا ثم نوزعه على الأهالى ٠

يقطع الحوار بينهما صوت طرق شديد على الباب فيقترب يوسف من الباب معلقاً:

- يبدو أنهم وصلوا ٠

يمنعه نبيل مخرجاً مسدسه من جيبه:

- لا لقد اتفقت معهم أن يدخلوا من باب المطبخ ٠

يقترب نبيل بحذر من الباب ويتساءل:

- من بالباب؟!

- أنا يعقوب افتح الباب ٠

يخفى نبيل مسدسه بينما تضرب ساره خديها بكفيها هامسة:

- لم أحسب حسابك يا يعقوب فليكن الله فى عونى ٠

يسرع نبيل ويفتح الباب فيدخل يعقوب باحثاً في المكان بقلق فيبدو  
الفرع على الجميع فيسرع فائلاً: "الحمد لله أنكم بخير أين دانيال؟" ،  
تلعلم سارة قليلاً فتثير ريبة يعقوب الذي يتحول وجهه إلى غضب  
شديد:

- أين دانيال يا سارة؟!
- لقد أصيب صديق له أثناء القصف وخرج ليطمئن عليه.
- ماذا؟ ولدى كيف تركينه يخرج يا سارة؟!
- دانيال عنيد ولا يستطيع أحد منعه من أمر قرره.
- أين ذهب؟
- لا أعلم.
- اللعنة على الحرب اللعنة على الحرب، ولدى.
- يسرع يعقوب نحو الباب ويخرج مهرولاً.
- ماذا سأفعل الآن؟!
- هذا آخر ما يجب أن يشغلك يا عمتي.

التفت سارة إلى مصدر الصوت فباغتها دانيال من ناحية المطبخ  
فأسرعت نحوه واحتضنته:

- حمدًا لله على سلامتك يا حبيبي.
- نشكر رب يا عمتي لا تشغلى بالك بوالدى سأتذبر أمره.

- "حمدًا لله على سلامتكم جميعاً" ، بفرحة عبرت نور ،

- سلمك الله يا نور ،

أسرع نبيل نحوه متسائلاً:

- ماذا عن الرجال يا دانيال؟

- في الطريق فلنستقبلهم لنقل المصابين ،

يسرع نبيل وي يوسف وDaniyal إلى المطبخ لنقل المصابين ،

بينما جلست سارة تفكّر فيما دار بين يوسف ونبيل من حوار  
خلالته أن الحرب لن تنتهي ربما خفت حدتها ولكنها مستمرة  
باستمرار وجود قوات العدوان فمتى ينتهي هذا الجحيم؟!



(٨)

"الإنجليز هنا في الحي الأفرينجي" .

بفرغ أطلق دانيال قنبلته في وجه سارة لا هنّا يلتقط أنفاسه بصعوبة  
بالغة فعقدت الدهشة لسان سارة، أسرع دانيال يغلق باب المنزل  
تماسكت سارة ثم تسائلت:

- ماذا تقول يا دانيال؟!

- المصفحات البريطانية عند كازينو "بالاس" وعند تقاطع شارع  
"السلطان حسين" وقد اشتباك معهم رجال المقاومة متخفين في ملابس  
رجال الإسعاف.

- فليترفق بنا الله . يبدو لي من متابعة النشرة وما روتها أنهم لا يعبأون  
بالإنذار الروسي .

- احتل رجال الكوماندز الشاطئ وأنزلوا كتبية إنجليزية بحرية كبرى  
إنهم مستمرون في إنزال قواتهم لاحتلال بور سعيد .

- فليكن الله في عوننا جميعاً يا ولدي .

- لابد أن ننقل المصابين إلى القبو فربما يفتشون الحي بحثاً عن  
الفدائين .

يخرج يوسف من حجرة الجراحة متدهشاً:

- دانيال أين ذهبت أمس بعد نقل المصابين والسلام؟!

– إلى منزلنا لأطمئن والدى على ووعدته أتنى لن أغادر منزل عمتى  
حتى تنتهى الحرب فلنسرع الآن وننقل المصابين إلى القبو لأن  
الإنجليز عند كازينو "بالاس" .

– ماذا؟ القبو لا يدخله الهواء بسهولة.

– لا تقلق سأفتح الباب المؤدى إلى القبو وإذا هاجموا المنزل سنغلقه  
حتى ينتهي الهجوم . أسرع .

يسرع دانيال إلى حجرة الجراحة ومعه يوسف ويقومان بنقل  
المصابين إلى القبو بينما تجلس سارة شاردة فيما يحدث .

بعد ثوانٍ يظهر نبيل هابطاً السلم يفتح عينيه بالكاد من فرط التعب  
وقلة الراحة؛ كانت مهمته أمس تأمين المكان بعد رحيل الرجال ولما  
سقط مغشياً عليه حل يوسف محله في التأمين .

هبط نبيل السلم وما إن التقى سارة حتى نفض عنده النوم وبادرها  
بالسؤال:

– هل هناك جديد؟

– نعم أحرقوا حى المناخ فى الفجر وهدموا المنازل، إنهم يصرون  
على احتلال بورسعيد .

– كنت أعلم أنهم لن يتوقفوا حتى يتحققوا ما جاءوا من أجله، ولكن  
أقسم أنهم لن يهداوا بمقامهم هنا ونحن لهم بالمرصاد حتى يطلبوا  
الرحيل هرباً من الجحيم الذى سيلاقونه .

– ولكن الهجوم شديد يا ولدى ولن تستطيع بورسعيد صد كل هذا .

جلس نبيل وتنهد بغضب معقّباً:

– بورسعيد ليست وحدها والعبرة بالختام وبين ثانية وأخرى تقلب  
الموازين هذا حال الحرب .

يخرج دانيال ويوفى يحملان أحد المصايبين دون أن ينتبهما إلى نبيل  
الذى يُبدى دهشته فتفسر له سارة الأمر فينقض متوجهًا نحو القبو ولكن  
جرس الباب يعيده مرة أخرى فيقترب منه حذرًا:

– من بالباب؟

– أنا أندرو .

يفتح نبيل الباب فتحة ضيقة يبدو غير مرحب بدخول أندرو الذى  
يبادره بالتحية:

– صباح الخير .

– صباح النور يا أندرو .

– هل دانيال هنا؟

– نعم ولكنه نائم مع الأسف .

– أشكر الرب أنه بخير لقد جاء والده فَرِعْ عَا يسأل عنه أمس .

– إنه بخير وأشكرك لفلانك عليه .

– إنه صديقى . أين كان أمس؟

– ذهب ليطمئن على صديق له أصيب من القصف .

- نشكر الرب الذى رعاه وأعاده سالماً أرجو أن تبلغه سلامى حينما  
يسنبط .

- بالتأكيد .

ينصرف أندر و بينما يغلق نبيل الباب فتبعد سارة مندهشة: "لماذا لم  
تدعه إلى الدخول؟" .

- هو لا يعلم سوى أننا أقارب نور من أبيها وجئنا لنقلها إلى القاهرة  
ومنعتنا الحرب .

يبرز دانيال ويوفى فيستوقفهما نبيل:

- جاء أندر و منذ قليل و سأله عنك يا دانيال وقد أخبرته بما اتفقنا عليه .

- إنه إنسان مخلص حقاً، كم يؤنبني ضميرى أن أخفى عنه شيئاً .

- إن ضميرك يحتم عليك أن تلتزم السرية ولا تنسى أنك أخفيت الأمر  
عن والدك .

- لقد فعلت ذلك لأنه سيرفض اشتراكى فى المقاومة .

- ولو كان يقبلها لما علم بأى خطط تخص المقاومة .

"هيا يا دانيال لنكملا ما بدأنا" بلهفة تحدث يوسف .

يسرع يوسف و دانيال إلى نقل آخر المصايبين ثم يعود و يبدو منهجاً وهو  
يقول:

- يكاد رأسى ينفجر .

- سأعد الطعام وبعده تتناول القهوة باللين التي تضبط رأسك .  
تسرع سارة إلى المطبخ خلفها نبيل متوجهًا إلى القبو لإحضار السلاح  
ليكونوا مستعدين لأى هجوم على المنزل .

تهبط نور السلم تتسند على الحائط المجاور للسلم فلم يكن جرحها قد  
شفى تماماً ولكنها كانت تستطيع السير ببطء ثم جلست على الأريكة  
تستريح قليلاً، ولفت انتباها السكون فتساءلت:

"أين الجميع؟! وما أخبار المعركة؟!" .

تزاحمت التساؤلات في رأسها ولم ينقدها سوى جرس الباب الذي لم  
يعرف الراحة منذ أمس فتحاملت على نفسها، وقامت متربقة نحو الباب  
فبرز نبيل خلفها شاهراً مسدسه ومحذراً:

"انتظري يا نور" .

ثم أسرع نحو الباب متسائلاً: "من بالخارج؟?" .

- أنا سميرة .

يضع نبيل مسدسه بجيده ويفتح الباب فتظهر سميرة ، وحينما ترى نور  
ترتمي في أحضانها منفجرة في البكاء فتصاب نور بالفزع ونبيل أيضاً  
الذي تنقر الوساوس رأسه فربما أصيب سلامه بسوء فتساءل بلهفة:

- ماذا حدث؟! لماذا تبكيين هكذا؟!

- لقد ماتت عمتي وأسرتها بعد قصف حي المناخ واحتراقه .

تظهر سارة مسرعة نحوها وتلتقطها من بين ذراعي نور وتحتضنها  
قائلة:

– "إنا لله وإنا إليه راجعون" إنهم في أمان الله الآن يا حبيبي، ماذا عن  
أسرتك؟

– الحمد لله هم بخير يقيمون بمسجد "العباسي" بعد هدم المنازل أمس.

– لماذا لم تحضريهم معك؟

– إن أمي ترفض ترك المسجد؛ هي تشعر فيه بالأمان كما أنتي جئت  
لمساعدة الدكتور يوسف لأن سلامة أخبرني أنهم نقلوا الجرحى هنا  
ونور مصابة لن تتمكن من مساعدته.

– تبدين شاحبة يا حبيبي استريحى حتى أفرغ من إعداد الإفطار.  
اصطحبت نور سميحة وجلستا على الأريكة، بينما أسرعت سارة  
إلى المطبخ خيم على نبيل ويوسف وDaniyal الواقفين أمام باب المطبخ  
غضب مكتوم.

نظر نبيل في ساعته فأسرع إلى المذيع، وأداره فأنصت الجميع إلى  
صوت المذيع بالأخبار يقول: "لقد قام العدو بخدعة دنيئة حيث رفع  
العلمين المصرى والروسى على دباباته فخرج الأهالى لاستقبالهم  
مهلين فأطافلت الدبابات مدافعتها تجاههم كما قامت قوات العدوان  
الغاشمة باحتلال عمارات طرح البحر وطرد السكان منها".

عقب نبيل بغضب شديد : "يا للدناءة! أى شرف لدى هؤلاء؟!"

تشير سميحة إليه بالصمت حينما يعلن المذيع عن أنباء عاجلة.

"تقدمت قوات المشاة البريطانية إلى شارع "محمد على" وكان في انتظارها أفراد المجموعة الثانية فوق أشجار حديقة الباشا وقضت على تلك القوات الغاشمة، وفرّت قوات المقاومة وتبعها قدوم العدو يمطر أشجار الحديقة بوابل من الرصاص؛ ظنًا منها أنها مازالت تأوي الفدائين" .

عقبت نور بفرع: "اللهم ترافق بنا وارحمنا"

استكمل المذيع النشرة يقول: "انتقلت الاشتباكات إلى شارع العبادي، واستبسّل الأهالى دفاعاً عنه وفي استمرار لعمليات الخسارة والدباء هاجمت قوات العدوان جامع العباسى بحثاً عن الفدائين دون مراعاة لحرمة المكان" .

انتفضت سميحة صارخة:

- أمى وإخوتى اللهم انتقم منهم واحرق قلوبهم .  
أسرعت سميحة إلى الباب فتبعها نبيل قائلاً:  
- انتظري يا سميحة سأتى معكِ .

خرج نبيل مغلقاً الباب خلفه متربقاً لما سيحلّ بأسرة سميحة التي رفضت الرحيل في المراكب الشراعية التي أفلت النساء والأطفال والمسنين؛ تمهدياً لنفاثهم إلى دمياط والمطيرية المجاورتين لبور سعيد، ولكن قوات الإنجليز هاجمتهم وأطلقت نيرانها عليهم من الجو فسقط منهم قتلى وبعضهم غرق لارتفاع حمولة المركب عن الحد المطلوب .

حينما علمت سميرة بذلك في اليوم التالي ارتحت نفسها لأن والدتها أصرت على البقاء ولكن أبي القدر إلا أن تتجزء سميرة الألم على أسرتها؛ مصيرنا يسعى خلفنا فلا مهرب لنا منه .

هاجم الإنجليز جامع "العباسى" بحثاً عن الفدائين فقتلوا عدداً من الأهالى وفرّ من استطاع الفرار وكانت والدة سميرة وإخواتها ضمن من قتلوا فانهارت سميرة وتم نقلها بسيارة نقل الموتى مع بعض المصابين إلى منزل نور .

بحلول المساء أصبحت بور سعيد داراً محترقة وانهارت منازلها واستشهد وتشهد منها الآلاف وكان ذلك حافزاً أكبر للفدائين للاستبسال في مواجهة عدوان دنى يستهدف النساء والأطفال .



(٩)

"كانت تتنفس وهي نائمة" .

بحزن أجبت نور على سارة حينما كانت تطمئن على سميرة .

وصلت سميرة إلى المنزل في حالة هisterية، وأشرف يوسف على إسعافها وبعد أن أعطتها مهدئاً استسلمت للنوم بعد بكاء شديد، وامتناع عن الطعام أنهاكاها وأسلماها إلى ضعف شديد فادها إلى نوم عميق .

تنهدت سارة ثم استطردت وقالت:

- إن ما حددت لها أمس من صدمات متتابعة يزلزل الجبال فليرحمها الله .

- نعم يا أمي الآن أدركت معنى قلقك من الحرب فمن رأى ليس كمن سمع .

- فليكن الله في عوننا .

ظهر يوسف من ناحية المطبخ حيث كان بالقبو يطمئن على المصابين ثم اقترب وحيا السيدتين فرددت كل منهما التحية، ثم دعته سارة إلى الجلوس فجلس مواجهًا لها بينما جلست نور بجوارها، تسأله سارة عن المصابين فطمأنها أنهم بخير ثم تسأله عن آخر الأخبار فقالت:

- لقد أعلنت قوات العدوان وقف إطلاق النار .

- أسمعت هذا بأذنيك يا سيدتي؟!

- نعم ولكن للأسف الحقيقة على الأرض تناقض ذلك .

- ماذا حدث؟!

- لقد حاصروا بورسعيد ومازال القصف مستمراً، كما أنهم جمعوا أجهزة المذيع من المنازل والمقاهي وال محلات حتى تُعزل بورسعيد عن العالم .

- إذن تستمر الحرب وتستمر المقاومة لا مفر .

- سأعد لكم الإفطار حالاً والقهوة باللين التي تحبها يا ولدى .

- كيف أتناول الطعام وبورسعيد تكابد الجوع والتشرد؟!

- إن لم تأكل كيف ستنقذ المصابين؟! لو كان جوعنا حالاً للمشكلة لصمنا إلى الأبد .

كان يوسف قد أولى سارة مكانة بداخله لم تلها امرأة من قبل وكانت كلمة ولدي هي كلمة السر التي تستغل قلبه وحبه فلا يقوى على رد طلب لها، فاستسلم لما تريد بإيماءة من رأسه ونظرات تنبئ عن ضعف خاص تجاهها فأسرعت نحو المطبخ .

شردت نور في نظراته تجاه سارة فلم يكن عسيراً على أي ذي عقل أن يدرك أن جمود يوسف يذوب أمام ابتسامة سارة وحنانها الجارف، وهو من حُرم من حنان الأم ولم يعرفه مكتفياً بمختار ولكنه لم يدرك أن حنان الأم له مذاق خاص لم يعرفه حتى شاهد سارة .

أعطي ذلك نور أملاً كبيراً في تبدل حال يوسف فربما كانت إقامته قد بدلت قناعاته، انتبهت نور إلى وصول سارة بالطعام ووضعته

أمامهما على المنضدة الصغيرة أمام الأريكة ثم تركتهما واتجهت إلى المطبخ.

جلسا يتناولان الطعام مخيماً الصمت على المكان بل كانت نظرات يوسف تتعذر تجاهل نور وحينما فرغ من تناول الطعام أخذ فنجان القهوة باللبن، واتجه إلى ركن السفرة ليتابع الأخبار بشغف متجاهاً وجودها تماماً.

ادركت نور أن ما تصورته كان وهما كبيراً، كلما تشبثت بالأمل وشعرت أنها توشك أن تصل إلى مرادها قتل الأمل فيها، ارتسم الأسى على وجهها وهي تتساءل ماذا المخلوق العجيب؟! كيف يوجد إنسان في الحياة بهذه الصورة؟! بل كيف تحب إنساناً كهذا؟!

دق جرس الباب فانتبهت نور واقتربت من الباب فمنعها يوسف بإشارة من يده، ثم أسرع نحو الباب وأخرج مسدساً من جيبه، وأمسكه بتردد فقد اعتاد المشرط والشاشة والقطن حتى وهو هنا ولكن الظروف العصبية فرضت عليه أمررين متناقضين أن يشفى جريحاً ويكون سبيلاً في منحه الحياة وأن يزهق روح آخر يحاول الاعتداء عليهم بالمنزل، أمسك المسدس ثم تساءل:

- من الطارق؟

- أنا مختار يا يوسف افتح يا ولدي.

أخفى يوسف مسدسه وأسرع يفتح وما إن رأى مختار حتى ارتمى في أحضانه بعنف وقوة فاحتضنه العجوز بشوق وحنين شديدين بدت دقات قلبه تقضح ما يخفيه، ولكنه أعلن بласانه:

- لقد كاد الفلق يقتلني وما يزيد في المدى كتمانه ،
- أنا بخير يا حبيبي فلا تقلق على ألم يخبرك الشباب؟!
- أريد أن أراك لا أن أسمع عنك .

ينتبه العجوز إلى نور فيبسط ذراعيه لها فترتمى في أحضانه باكية  
فيسأل يوسف بنظرة اتهام: "لماذا تبكي نور يا يوسف؟!" ،  
"لا أعلم" ، بضيق أصابع يوسف وتركهما متوجهًا إلى الأنترية فنظر  
العجز إلى نور وتساءل:

- لماذا تبكين يا حبيبي؟! هل ضايقك هذا الشاب ثانية؟!
- لا علاقة له ببكائي إنني فلقة على الشباب .
- إنهم بخير جميعاً اطمئنى .

اصطحبها مختار واتجه إلى الأنترية وجلس ونور عن يمينه ويوسف  
عن شماله، فهمَ يوسف بالنهوض ، فمنعه مختار الذي أحاط نور  
بذراعه الأيمن وأحاطه بالأيسير حتى لا يفلت فبدأ جسراً يقربهما في  
حين شعرت نور أنه حائل بينهما، ولم يكن مختار سر هذا الانطباع  
ولكن يوسف الذي أشاح بوجهه بعيداً فأدركت أنه لن يقبل بجسر  
يقربهما ولكن بحائط مرتفع يفصلهما .

أصبحت نور على يقين ألا شيء يجعله يلين ولكن قفز إلى ذهنها  
خاطر لقد بدا متأثراً حينما رأى مختار وأدركت من كلامه أن الفلق  
كان يندهشه ولكن لم يُؤْجِع بذلك لأحد بل اعترف أنه كتم مشاعره تجاه  
عمه .

جعلها ذلك تتذكر مشاعره وضعفه تجاه سارة فمنحها قليلاً من الأمل،  
ولكنها خشيت أن يكون خداعاً جديداً من نفس تمنى فتتصور ما تريد  
لا من نفس عاقلة تمنحها الحقيقة.

مزقتها الحيرة ولكنها شعرت أن بداخلها إحساس يمنحها السكينة  
والأمل فهدأت نفسها.

ربت العجوز على كتفها مطمئناً ثم ابتسم وقال مداعباً:  
- لقد جئت للاطمئنان عليك لا على هذا الشاب فهو يستطيع تدبر أمره  
جيداً.

رمقه يوسف بدهشة وهم بالتعليق ولكنه أدرك أن مختار يستفزه ليقع  
في فخ الرد فيخلق بذلك مجالاً للحديث بينهما، فأمسك عن الكلام  
وصمت بل قر أن يقطع عليه الطريق لنصب فخ آخر فنهض متعللاً  
بمتابعة المصابين وهو يرمي نور بنظرات تحفz حتى لا تعقب.

صمنت نور فرحل يوسف وتركهما فنظر العجوز إليها بحنان شديد  
رغم شعوره القوى بخيبة الأمل لقد نسى أن الطفل الذى أشرف على  
تربيته يفهمه أكثر من نفسه، ولن يقع أسيير فخاشه سألهما الرجل  
بإسقاق: "أتخفين عنى شيئاً؟"

- لا ياعمى أنا أتألم لما تمر به بور سعيد.  
- اعلمى يا ابنتى أن الإنسان صانع البهجة والحزن زائل وكذلك ما  
يصنعه من أحداث.

- أعلم أن الحرب ستنتهي حتماً ولكن لا أعلم كيف ستنتهي؟

- إن قيمة التجربة ليست في نهايتها ولكن فيما تحويه من دروس تعينا على صراع الحياة، وكل ما يمر علينا ينبغي تأمله لندرك إيجابياته وسلبياته فنتعلم منه، فلا يوجد تجربة ذات لون واحد ولكنها تحوى لونين والغالب فيهما هو ما يراه الناس وصفاً لها.
- في النهاية هي تجربة إما ناجحة أو فاشلة.
- ربَّ نجاح قادنا إلى فشل وربَّ فشل قادنا إلى نجاح.
- لماذا؟! لا أفهمك ولكن ما أفهمه أن الفشل مؤلم.
- إن الدهر يقس علينا ليعلمنا، و"الضربة التي لا تقتلني تقويني" فالفشل يؤلم ولكنه يحفز ويهمنا الخبرة، والنجاح يبهج ولكنه يغير صاحبه، وهذا ميزان الحياة فلا شئ يُوصف بالكمال.
- الفشل يحفز!
- لأنه يدفعنا إلى التجربة مرات عديدة حتى نصل إلى ما نريد ولا يسمى هذا فشلاً في حقيقة الأمر يا ابنتى.
- ما الفشل إذن؟!
- الفشل الحقيقي هو التوقف عن المحاولة.
- إذن لا فشل إلا بانتهاء الحياة.
- ها قد فهمتني يا ابنتى.
- ما أجمل حديثك يا عمى! لقد أثار فى نفسى روحًا جديدة أدعوه الله أن يديمها بداخلى.

يقبل العجوز رأسها ثم يحتضنها وينهض مبتسمًا ويستأننها في  
الرحيل ويطلب منها أن تخبر يوسف أنه لا يستطيع البقاء أكثر من  
ذلك، ويخرج وهو في أشد الشوق لتوبيعه ولا يمل من بناء الجسور  
بينهما ويوسف أيضًا لا يمل من هدمها.

قررت نور ألا يعرف اليأس إليها سبيلاً، فمسحت دموعها واستعادت  
روح الأمل بداخلها واستحال شحوبها إلى نمرة طبعتها نفسها على  
وجهها.

عادت التساؤلات تترافق برأسها أى طريق ستسلكه لتصل إلى قلبها  
الحسين؟! فقررت الخروج إلى الحديقة؛ تتنفس الهواء لعله يساعدها  
عليها أفكارًا تحبسها هذه الجدران فخرجت إلى الحديقة وتتسنم رائحة  
الأشجار التي غابت عنها أيامًا افتقدتها.

راح نور تعود إلى سابق عهدها مرحة لا يتسلل الحزن إلى قلبها  
لا تعرف اليأس فتحدت آلامها وقلقها، وحاولت الاستدارة حول نفسها  
غمضة العينين رغم جرحها متهدية له، يهيئ لها خيالها أن فارسها  
يوسف يراقصها فارتسمت الابتسامة على وجهها، واختلط بياضه  
بحمرة السعادة.

لم يكن جفنا نور مطبقين تماماً بل يكادان يدركان ما حولهما وإنما  
سقطت على الأرض، فجأة شعرت أنها لمحت خيال إنسان عند  
الشجرة التي تبعد عنها لمسافة ففتحت عينيها ووقفت تفكّر هل ما رأتته  
حقيقة أم أنه خيال ألقته نفسها بداخلها؟! هل يتلخص يوسف عليها  
ويكتم مشاعرًا يظهر نقيضها أم ماذا؟!

دفعها ذلك إلى البحث في جنبات الحديقة تستكشفها ولكنها لم تجد أحد فقررت أن تسرع إلى المطبخ متعللة أنها ستساعد أمها، ولكن الحقيقة كانت القرب من يوسف الذي يقع بالقرب متعللاً بفقد المصابين هريراً منها.

هل حقاً كان يوسف أم نفسها ما زالت تخدعها؟ وإن لم يكن يوسف فمن يكون؟!



(١٠)

"ما أعجب تدابير القدر!" .

بشرطه أقرب إلى التأمل عبرت إيريني عن قوة القدر الذي حثها على الحضور مع والدها لزيارة عمتها، والاطمئنان على دانيال بعد هدوء نسبي من ذر يوم على وقف القتال .

خاص يعقوب وسارة في حوار طويل غبيّه عن ابنته التي هامت في حب شريف فرماها بنظرة إعجاب شديدة وعقب: "تدبير القدر يمنحك أملاً فيما يخترنه لنا من نهاية سعيدة" .

تبعت ملامح إيريني ليرتسم الحزن والقلق عليها ثم ابتعدت وسارت نحو شجرة أمامهما بالحديقة فأسرع نحوها متدهشًا:

- ماذا بك يا حبيبتي؟! لماذا تبتعدين عن؟!

- كم تسعدني وتولمني هذه الكلمة في آن واحد .

- لا أفهمك .

- يسعدني حبك ويؤلمني فراقك؛ النهاية السعيدة ليست لنا .

- لماذا؟!

- والدى لن يقبلك بل ربما حاول قتالك وأعلم أنى سأشتسلم له لقد اعتاد قهرى منذ الصغر .

أحاطها بذراعه وسارا في الحديقة حتى وصلا عند مقعد خشبي فجلسا ثم استطرد يقول:

- ما سر هذا القهر؟

- لقد توفيت والدتي بعد ميلادى مباشرة، فاهتمت عمتى وجدى وجدى بتربيتى.

- ولكن هؤلاء يمنحك القوة لا القهر.

- إن مأساتى بدأت عندما رأى والدى أفلد جدى وهو يصلى فاستنشط غضباً، وكنت فى الخامسة من عمرى حينها، فأخذنى إلى البيت وقرر ألا أذهب إلى هناك ثانية إلا بصحبته وأعود معه.

- ولم كل هذا الغضب؟!

- منذ جاءوا إلى هنا قرر والدى الحفاظ على هويته الأرمينية فحافظ على اللغة بقراءة الكتاب المقدس بها، وكان يكتب خواطره بها وتزوج أرمينية مثله واحتفظ بديانته.

- لماذا؟

- كان يدبر كل هذا لليوم الذى يعود فيه إلى موطنه الأصلى.

- ولكنه ناجح هنا فلماذا؟

- إنه متمسك بجذوره هناك ولم ينس أصله يوماً واحداً.

- وماذا حدث بعد أن أخذك إلى البيت؟

- قرر أن أتعلم كل شئ بسرعة كاللغة والدين وكلما أخطأت فى أمر نهرنى ونعتنى بالغبية فقدت ثقتي بنفسي بسبب قسوته.

- التمسى له العذر لقد ظل على دينه وأراد لك ولدانيل ذلك الدين.

- بل رسم لنا مصيرًا وفق هواه دون أن يسألنا ،  
- أكنتِ تريدين الإسلام؟
- لا أنا متمسكة بال المسيحية عن قناعة أما هو فيراها جزءاً من هويته  
فقط ،
- ليس من حق أحد التفتیش في نوايا البشر ،
- إن التسامح قيمة أصيلة في المسيحية التي تعلمنا أن نحب أعداءنا  
ولكنه يفتقر إلى هذه القيمة ،
- ما كابده في الماضي لم يكن هيئاً فليست من السهل التسامح معه ،
- أتعلم أن اسمه الحقيقي "يعقوبيان" وكان جدي يناديه يعقوب كبقية  
المصريين لأنهم استقلوا نطق الاسم على هذا النحو ، وكان أبي ساخطاً  
لسنوات طويلة على ذلك حتى ألفه مرغماً ،  
- إلى هذا الحد !
- لهذا لا أستطيع مواجهته لعناده ولأنني جُلت على الضعف ،
- القوة تكمن في كل منا كالضعف ونحن من نسمح لأى منها  
بالظهور وننحي الآخر ،
- لا أستطيع مواجهته مطلقاً ،
- إن كنتِ تحبيني حقاً فلن يعرف الضعف إلى نفسك سبيلاً؛ الضعف  
ينهار أمام ما نريده ونتمسک به ونرى فيه الحياة ودونه الموت ،
- ما أعزك كلماتك! أنت تعلمني فن الحياة دون توبیخ أو تأنيب ،

يقطع سيل الحديث ظهور سامر متوجهًا نحو هما ومحببياً لها، ثم يأخذ شريف معه إلى القبو لأمر هام فيرحلان، بينما هي منتشرة مبتسمة فجأة تتبدل ابتسامتها لفزع شديد حيث يباغتها ظهور يعقوب كعفريت في الظلام، فتنقض وتتراءج إلى الخلف وهو يقترب منها رويدًا رويدًا حتى تصطدم بشجرة فيرمقها بنظرة غضب ترميها بشرر يكاد يحرقها ثم أطلق رصاصات كلامه:  
"أتحبين هذا الدنيا؟!"

تصمت إيريني فيسألها بغضب: "هل أصبت بالخرس أم تخجلين مما تفعلين أيتها العاهرة؟!"

تباغته بصرخة في وجهه: "لست عاهرة إنه يحبني ويريد الزواج مني".

يباغتها بصفعة قوية فتجيبه بإصرار: "سأتزوجه ولن يمنعني مخلوق".

- يمنعك الموت لأنى حينها سأقتله وأقتلك وأدرك ما فاتنى في الماضي.

صممت إيريني فزعاً بينما دهش يعقوب كيف تحولت إيريني هكذا؟! أهى قوة المشاعر أم نزع فتيل فجر قهر السنين بداخلها وهنا تذكرت إيريني كلمات سميرة "إننا نستطيع حينما نريد".



(١١)

"الدینا عملیة اللیلة" .

بجدية تعبّر عن خطورة العملية أخبر سلامة الشباب داخل القبو ،  
دخل سلامة منزل نور من باب المطبخ في ملابس عامل سباكة ثم  
أخذته سارة القبو بعد رحيل يعقوب وإيريني ليانتى بشريف وسامر  
ودانيال .

أخبرهم سلامة أن السلاح سيتم نقله أولاً وسيتولى الضباط الفدائيون  
توزيعه على الأهالى بعدما داهمت قوات العدوان ضباط الشرطة فى  
الشوارع وصادرت السلاح منهم .

لم تكن مهمة توزيع السلاح مهمتهم الوحيدة بل كانوا يأتون  
بالتعليمات تحت جبيرة لفواها حول أذرعهم لينقلوا الأخبار إلى أهالى  
بورسعيد بعد تدمير معظم أجهزة المذيع ، ونقل أخبار بورسعيد إلى  
القيادة وكان منفذهم بحيرة المنزلة متخفين في ملابس الصيادين .

كانت خطة العملية قائمة على هاجمة معسكر إنجليزى ، وخطف  
عدد من الجنود كأسرى ليتم تسليمهم مقابل أسرى مصرىين والاستيلاء  
على الأسلحة تعويضاً عما صادروه من سلاح .

"لابد أن نختطف عدداً كبيراً" . بحماسة تحدث دانيال .

"لابد أن تلتزم بالأوامر يا دانيال" . بصرامة عقب سلامة .

- كما ترى ولكن لديهم الكثير من أسرانا .

"أصبحت يا دانيال وقوات العدوان تقتادهم للإشتاد وتستجوبهم بأبشع الأساليب وقتل فى النهاية من يتعاون ومن لا يتعاون" . بأسى تحدث شريف

- ما أعجب ما تروى فهذا الإستاد أنشئ لإدخال البهجة في نفوس الناس ليصبح مصدراً للحزن والعذاب، وقيراً أيضاً.

- هي الحياة يتجسد فيها النقيضان يا سامر .

أنهى سلامة الحوار متعللاً بضيق الوقت وبضرورة إطاعة الأوامر . تم تحديد مهمة كل منهم بدقة وعلى الفور خرج سلامة حاملاً حقيبة تشبه حقائب السباكيين بها أسلحة، وبعد مدة خرج الشباب يحملون البراميل مرتدين ملابس بائعي اللبن ،

بعد رحيل الشباب لاح شبح في الظلام راح يتحرك متسللاً يسيراً في  
الحديقة باحثاً عن شيءٍ بعد قليل خاب سعيه، فاتجه إلى باب المنزل  
وطرق الباب كأنه يود تحطيمه، ففتحت سارة ففزعَت لرؤيته ولم  
تستطع إخفاء فزعها قائلةً: "يعقوب! لماذا عدت ثانية؟!" .

لماذا اعاد يعقوب إلى المنزل ثانية؟!



## الفصل السابع : فراق الأحبة

صار الفَنَاءُ خُلُودًا لِلَّذِي عَرَفَتْ  
أَنفَاسُهُ مَعْنَى الْحُبِّ وَالوَطْنِ

أَسْمَى الْفَنَاءِ فَنَاءُ الْحُبِّ لَوْ عَرَفَتْ  
نُفُوسُنَا وَسَمَّتْ بِالْحُبِّ عَنْ ضَغْنَ

أحمد زكي أبو شادى

(١)

"لقد قررت العودة إلى الوطن" ،

ألقى يعقوب هذه العبارة ككرة من لهب في وجه سارة ،

تأملت سارة يعقوب بدهشة ثم وضعت فنجان القهوة على المائدة الصغيرة فزعة وعقبت:

"ماذا تقول؟!" ،

- كما سمعت وهو قرارنهائي لن أتراجع عنه وأصطحب أولادي معى بعد انتهاء الحرب ،

- عن أى وطن تتحدث يا يعقوب؟!

- أرمينيا ،

- وهل كانت وطننا في الماضي؟!

- بعض الأرمن عادوا إلى الأناضول بعد الحرب العالمية الأولى ولكن هذا لا ينفي أن الأتراك يقيمون بها ويسطرون عليهما، وأرمينيا الآن وطن خالص للأرمن ،

- إذن لن تعود إلى الوطن الذي تركته وسترحل إلى مكان جديد ،

- أريد وطنياً خالصاً لهويتي ، أتفهمين؟!

- وتركتنا أنا و نور !

- أنتِ من أراد ذلك فلا تفرضي على إرادتك كما فرضها على والدنا من قبل ، لا أدرى من أى مكان فى الجحيم هبط علينا هذا الحقير؟!

- عمن تتحدث يا يعقوب؟!

- عن شريف .

- لماذا تسبه يا أخي؟!

- لأنه هدم ما بنته فى السنوات الماضية لقد استطاع الإيقاع بإيرينى فى براثنه ويريد أن يعيد ما فعله والده فى الماضى يا "جوليت" ،

تنفجر سارة فى وجهه صارخة:

- كفانى إهانات منك توقف عن هذا الحديث الجارح الذى أوجعتنى به سنوات علام تحاسبنى وتحاسبها؟ الحب قدر لا حيلة لنا فيه وشريف شاب رائع .

- أنتِ تدافعين عنه لأنك مازلت مريضة بحب أبيه حتى بعد رحيله عنك وعن الحياة ، ألا تخجلين مما تفعلين؟! إن نظراتك إليه تضحك علاك تبحثين عن أبيه فى ملامحه التى تطابقه .

- اصمت أرجوك أنتَ لم تشعر بي مطلقاً ، لترحل إلى أرمينيا واعلم جيداً أنك ستذهب وحدك .

- مَاذَا؟!

- لم يعد دانيال وإيريني صغاراً إنهم مستقلان الآن، ولم يعد في إمكانك معاملتهم كقطع الشطرنج؛ إنهم مرتبطان بمصر ولن يرحا أرضها فعليك أن ترحل وحيداً وتقيم حلمك هناك وحيداً بلا أهل، وحيثما ستنتم فلا قيمة للوطن بدون من نحب.

- أنت تهذين.

يقطع حديثهما طرق شديد على الباب فينهض يعقوب متسائلاً: "من بالباب؟!"

يأتى صوت شريف من الخارج لا هٹا:

- أنا يا سيد يعقوب افتح أرجوك.

يتنهد يعقوب تمهيدة قوية مخرجاً شحنة زفير كبيرة:

- إنه الحقير لا أدرى بحق الرب لماذا يخطئه رصاص الانجليز؟!

- سلّمه الله من كل سوء أخضص صوتك أرجوك.

ينطلق يعقوب متحفزاً ويفتح الباب وفجأة يثبت مكانه كتمثال من حجر وتجحظ عيناه فاغراً فمه في فزع ورعب، بدا شريف أشعث الرأس يتتساقط عرقه من وجهه كمطر منهم، آثار الدموع الجافة على خديه حاملاً دانيال الذي تغطى الدماء معظم جسده.

بدا شريف مجهاً لاهتاً وهو يقول: "أفسح لى الطريق أرجوك يا سيد يعقوب" .

ركز يعقوب نظره على دانيال غائباً عن الوعى فاضطر شريف أن يبعده من طريقه ليدخل وأسرع إلى الأريكة، ووضع دانيال عليها ثم قال: "أغلق الباب أرجوك يا سيد يعقوب" .

أفاق يعقوب من غيبوبته وأغلق الباب ثم أسرع إلى ولده يهزه:

- دانيال ولدى!

بدا الذهول على وجه ساره ثم انخرطت في البكاء فاقترب يعقوب من شريف متسائلاً:

- ماذا حدث لولدى؟! تكلم.

أطرق شريف رأسه ثم رفعها باكيًا وأجاب: "لقد أصيب في مواجهات الليلة" .

- عم تتحدث؟

- عن مواجهة العدوان؟

- وما شأن ولدى ومواجهة العدوان؟!

استجمع شريف شجاعته وفجر قنبلة في وجه يعقوب موضحاً:

- لقد انضم إلى الفدائين في بورسعيد منذ بدء العدوان عليها.

"ماذا تقول؟! ولدى دانيال لا دانيال"، بصرًا خ يعقوب عن رفضه لما حدث،

جاءت نور وإيرينى على أثر صرخ يعقوب بينما نبهه شريف:

ـ اخفض صوتك أرجوك.

حينما رأت نور دانيال ارتفع صراخهما ثم ارتمت إيرينى عليه واحتضنته تبكي وتقول:

ـ أخي حبيبي لماذا حدث لك؟!

تقرب نور من شريف باكية متسائلة:

ـ ماذا حدث له؟!

يلتفت يعقوب يمينًا ويسارًا:

ـ أين الدكتور يوسف؟

ـ سياتى حالاً لقد قام بتتأمين الطريق وحماية ظهرنا.

يتأمل يعقوب ابنه:

ـ إنه ينزف سُيُّصَفَى دمه ما العمل الآن؟

ينتبه الجميع إلى طرق على الباب فيسرع شريف إلى الباب بحذر:

- من بالباب؟

يأتى صوت يوسف من الخارج فيفتح شريف مسرعاً فيدخل يوسف  
ثم يغلق شريف الباب خلفه يصرخ يعقوب: "إن ولدى ينづف يا  
دكتور يوسف أرجوك إنه يحتاج إليك".

- لا تقلق يا سيد يعقوب سيكون على ما يرام.

يلتفت يوسف إلى شريف:

- أحمله معى إلى الحجرة بالطابق العلوى.

- يمكننى حمله وحدى.

- وأنا ألا يمكننى حمله يا شريف؟! ولكننا سنصلع السلم وأنت منهك.

- حسناً.

يقاطعهما يعقوب: "بل أحمله أنا وأبقى معه".

- لا يا سيد يعقوب أنا أحتاج إلى شريف فلديه خبرة في الجراحة  
علمته إياها وأنت لن تحمل رؤية الجراحة التي ستجرى له أسرع يا  
شريف.

يحمل شريف ويوفى دانيال ويصعدان إلى أعلى فتحتضرن سارة  
إيرينى وتركت على ظهرها

وهي تحاول أن تخفف عنها: "تماسكى يا إيرينى سينجيه الله لا تخافى  
يا حبيبى".

يرتدى يعقوب فوق المقعد كأنه جثة ذاهلاً يحادث نفسه:

- لماذا يتربصنى القدر على هذا النحو ألا يوجد فى الكون سواى؟!

ثم ينظر يعقوب إلى أعلى ويقول:

- إن ضرباتك الموجعة تلتحقنى بلا هوادة أ تكون هذه ضربة النهاية  
التي تقصم ظهرى؟

- تمسك بالإيمان يا أخي العزيز ثق بقدرة الله ورحمته ليس أمامك  
الآن سوى الصلاة والدعاة كى يرفع الله هذا البلاء.

يشرد يعقوب قليلاً ثم يخرج سلسلة معلقة في رقبته تحوى صليباً  
كبيراً ويقبله متمناً بعبارات تستدعي دموعه، بينما ترتفع نور وسارة  
يديهما بالدعاء، تتبه إيرينى وتتجفف دموعها ثم تصلى فيسود المكان  
صمت لفترة يقطعه صوت طرق عنيف على الباب فينقض الجميع  
وينهض يعقوب مقترباً من الباب ويتسائل:

- من بالباب؟

يجيب الدكتور مختار من الخارج:

- أنا مختار يا سيد يعقوب.

يفتح يعقوب الباب بحذر فيدخل مختار ونبيل وقد كسا التراب شعر هما  
وملابسهما يغلق يعقوب الباب مسرعاً فتقرب نور منها:

- حمداً لله على سلامتكما ،

- سلمك الله من كل سوء يا ابنتى هل وصل يوسف؟

- نعم وقد سبقه شريف حاملاً دانياً ،

يتنهد مختار بارتياح:

- الحمد لله يا لها من ليلة ثقيلة كالجبار !

تقرب سارة من الدكتور مختار:

- لماذا تأخرتما؟

- لقد خضنا معركة ضارية حتى تمكنا من الوصول إلى المقابر ،

"المقابر!" ، بدھشة عاقت نور ،

يمسح نبيل وجهه بكفه مجيناً:

- لندفن الشهيد سامر ،

تفزع نور وتجحظ عينها:

- ماذا؟! الشهيد سامر! لا لا ،

ثم يعلو صراخها فتسرع سارة وتحتضنها مهدئة:

- لا إله إلا الله .

تفجر نور باكية فيبدو الحرج على وجه نبيل ثم يسأل يعقوب:

- ألم تعلم نور باستشهاد سامر؟!

- لا لم يخبرنا أحد بهذا الأمر .

- لقد تصورت أن شريف ويوف قد قصا عليكم ما حدث يا لغائب!

"إنا لله وإنا إليه راجعون لعن الله الحرب" . بسخط شديد عبر مختار .

فعقب نبيل بسخط أكبر:

- بل لعن الله الطمع الذي يحيل دنيانا إلى جحيم هكذا إذا كانت هذه هي  
النهاية الحتمية لنا جميعاً ففيم صراعنا؟!

يرتمنى يعقوب على المبعد:

- أصبحت إنها حياة لا تستحق الصراع ولكن الطمع يعمينا فمن أين لنا  
أن نتعلم أو ننصر؟

يظهر يوسف هابطاً السلم وخلفه شريف فيبدو الترقب على وجه  
الجميع فينتقض يعقوب مسرعاً نحو يوسف ومتسللاً بلهفة:

- كيف حاله الآن يا دكتور؟

- إنه فى غيبة الآن وسيفيق بعد قليل ،

- هل سيعيش يا دكتور؟

- إن شاء الله يا سيد يعقوب ،

- سأصعد كى أراه ،

يسرع يعقوب ويصعد السلم كالريح بينما تنتقض إيرينى قائلة: "وأنا أيضا سأذهب لأراه" ،

ثم تصعد مسرعة خلف والدها، بينما تتأمل سارة ملامح يوسف ثم تقترب منه وتقول:

- إن وجهك ينبئني أن القدر سيفجعنا في عزيز آخر في هذه الليلة المشؤومة ،

- الموت والحياة بيد الله وحده يا سيدتي ،

- أنت تراوغ سأصعد لأرى دانيال هيا يا نور ،

تبعدونور أشبه بتمثال جامد تتحرك مستسلمة مع والدتها ثم تصعدان السلم سوياً ،

يرتمنى يوسف على المقعد ثم يتنهى: "لم أعش في حياتي ليلة كهذه الليلة القاسية" ،

يسند شريف ظهره إلى الجدار حزيناً قد تحررت الدموع في عينيه  
فيقترب مختار منه ويمسك ذراعه ثم يأخذه ويجلسان على الأريكة،  
يحيط مختار ذراعه برقبة شريف بحنان مهوناً:

– اسمعني يا ولدى إن الموت مصيرنا جميعاً وأنت عاينته بنفسك قد  
صار سلعة مجانية يتنافس عليها شعبنا العظيم دفاعاً عن وطنهم، وقد  
هان عليهم النفيس والرخيص وربما يخف هذا عنك ناهيك عن مصير  
الشهداء عند الله، إنه في مكان أفضل من عالمنا الحقير الذي لا يساوى  
عند الله جناح بعوضة.

– أعلم ذلك ولكنك لا تعلم ما كان بيننا لقد ارتبطنا منذ كنا نتعلم  
السبير على أقدامنا إنه يعرفني أكثر من نفسي وأنا أفهمه أكثر من نفسه  
لم نفترق أبداً ولم أتصور يوماً أننا سنفترق.

– الفراق سنة الحياة.

– أعلم ولكن ما يزيد حزني أنني لم أشهد دفنه ولا الصلاة عليه.

– يمكنك أن تدعوه له بالرحمة وإن كنا أحوج إلى الدعاء بالرحمة  
منه.

يتهد نبيل بشدة وتبدو على وجهه أمارات الغضب الذي يعبر عنه  
صوته وهو يقول:

– لقد خلق الله الكون يتسع لنا جميعاً والنعم تكفياناً جمِيعاً فلِمَ الصراع؟!

- إن البعض يا ولدى يرى مصالحه تتحقق على حساب مصالح غيره  
بل على رقبته أحياناً.

- ليس صحيحاً لو تأملوا الحياة جيداً لوجدوا نعم الله تكفينا ولكنه الطمع إن أكثر ما نستهلكه الهواء الذي نتنفسه في كل لحظة بل ونحن ننام أيضاً ولكن لا تجد إنساناً يشكو نضوب الهواء والسبب أنه لا يُخَرِّن بل لا يستطيع بشر تناول جرعة زائدة منه وإلا هلك.

- أصبت يا ولدى فهناك نعم استثنى الله بالسيطرة عليها وحده حتى لا تفني البشرية، ونعم أخرى منهم السيطرة عليها فكان الجشع والرغبة في الاحتكار سبباً في كل هذا الدمار والهلاك، إذا كنا سنفتى في النهاية ولن نأخذ معنا شيئاً فلِم الصراع؟!



(٢)

رقد دانيال على الفراش غائباً عن كل ما يدور حوله يكسو الشاش  
والقطن صدره وذراعه اليسرى بينما جلس يعقوب وإيرينى عن يمينه  
وجلست سارة ونور عن يساره .

خيّم الحزن على الجميع وكست الدموع وجوههم، مهد حديث يوسف  
إلى سارة ونور ما ينتظرون، أما يعقوب وإيرينى فكانا يتربّلان بأمل  
شديد إفاقة دانيال من غيبوبته ،

مر وقت طويل وفجأة تحرك رأس دانيال يميناً ويساراً فانتبه الجميع  
إلى دانيال الذي بدأ يهذى بكلمات غير متراقبة:

"سامر ٠٠٠ أيها الأوغاد ٠٠٠ القناة لنا ٠٠٠ ستر حلون أقسم" .

يُستدعي اسم سامر دموع نور بشدة التي تدعوه:

- فليرحمك الله يا حبيبي .

يهز يعقوب دانيال برفق:

- دانيال أتسمعني يا حبيبي؟

يفتح دانيال عينيه بصعوبة بالغة يتبعها تأمل الحجرة وما حوله  
متسائلاً:

- أين سامر؟

نظر دانيال إلى نور:

- أين سامر يا نور لماذا لا تجيبين؟ لماذا تبكين هكذا؟!
- تمسح نور دموعها وتنتمالك نفسها ثم تجيب:
  - هون على نفسك يا حبيبي سامر مرتاح الآن.
  - ماذا؟! أقتله الأوغاد!
- ترفق بنفسك يا ولدى وبوالدك الذي انشق قلبه حزناً عليك لماذا هانت عليك حياتك؟! ما علاقتنا بهذه الحرب؟!
- علاقة من إذن يا والدى؟!
- أهلها هم المسؤولون عن الدفاع عنها.
- ومن نحن؟! أترانا سائرين هنا أم مماليكاً مرتزقة كيف ترانا يا والدى؟!
- ليست أرضنا.
- أنا أحب هذه الأرض حباً شديداً أحب شعبها وترابها وذكرياتي فيها وقريباً أستقر في باطنها.
- لا يا دانيال لا تؤلمني بحديثك ستعيش يا حبيبي وسنرحل إلى وطننا الحقيقي.

- لاوطن لى سوى مصرالتي تخزن رفات جدى وجدى وسألاحق بهما، ماضيك ومستقبلك هنا يا والدى الحبيب لا وطن لك غيره.
- ترفق بنفسك يا حبىبي ولاتجهدها بالحديث.
- لافرق أنا أقرب من النهاية.
- لاقصم ظهرى بكلامك ترفق بي يا ولدى.
- بل ترافق أنت بنفسك وبمن حولك قبل أن أغادر هذه الحياة عدنى أن تنفذ وصيتك لتهدا روحي فى مرقدي الآخير.
- يبكي يعقوب: "كفى يا ولدى".
- اسمعني أرجوك الوقت يداهمنا أتعلم كيف مات سامر؟ مات دفاعاً عنى لقد ارتمى بجسده ليجنبنى رصاصات الإنجليز التى انهالت على كالملط ناسياً أصله وأصلى إن ما جمعنا أعظم مما كنت تظن أنه يفرقنا، لقد جمعتنا هذه الأرض وقبلها الإنسانية التى جمعنا عليها آدم وحواء.
- يبدو الذهول على وجه يعقوب فيعقب:
- ماذا تقول يا دانيا؟!
- لقد تحمل شريف مسئولية إنقاذه وحملنى إلى هنا وكان يمكنه تركى للإنجليز أثال منهم ألوان العذاب ولكنه صمم أن يحملنى وكان نحيبه على سامر آخر ما سمعت قبل أن فقد الوعى.

يحنى يعقوب رأسه خجلاً:

- لا أكاد أصدق ما أسمع.

- إنه إنسان نبيل يا والدى جدير بأختى إيرينى عدنى يا والدى بجمع شملهما.

يتعثر دانيال فى النطق فجأة وتتلاحق أنفاسه سريعاً فيفرز يعقوب وينتفض صارخاً:

"دaniel دانيال".

يسلم دانيال الروح فيملي رأسه يميئنا نحو والده وإيرينى التى تصرخ:

"دانىال دانىال لا لا لا".

يصرخ يعقوب مستجداً: "دكتور يوسف دكتور يوسف".

يأتى يوسف وخلفه مختار ونبيل وشريف على أثر صراخ يعقوب وإيرينى التى تحضنها نور وتبكيان معًا بينما يبدو يعقوب مصدوماً:

- لا هذا خيال إنه كابوس سرعان ما أفيق منه.

تحاول سارة الاقتراب من يعقوب فيمنعها مختار:

- دعيه يفرغ كل ما بداخله من حزن وسخط وسيهدأ بعد قليل.

يتقدم يعقوب نحو باب الحجرة كإنسان آلى.

تبكي نور بشدة وهي تقول:

ـ ما هذا القدر العصيب هل أفقد ابن عمى وابن خالى فى ليلة واحدة؟!  
إن أنفاسى تتناقل ،

يقترب مختار منها مهوناً:

ـ لا ينبغي أن تفقدنا المحن إيماننا بل تزيده قوة وتزيينا صلابة ،

يتنهى يوسف حزيناً ثم يقول:

ـ يجب أن نستغل سكون الليل وظلماته لندفن دانياً ،

على الفور يؤيده نبيل قائلاً:

ـ سنتكفل أنت وشريف بحمله إلى المقابر وأنا سأتدبر أمن الطريق  
فإلينا عدد من القنابل في القبو تحسباً لأى غدر من الأعداء، أما عمى  
مختار فسيبقى هنا لحماية النساء ،

ـ يمكنني أن أحمله إلى المقابر وحدى كما حملته عندما كان مصاباً ،

ـ لا يا شريف الطريق من هنا إلى المقابر أطول من الطريق الذى  
قطعته ،

ـ حسناً كما ترى ،

يتنهى الدكتور مختار ثم ينظر إلى أعلى متضرعاً:

" اللهم ألهمنا الصبر والقوه لنتحمل قدرك برضًا وترفق بنا وارحمنا  
فلا رحيم سواك .



(٣)

جلس يعقوب ذاهلاً على مقعد الأنترية شارداً يتذكر الماضي البعيد لحظة هروبهم من جحيم الأتراك وموت عمنه التي لم تتحمل مشقة الطريق، ثم تذكر الأيام التي قضوها في "جبل موسى" والسفينة التي حملتهم إلى بور سعيد حيث المصير المجهول، وكيف تغيرت حياتهم واستقرارهم في مصر ثم زواجه ولحظة ميلاد دانيال، وفرحته العارمة بإنجابه وحلم العودة إلى الوطن وفجأة انهار الحلم في اللحظة التي فقد فيها قرة عينه وامتداد عرقه الأرميني.

لقد بات الحلم محالاً لماذا سيعود؟! لقد دُفن والداه هنا وبعد قليل يجاورهما ولده حقاً ما قيمة الوطن بدون الأهل والأحباب؟! إنه الآن يدرك صواب ما قالته سارة وDaniyal إن جذوره هنا.

يسمع يعقوب وقع خطوات على السلم فيفيق من شروده ويرفع رأسه فيرى شريف ويُوسف يحملان Daniyal ملفوفاً في كفن أبيض؛ احتفظت به سارة لنفسها كما يفعل بعض المصريين تتلاحق أنفاس يعقوب وتسرى قشعريرة في جسده؛ حانت اللحظة العصيبة سير حل Daniyal بجسده الآن إلى الأبد كان عليه أن يتماسك كى يقوى على مواجهة ما ينتظره من مسؤولية دفن ولده.

كتم يعقوب أحزانه ونهض حينما اقترب الشابان يحملان جثمان Daniyal ووضعاه على الأريكة بينما هبطت سارة ونور وإيريني يتبعهما نبيل ومختار.

"سأتكفل بدفنه أنا وشريف" ، بحزن شديد تحدث يوسف إلى يعقوب الذي بدا مستكراً حديثه.

- سأتأتي معكما يا دكتور ،

- أنت في حالة سيئة يا سيد يعقوب ،

يقطّعه يعقوب: "أريد أن أصلى عليه فلا يوجد سواعي يمكنه ذلك" ،

- عفواً يا سيد يعقوب اغفر لي فما نحن فيه أفقدنا وعيانا ،

- أود أن أنبهك أنه لا يوجد صندوق لنضعه بداخله يا سيد يعقوب ،

- لا أهتم بذلك إن روحه الطاهرة تجاور المسيح الآن ،

تقرب سارة من يعقوب وتر بت على كتفه:

- إننا نملك صندوقاً يمكننا وضعه بداخله ،

- ماذا؟! عن أي صندوق تتحدثين؟

- عن الصندوق الذي يحوي أوراق أبي في القبور ،

يرمقها يعقوب بدهشة فتستطرد سارة:

- لا وقت لدينا للحديث سأفتح الصندوق مما فيه تعالى يا نور وأنت أيضاً يا إيريني ،

تنصرف سارة ومعها الفتاتان نحو المطبخ الذي يؤدى إلى القبو .

" علينا أن نساعدهم " . بحماس تحدث نبيل إلى يوسف وشريف فاتجهوا إلى القبو ،

جلس مختار بجوار يعقوب الذى بدا لا يدرك وجود مختار وكأنه يحادث نفسه :

- هل كان والدى يعلم حينما صنع صندوقاً بهذا الحجم أنه سيصير فى النهاية تابوتاً يرقد فيه حفيده إلى الأبد؟! كم سخرت من هذا الصندوق فى الماضى ووصفته بتابوت الموتى وأنا لا أعلم مصيره فى النهاية ، ما أعجب القدر !

- كان الفراعنة يحnetون الجثث فيحتفظون بها كما هي فعاشت إلى الآن آلاف السنين ،

- ليتني كنت أعلم سر هذا التحنيط أقسم لاحتفظت بولدى معى إلى الأبد .

- سيعيش دانيال فى وجданنا تخلده بطولته ،

يدخل شريف ويوسف يحملان الصندوق ويتبعهما بقية من بالقبو .

يتأمل يعقوب الصندوق فيجد به تغييرًا فيلمح نبيل تعجب يعقوب فيقترب منه موضحاً :

– لقد ثبّتت القطع الخشبية في أطرافه الأربع لنتمكّن من حمله  
والإمساك به جيداً.

يهز يعقوب رأسه موافقاً مستسلماً.

يقترب يعقوب من شريف:

– أشكّر ربّ الذي سخرك لى كي أتمكن من دفن ولدي والصلة  
عليه.

يبعدوا الحرج على وجه شريف بينما يمد يعقوب يده ليصافح شريف  
فيصافحه بأسى قائلاً.

– لقد عرفت دانيال منذ وقت قريب وأحببته كأنّي أعرفه منذ زمن  
طويل.

– اغفر لى يا ولدى؛ أنا إنسان أخطئ وأصيّب ربما لم أدرك حكمة  
الحياة ولكن المحن تمنّحنا الكثير من الحكمة والتعلم، وسأكفر عن  
خطيئتي في حق ابنتي وحقك وأريح ولدي الحبيب وليرغف ربّ لى.



## الفصل الثامن : صمود واستبسال

وللأوطانِ فِي ذِمَّةٍ كُلَّ حُرٍ  
يَدُ سَلْفُتْ وَدَيْنٌ مُسْتَحْقٌ

وَمَنْ يَسْقِي وَيَشَرِبُ بِالْمَنَابِيَا  
إِذَا الْأَهْرَارُ لَمْ يُسْقَوْا وَيَسْقُوا؟!

أحمد شوقي

(١)

"الجنرال أستوكويل ي يريد مقابلتك" .

بصلف تحدث الميجور "جون ويليامز" رئيس المخابرات البريطانية إلى السيد "محمد رياض" محافظ بورسعيد .

فوجئ محافظ بورسعيد برئيس المخابرات البريطانية وبصحبته ضابطان إنجليزيان يقتحمان مبني المحافظة، ويطلبان منه لقاء الجنرال "أستوكويل" قائد القوات البرية الأنجلو فرنسيّة ودهش المحافظ لهذا الطلب، ثم طلب من "ويليامز" أن يتحدث معه على انفراد نظرًا لدقّة الحوار ولكنه رفض لأنّه جاء بصحبة زميليه فلا بد أن يكون الحديث في حضورهما، فعرض المحافظ انسحاب زملائه من الغرفة مقابل انسحاب زميليه فقبل رئيس المخابرات وتم اللقاء بينهما .

حينما جلس المحافظ ورئيس المخابرات منفردین بادر المحافظ بالتساؤل:

- لماذا يريد الجنرال "أستوكويل" مقابلتي؟

- ليبحث معك بعض الأمور الهامة .

- ولماذا لم يحضر بنفسه؟

- لأنّه مشغول جدًا ولا يمكنه الحضور .

- ما الأمور التي يريد بحثها معى؟

- يرى أن يعرض مساعدات لإمداد أهل المدينة بالطعام .  
- المدينة بها من الطعام ما يكفيها .

أدرك المحافظ على الفور أن بريطانيا التي لم تفلح في وقف المقاومة بالوحشية تريد استهلاك المصريين وكسب ودهم في مقابل بث السخط على الرئيس الذي أودى بهم إلى هذه الحرب .

استنكر الميجور رفض المحافظ قائلاً :

- ألسنت محافظ بور سعيد؟ ألا يهمك مصلحة المواطنين؟  
- بل ولتكن لدينا ما يكفينا من الطعام كما أنا لا نأمل من المعذبين مساعدة .  
- نحن لا نريد الإضرار بالمدنيين بل نريد مساعدتهم .  
- يكفيانا ما نلنا منكم في اليومين الماضيين .

صمت "ويليامز" برهة ثم استأنف المحافظ في مقابلة الجنرال "أستونوكوبل" فأجابه المحافظ أنه لا يليق بوضعه حاكماً لبور سعيد أن تتم دعوته بهذه الطريقة، فأخبره الميجور أن تأخير اللقاء سيكون له عواقب وخيمة ربما تضر بمصالح المدنيين، فأخبره المحافظ أنه لن ينزل معه الآن .

كان سبب رفض المحافظ مقابلة الجنرال "أستونوكوبل" أن الوضع لا يسمح بذلك الآن ولكن فيما يخص الزيارة فسيقوم بردها بشرط أن يفهم

الجنرال "أستوكوويل" أنه لم يحضر لزيارة إلا رداً للزيارة وليس  
إجابة لطلبه.

تم اللقاء بين المحافظ الذى ذهب لتوضيح بعض الأمور للجنرال  
وتوصيل رسالة هامة له وحينما التقى بالجنرال "أستوكوويل" فى ملهى  
فندق "بالاس" كان القنصل бритانى يجاوره وحوله عدد من الضباط  
الإنجليز . بادره الجنرال بالتساؤل قائلاً:

- هل يوجد كميات من التموين تكفى المواطنين؟
- نعم ولا نحتاج إلى دعم من أحد .
- ولكن هناك معلومات عن نقص المواد التموينية فى بور سعيد .
- قلت لك أن لدينا ما يكفيانا من التموين .
- هل ستستمر فى عملك كمحافظ لبور سعيد؟
- نعم فأنا الحاكم الشرعى للمدينة ولن أسلم المدينة إلى أحد .
- يمكننا تأمين مبنى المحافظة بحراسة بريطانية تحميها .
- لا الحراسة ستكون مصرية ولا حاجة لنا بمساعداتكم .
- لا تهتم لأمر المواطنين الذين ترعى مصالحهم؟!
- أنا أفعل ذلك انطلاقاً من هذه الأمانة ولا أتصور أن قاتلى شعبنا  
يريدون مساعدتنا .

- رئيسكم من فعل ذلك .

- ألم تكن الغارات الوحشية على مدينتنا بطائراتكم؟!

- إن معركتنا مع "ناصر" لنسترد حقنا الذى سلبه ولا معركة لنا مع الشعب المصرى .

ضحك المحافظ ثم عقب ساخراً:

- عبد الناصر يقيم بالقاهرة ولا يقيم ببور سعيد فهل ضلللت الطريق؟!

قرر "أستوكويل" تغيير مجرى الحديث محاولاً استمالة المحافظ ذاته فتساءل:

- أين تقيم الآن؟

- أقيمت فى منزل الحاكمدار لأن منزلى انهار بعد إصابته بالقنابل التى ألقتها قواتكم .

- يمكننا توفير مكان أفضل وحراسة خاصة لك .

نهض المحافظ وكان ذلك بمثابة تمهيد لإنتهاء الحوار بعد أن وصل رسالته إلى الجنرال أنه لا يوجد أمل فى استمالة المصريين وأنهم على قلب رجل واحد، ولا يمكن زرع نبتة السخط على رئيسهم بقلوبهم وأن محاملات المعذبين فاشلة وتبريراتهم واهية ثم عقب قائلاً:

- السلام عليكم .

رحل المحافظ وترك الجنرال ينهشه الغضب، والسلط فقرر الجنرال تحديد إقامة المحافظ "محمد رياض" ولكن ذلك زاده إصراراً على بث روح المقاومة في المواطنين بإغلاق المحلات ورفض التعامل مع الإنجليز، وكان يساعده في ذلك ضباط المباحث الجنائية.

حينما فشل الترغيب لجأ الإنجليز إلى الترهيب باقتحام مبنى البلدية وإرهاب مدير المبني السيد "محمد توفيق الدبيب" واتهموه أنه يحرض العمال على عدم التعامل مع الإنجليز وهدده الميجور "ويليامز" أنهم سيواجهون ذلك بكل شدة وحزم.

ألقت قوات الإنجليز القبض على عدد من العمال والبائعين و قامت بتعذيب بعضهم وقتل البعض الآخر، ولكن المقاطعة ظلت مستمرة وفشلت كل محاولات العداون في وقف المقاومة الإيجابية المتمثلة في العمليات الفدائية والمقاومة السلبية بمقاطعتهم.



(٢)

فى العاشر من نوفمبر أعلنت الإذاعات العالمية أن "أنتونى إيدن" رئيس وزراء بريطانيا مصاب بحالة نفسية سيئة وانتقل إلى جزيرة "جامايكا" على البحر الكاريبي للاستشفاء تاركاً مهمة الوزارة إلى "بنلار" حامل أختام الملكة؛ تمهيداً لاستقالته.

كان هذا بمثابة اعتراف بفشل العدوان على بورسعيد، والهروب من مسؤولية إيقاع بريطانيا في حرب لم يُحسب حسابها جيداً فقادتها لتصبح دولة من الدرجة الثالثة كما قال "عبد الناصر" فيما بعد وقطعت ذيل الأسد البريطاني كما قال "خروشوف" رئيس الاتحاد السوفيتى.

ورغم ذلك استمرت قوات العدوان داخل بورسعيد تداهم كل شبر فيها بحثاً عن السلاح والفدائيين في حين أدركت المقاومة أن ذلك من قبيل حلاوة الروح؛ الطائر الذبيح يطير بجسده يميناً ويساراً قبل أن يسقط جثة هامدة، فكان على بورسعيد ان تستمر في المقاومة التي تجبرهم على طلب الرحيل؛ هرباً من جحيم المقاومة.

صدرت الأوامر إلى ضباط العدوان بالسير في جماعات وعدم السير فرادى وربط أسلحتهم بأجسادهم بسبب مهاجمة المصريين دوريات العدوان والذى لم يتوقف رغم حذرهم الشديد.

خيّم الحزن على منزل نور بعد رحيل سامر وDaniyal وحل يعقوب محل ولده بالمنزل وتبدل يعقوب فصار أباً حنوناً لنور التي كان اسمها وملامحها يذكر انه بوالدها وما فعله وبعد رحيل Daniyal تبدل كل شئ لقد

فهم درس الحياة القصيرة التى لاتستحق كل هذا الصراع والكراهة  
ولكن نور لم تتجاوز أحزانها .

نور التى لم يعرف اليأس إليها سبيلاً فى الماضى أحالها إلى شجرة  
عجز جافة الفروع ساقطة الأوراق صمودة، وحيدة لا يؤنس وحدتها  
أحد ولا سيما أن سميرة قد تطوعت مع الفدائين وأقامت إيرينى لدى  
خالتها وسارة تحمل أعباء خدمة الجميع فلا وقت لديها لتؤنسها فلم يعد  
لها سوى الحزن أنيساً .

بدت سارة فلقة على نور فأفضت بقلقها إلى الطبيب العجوز الذى  
طلب رؤيتها وقبول طلبه بالرفض مرات عديدة فقرر اقتحام الحجرة  
وكم كانت صدمته حين رأها وقد استحالـت من ربيع مورق إلى خريف  
ذابل .

جلس العجوز على حافة الفراش يتأملها بأسى ثم أخرج غليونه وأشعله  
ونفث دخانه فى وجهها فأشاحت بعيداً فنهض وجلس على الحافة  
الأخرى ونفث دخان غليونه فى وجهها مرة أخرى، فزفرت زفة  
حارة فركز عينيه فى عينيها فأطربت برأسها

فابتسم قائلاً:

– نور مادامت أنفاسنا تطرق صدورنا وتغادرها فينبغي أن نلبى نداءها  
ولا نردها .

– أريدها أن تيأس منى وترحل إلى الأبد .

- إنها تتبع إرادة الله لا إرادتنا نحن .

تنهار نور ثم تدفن وجهها بين كفيها وتغرق في موجة بكاء شديدة .

- إن الله رحيم بعباده يا نور فكما يأخذ يعطي وهو المانح الأول  
والوحيد فحينما حرمك الأب منحك الآخر، وحينما حرمك دانيال منحك  
يعقوب وسيمنحك الأكثر فيما بعد .

- أصبت ولكنني أشعر بثقل الحياة وثقل جسدي معها .

- إننا نفقد رغبتنا في الحياة حينما نفقد هدفنا منها .

- وماذا أفعل ولا هدف لدى لقد انضمت سميحة إلى الفدائين، وكذلك  
أنتم وأنا أقع هنا كحشرة متطفلة على الحياة بلا هدف .

- لقد خلقنا الله مختلفين يؤدى كل منا دوراً يتكامل مع غيره ولو  
تشابهنا لخررت الحياة .

- وما الدور الذي يناسبني؟

- كنت تؤدين دوراً عظيماً في رعاية المصابين، وكنت تحاولين فك  
أسر ذلك المسكين الذي يبدو أنه قد أغتر بالسجن ولا يريد الخلاص  
منه .

- لم يعد ذلك يشغلني ولو شغلنى لاحقرت نفسي وبور سعيد تحترق .

- إذن جميعنا خونة .

– ماذ؟!

– مازلنا نتنفس ونأكل ونشرب وننام حتى وإن كان بمقدار قليل  
ومازلت قلوبنا تنبض بالحب.

– الحب!

– الفدائى يصارع من أجل مصر فمن مصر؟ إنها أخته وحبيبته  
وزوجته وابنته وأصدقاءه والحياة تستمر بكل معانيها فى كل وقت  
لأنها صراع نعيشه ولا ينتهى إلا بانتهاء الحياة.

– إن سلمت بما تقول فمازالت المأساة قائمة إنه حصن منيع.

– ربما لم تستخدمي معلولاً مناسباً لهدمه ولن يكون ذلك إلا بفهمه  
ومعرفة نقاط ضعفه.

– ماذ تقصد؟

– إن أبرز ما يميزك رقتاك وحنانك والطفل يا نور يذوب حباً فيمن  
يعطف عليه.

– ولكنه رجل.

– هذا ما يبدو لك ولكنه طفل حرم من الحنان والعطف طوال حياته ولم  
يذق لذتها.

بدت نور مقتنة بحديثه وقد أحبت عباراته أملأ جديداً بداخلها فابتسمت  
وهزت رأسها بالقبول فاقرب العجوز منها وقبل رأسها .



(٣)

"هذه ديون عمى يسددها الآن" .

بدا شريف شارداً وعلى وجهه أمارات العبرة وهو يتحدث، ثم رشف من فنجان القهوة قليلاً بينما بدت نور متعجبة من حديثه، وضع شريف فنجان القهوة على الكومود المجاور لنور التي كانت قد تحسنت نوعاً ما وقال: "نور فيم شرودك يا حبيبي؟"

- في حديثك الذي يذهلني ويؤلمني ويشير الرعب بقلبي .

- لم كل هذا يا نور؟

- لقد سامحته أنا وأمي ولم نحمل له بقلبنا ضغينة يوماً ما وأنت الآن تخبرني بعقاب الله له .

- عفواً يا أختي العزيزة فلم أقصدكما بحديثي فلستما إلا قطرة في بحر ديونه .

- وهل على الآن انتظار عقاب السماء لوالدى فيك، لا أحتمل ذلك يا شريف .

- أنا لم أقصد ذلك يا نور ولكنني أتأمل أقدار الله وأحاول فهمها .

- كان سامر إنساناً رائعاً فلِم تتصور ذلك؟!

– لقد نال عمى الجزاء الذى يستحقه ونال سامر الثواب الذى يستحقه  
أيضاً الله حكم عدل .

– إذن ما ديون عمى التى تتحدث عنها يا شريف؟!

– لقد ورث عمى ثروة هائلة ولكنه كان ذا نفس لا تشبع لقد ضاعف  
الأرض على حساب الفلاحين المساكين ، وصار المصنع الذى ورثه  
اثنين على حساب العمال الذين يعملون لديه بأجور زهيدة ومن يسقط  
منهم مريضاً يكون مصيره الشارع ، بلا علاج ولا أجر يكفل أسرته ،

– ما أقسى ما تروى يا شريف!

– نعم ولكن الله يسمع أذان المظلومين . لقد تزوج عمى من ابنة عمه  
الثانية كى لا تذهب الثروة إلى أحد من خارج العائلة وانتظر أن ينعم  
الله عليه بطفل ولم يتزوج من أخرى رغم مرور السنين خشية أن  
طلب الطلاق ، ويخسر ثروتها ثم أنعم الله عليه بسامر بعد عشر  
سنوات .

– وهل تغير بعد كل ما حدث له؟

– لا بل ازداد طمعاً ليزيد الثروة لوحيد سامر وبخاصة أنه لن يستطيع  
إنجاب أطفال غيره .

– لماذا؟!

- لقد أُصيّبت زوجة عمى في حادث استأصلت على أثره الرحم ومن يومها صار سامر عينيها فصارت تلازم كظلها، بل تخشى عليه من ظله أيضًا.

- إنها مسكينة كم أشفق عليها حين تعلم ما حدث!

- هذا حمل ثقيل ينتظرنى ولا أعرف كيف سأخبرها.

- ولكن كيف وافقت على مجئ سامر هنا؟

- لقد ترك لها سامر خطاباً في حجرته يخبرها بانضمامه إلى الفدائين لأنها لم تكن لتقيل بذلك خوفاً عليه، أما عمى فلسخرية القدر فرحاً بما حدث لبور سعيد وأصفاً قوات العowan بالملائكة التي هبطت من السماء لتقتصر له ولغيره من القرصان الذي أخذ أرضهم ومنحها للفلاحين.

- ماذا؟! أتفعل إنه فرح بما حدث لمصر؟!

- نعم ولا يعلم أنهم جاءوا ليقتلعوا قلبه من بين ضلوعه لا عبد الناصر من مصر كما توهم.

- وماذا عن والدتك المسكينة يا شريف هل أخبرتها بما فعلت أم أنك تركت لها خطاباً أيضاً؟

يبتسم شريف ساخراً ثم يجيب:

- المسكينة! ربما نعثر على الخطاب بعد أيام فهى لاتنتبه إلى وجودى أو رحيلى إنها مشغولة دائمًا.

- لماذا؟

- تشغله أمور جسام كالحفلات وصالونات الأزياء كان الله في عونها.

تنظر إليه نور بإشفاق ثم تعقب:

- إذن حُرم والدى من الحنان والعطف طوال حياته.

- هذه أيضًا عدالة السماء لقد حرمت من حبه وحنانه فنال ما يستحق من جراء فلير حمه الله.

- فلير حمه الله يا حبيبي ولتدع ما فات فلدي فيض من الحنان أعضاك به ما حُرمت.

- دائمًا أسأل نفسي هل أنت بشر مثلنا يا نور؟ وهذا يقودني لأسائل نفسي أيضًا هل يحبني الله إلى هذا الحد؟! لقد عوضني بك عن سامر، حقاً الله خير معوض.

يقطع حديثهما صوت طرق على الباب فيبادر شريف معقبًا:

- من؟

- أنا إيريني يا شريف.

- ادخل يا إيريني.

تدخل إيرينى فتبتسم حين ترى نور وقد بدت فى حال أفضل فتقرب  
منها وتقبلها قائلة: "أشكر الرب أنتِ الآن فى حال أفضل ."

- الحمد لله يا ريري ،

تنظر إيرينى إلى شريف الذى يبادلها نفس نظرة الحب والشوق ،  
فتبتسم نور وهى ترقبهما ويتحقق قلبها لما يbedo من نظراتهما المتبادلة ،  
ثم تدعوه ليصطحبها إلى الحديقة وبالفعل يلبى طلبها ويخرج متأنياً  
ذراعها ويغلقان الباب خلفهما .

تشرد نور في الحب الذى جمع شريف ونور والظروف القاسية  
التي التقى فيها واستحاله ارتباطهما وهاهما الآن ينتظران انتهاء  
الحرب ليجمعهما بيت واحد .

لا أحد يدرى ما الذى سيحدث بعد ثوانٍ في هذه الحياة ولكن ما ندركه  
حقاً أننا لابد أن نسعى لنزال ما نريد .

إيرينى للمرة الأولى في حياتها تتمرد على والدها وتقف في  
مواجهته لتنتزع حقها في الحياة وربما كان صمودها هو ما حقق لها  
ما تريده .

إن خضوعنا واستسلامنا يضيعان منا الكثير والحياة لا تعطى من  
يخضعون ويقبلون الأمر الواقع إنها لمن ينتزعون حقهم فقط .



(٤)

وأصل يوسف الليل بالنهار لرعاية الجرحى ولم يساعد سوى  
يعقوب ومختار أيضاً أحياناً ولكنهما لم يصمدوا أمام الجراحات الدقيقة،  
وإن بدا عليهما القوة والصلابة فليس كل ما يبدو منا حقيقتنا.

افتقر يوسف إلى مرضية ماهرة تعينه مثل نور التي برغم رقتها  
كانت قوية في هذا المجال الذي أنقذته من أجل رعاية جدها الذي دفعها  
حبها له إلى الصبر عليه، ويرقادها شعر يوسف بقيمتها وهو يعمل  
وحده حتى نال منه التعب.

وبينما يوسف منهمك في تضميد جرح أحد المصابين طرقت نور بباب  
الحجرة ففتح يوسف الذي اصطدم بوجوها وقد صار هالة من النور  
تثير البشاشة بابتسامتها، فخفق قلبه فجأة دون أن يدرى أكان ذلك من  
وقع المفاجأة أم لسبب آخر لا يدركه؟ فتماسك أمام ابتسامتها الساحرة  
وتحير أيقبلها معه أم يصدها ولكن نور قطعت حيرته بقولها:

ـ صباح الخير يا دكتور يوسف.

تلعثم يوسف عاجزاً عن الرد فابتسمت نور ابتسامة واسعة واستطردت  
تقول:

ـ ماذا بك؟ تبدو منهكاً!

ـ لا أنا في أفضل حالاتي.

- إن وجهك ينفي كلامك أعتقد أنك بحاجة إلى المساعدة فهل تسمح لي؟

- لا أشكرك لا أحتاج إلى مساعدة أحد.

- وأنا أحتاج إلى هذه المساعدة؛ شفاء الجرحى يشفى أحزانى جراء رحيل دانيال وسامر.

تأثر يوسف بكلامها عن رحيل العزيزين دانيال وسامر فلم يستطع صدتها فأفسح لها المكان فدخلت واستأنفت عملها تساعده بمهارة شديدة، فادرك أثرها وأدرك الفرصة التي كادت تضيع من يده برفضه وقد أصبح لا يقوى على المواصلة، ارتعشت يده فجأة وهو ينهى خياله جرح أحد المصابين فأمسكت نور يده برفق فأفلتها منتفضاً من ماس كهربائي فابتسمت نور وتساءلت: "أنت تحتاج إلى الراحة فلم المكابرة؟!".

عجز يوسف عن الرد وقد بدأ يفقد توازنه وقدرته على الوقوف فأصبح كفرع شجرة تطير به الرياح في اتجاهين متعاكسين، فأمسكت نور ذراعه ولم يرفض مساعدتها فلم يكن يملك إرادة الرفض واصطحبته إلى خارج الحجرة، ثم جلس على الأريكة وأسند رأسه إلى مسندها فأشفقت عليه وتركته مسرعة تصعد السلالم لتأتي بقطاء ووسادة، ثم دخلت حجرتها وتتنفست نفسها عميقاً وابتسمت مليء شفتيها بسعادة وأخذت الوسادة والقطاء الثقيل واحتضنتهما؛ عما قريب يحملان أنفاسه ورائحته.

هبطت نور السلم مسرعةً وعندما وصلت إلى الأريكة وجده  
مستغرقاً في نوم عميق وقد أطاح الهواء بخصلات شعره فتدلت على  
جبينه فبدا ذو الوجه الصارم طفلاً صغيراً قهره النوم فاقتربت منه  
وأسدلت الغطاء على جسده ووضعت الوسادة خلف رأسه ثم مسحت  
شعره بيدها كما تفعل الأم بصغرها وهي تتأمل جماله عند النوم.

أدركت نور مما حدث أنه سيستسلم أمام صمودها فهو إنسان في النهاية  
يمكن الوصول إليه مهما بدا صلباً فزادها ذلك ثقة وسعادة، وفجأة  
انتبهت فزعة إلى يد تسقط على كتفها من خلفها فالتفت فإذا به  
العجز مبتسمًا لها فرمته بنظرة ثقة وتصديق لما أخبرها به فأطبق  
بكيفه على وجهها مركزاً في عينيها فابتسمت وقالت:  
- إنه بالفعل طفل مسكين.

- إذا كنت قد أدركت ذلك فسيمنحك هذا الإدراك السبيل الأمثل لتصلي  
إليه ولن يعرف الإسلام إليك سبيلاً.

ابتسمت نور ثم تركته لكي تعتنى بالمصابين بينما رمى العجوز  
يوسف بنظرة إشفاق وابتسامة ساخرة من أداء دور الأسد، وهو في  
حقيقة الأمر قط مسالم، ثم اتجه نحو السفرة وأدار المذيع ثم أشعل  
غليونه ونفث دخانه منصتاً إلى ما يبث من أخبار الحرب كالمد  
والجزر بين العدو والمقاومة نارة لها وتارة له.

أثناء استغراق مختار مع الأخبار دخل يعقوب من باب المنزل يحمل  
عيдан الريحان يتسمها متاثراً تلمع عيناه بدموع حبيسة أثارت مختار،

فأغلق المذيع وتأمل يعقوب الذى جلس مواجهًا له فبادره مختار  
بالحديث قائلاً:

- نور تعشق رائحته بشدة ،

- نعم وكان دانيال يعشقه ويثير بداخله سعادة وحينما أشمه الآن يخنق  
قلبي كأنى أحضن صغيرى لحظة وداعه ورحيله عن دنيانا ،

تنهد مختار بأسى وإشفاق على يعقوب وعقب:

- سيخيا دانياك أكثر منا ، وعليك أن تثق بعدهلة الله الذى سيقتصر  
لصغيرك حتما ،

- نعم وإن كنت قد تسامحت مع الماضى وأثق بعدهلة الرب إلا أننى  
أعجز عن التسامح تجاه ثأر ولدى ، فلتاحل عليه لعنة الله أينما كان ،

- طهر قلبك إذن ولا تدنسه بهذه المشاعر مادمت موقفاً بعدهلة الله ،

تهداً نبرة يعقوب ويتأمل مختار ثم يبتسم:

- إن حديثك يشفى قلبي ،

- الحمد لله فأنت لا تعلم كم يسعدنى ما تقول ،

- ما قولك يا سيد يعقوب فى فنجانين من الشاي بطعم الريحان نستدفى  
بهما فى هذا الصيف ،

- ما أجمل هذا !

يتتسم يعقوب ثم ينهض مسرعاً إلى المطبخ فيرجع الطبيب العجوز بظهره إلى الخلف شارداً في أيامه الماضية خلفه كبناء شاهق استهلك كل طابق فيه مرحلة من عمره، ومر كحل ليلة قصيرة ما أسرع الأيام! تمر سريعاً نلهم معها ولا تتوقف.

بالأمس كان طفلاً يلهو في حقل أبيه يأكل من ثماره ينام تحت أشجاره ثم صار شاباً ثم ذهب إلى القاهرة ليستكمل تعليمه، ثم ذهب إلى فرنسا وكيف مضت به الحياة مع حبيبة العمر التي رحلت، وتركت وراءها يوسف ليبدأ مرحلة جديدة في حياته مع هذا الطفل الذي صار رجلاً قوياً كيف مرت السنون وهو يحاول هدم سور الذي يحجب عنه السعادة حتى بدأ اليأس يدب فيه ولكن الله دائمًا يبهرنا بمفاجآته التي تظهر بترتيب محكم، كيف أتى به إلى هنا ليلتقى بهذه الفتاة الرائعة وتردد بداخله سؤال ومماذا بعد؟

ربما أسلمنا ضربات الحياة إلى قلق يترجمه تساؤل متواتر ماذا تخفي لنا الحياة؟ ولا نتعامل مع مفاجآته المبهجة بنفس العدالة فنتوتفع ما يسعدنا.

لماذا ننسى النعم لصالح النقم؟! لماذا ينتصر التساؤل على التفاؤل؟!  
ورغم تزاحم الأفكار برأس العجوز استقر بداخله سؤال بعيداً عن مشاعر التفاؤل والتساؤل معًا كان سؤالاً مجرداً تماماً "ماذا بعد؟".



(٥)

تخطت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل الظلام يغلف المكان إلا من ضوء مصباح خافت بجوار الأريكة التي استقر عليها يوسف مستغرقاً في نومه وسط سكون مسيطر لا يقطعه سوى صوت بندول الساعة.

بدأ يوسف يتقلب في فراشه بثاقل يفرضه إجهاد فوق العادة ونوم لساعات أطول من العادة أيضاً، فتكلبا عليه الانسان مع أريكة لا تحقق الراحة الكافية ولكنها وفت بأقل القليل مما يحتاجه من الراحة.

فتح يوسف عينيه ثم أطبقهما وتكرر ذلك حتى تمكن من النهوض والاستناد إلى الوسادة فتأمل المكان حوله محاولاً تذكر آخر ما وعاه كأنما فقد الذاكرة، وبذل جهداً لاستعادتها وقد تأمر الظلام والسكون عليه فاستنفذ وقتاً طويلاً حتى تذكر ضعفه، ووقوعه أسيراً للنوم بعد مساعدة نور التي ظهرت فجأة من جهة حجرة الجراحة فتفاجأت به مستيقظاً وتفاجأ هو أيضاً بها فأضاءت النور واقتربت فبدت على وجهه أمارات الحياة والصحة ولكن ملامحه تحولت إلى ضيق بسبب وجودها ولا سيما انفرادها به في هذا السكون الذي اقتحمته مبتسمة:

– كيف حالك الآن؟

– الحمد لله.

– ألمى تقول إن الطعام والنوم أساسان لحياة الإنسان . وقد نلت قسطاً من النوم فينبغي أن تناول قسطاً من الطعام سأعده لك حالاً.

طارت نور دون أن تترك له مساحة للرفض وكأنما قررت حصاره وفرض وجودها الذي أسلمه إلى غضب عبرت عنه زفرات ضيق، ولكنه تماسك خشية تصرف أهوج وسط انفرادهما معًا في هذا الوقت من الليل، اقتربت نور تحمل صينية عليها أطباق منوعة من شرائح اللحم المقلية والمكرونة وشرائح الطماطم والخيار وسلطة الطحينة وكوب من الماء ووضعتها أمامه فاستقرت معدته الخاوية فلم يستطع الصمود، كان جائعاً حقاً ولم يدرك ذلك إلا حينما رأى الطعام فأقبل يتناوله دون أن ينتبه إليها وقد عبر إقباله الشديد عن جوعه ولذة الطعام معًا.

كانت نور تتأمله مبتسمة ومشفقة عليه من جوعه وقد أكد لها أنه طفل بالفعل، ويبدو أن معدته قد نالت ما يكفيها فانتبه عقله إلى نظرات نور فتوقف عن الطعام وأبعد الصينية فدهشت نور وتساءلت:

"لماذا لا تكمل طعامك؟"

ـ لقد شبعت.

ـ ولكنك تناولت القليل من الطعام.

ـ تناولت ما يكفينى يمكننى الصعود للنوم وسأتکفل بإعادة بقية الطعام إلى المطبخ.

ابتسمت نور ونهضت معقبة:

– لا تشغلك فليس لدى رغبة في النوم لقد تفتقّدت المصايبين  
وخرجت لقضاء الليلة في القراءة سأعيد الطعام وأعد لك فنجانًا من  
القهوة باللبن .

حملت نور الصينية دون أن تمهله فرصة لصدها وأسرعت إلى  
المطبخ بينما استقرّ سلوكها وصمتها تجاه ذلك، وبدأ يفكّر كيف  
سيتخلص من وجودها؟ ومن أين لها بهذه الجرأة؟ وكان السؤال الأكثر  
إلحاحًا بداخله لماذا تغيرت معاملتها من قسوة إلى رقة؟!

ولم يتحير كثيرًا فقد أقبلت حاملة صينية عليها فنجان من القهوة  
باللبن، وضعّت أحدهما أمامه ثم وضعّت الصينية على المنضدة  
وجلست على المقدّع المجاور له فرمّاها بنظرة دهشة متسائلاً:

– لماذا جلستِ؟! ألم تخبرني برغبتك في القراءة؟

– نعم فأنا أفكّر في الرواية التي أنوي قراءتها .

نهض يوسف بحركة آلية وحمل القهوة باللبن واتجه إلى السفرة ثم  
وضع الفنجان عليها وأخذ كتاباً من المكتبة حول الفتح الإسلامي  
لمصر . وبدأ يطالع الكتاب ولكنه في حقيقة الأمر لم يكن يعي مما يقرأ  
 شيئاً، كانت فكرة الخلاص منها تهيمن عليه وتلهيه عن الكتاب كانت  
نور تلحظه دون أن يشعر وكأنها تقرأ ما بداخله .

ابتسمت نور واتجهت إلى المكتبة وأخذت رواية فرنسيّة بعنوان  
"بول وفيرجيني" وجلست تطالعها في ركن الأنترنيه فلم يستطع يوسف

كبت غضبه من هذه الفتاة التي تشبه قطة ترفض محاولات إبعادها،  
وربما تطرف بها الحال وتمسحت به فانتقضت متسائلاً:

– هل يليق أن تطالعى الرواية هنا؟!

رفعت عينيها عن الرواية ورمته بهما مبتسمة فأشاح بوجهه هرباً  
فأجابـت:

– أمى نائمة ولا أستطيع القراءة فى الظلام.

– ولكننا وحدنا والجميع نياـم!

– أنت فى مكانك وأنا فى مكانى.

أنهـت إجابتها الموقف الذى بدا أشبـه بفصل قوات العـدوان عن  
المقاومة وإن كان الأمر لا يخلو من مناوشات تثيرـها نظراتها القوية  
الجريئة، فأدار ظهره وعاد إلى كتابه وأولاـه كل اهتمامـه مستـسلماً،  
أثارـها الانتصار عليهـ وقهـره فأـشـعل بـداـخـلـها جـذـوة نـشـاطـ فعلـى الرـغـمـ  
من بـراـعـتهـ فـى إـقامـة السـدـودـ فـقد بـرـعـتـ أـكـثـرـ مـنـهـ فـى هـدمـهاـ  
وـإـقامـة الجـسـورـ فـأـعـشـ النـصـرـ عـقـلـهاـ فـاستـغـرـقتـ معـ الرـوـاـيـةـ حـتـىـ مـرـتـ  
سـاعـاتـانـ تـقـرـيـباـ وـبـدـأـ الشـرـوقـ يـشقـ نـورـهـ قـلـبـ الـظـلـامـ، فـانتـقضـتـ وـتـمـطـتـ  
تحـاـولـ استـعادـةـ نـشـاطـهاـ ثـمـ تـرـكـتـ الرـوـاـيـةـ عـلـىـ المـنـضـدـةـ وـأـسـرـعـتـ نـحـوـ  
الـبـابـ لـتـخـرـجـ، ثـمـ تـرـاجـعـتـ خـطـوـةـ وـالـتـفـتـ إـلـيـهـ تـرـمـقـهـ بـابـتـسـامـةـ وـهـوـ  
مـنـهـمـكـ فـىـ الـقـرـاءـةـ ثـمـ اـقـرـبـتـ مـنـهـ وـقـالـتـ:

– الشـرـوقـ بـهـجـةـ لـلـعـيـنـ وـالـقـلـبـ، أـلـاـ تحـبـ أـنـ تـنـعـمـ بـمـنـظـرـهـ الرـائـعـ؟

- لا فلتعمى وحدك ،

ابتسمت نور ثم تركته وخرجت دون أن تغلق الباب وبدأ الهواء يدفعه فانفتح محدثاً صوتاً أز عجه ، فانتقض غضباً واقرب ليفعله ولكنه فوجئ بها وقد سارت بعيداً تدور حول نفسها متراقصة مع أنسام الجو مغمضة العينين مستغرقة في عالم آخر ، فبدت كالفراشة الناعمة تثير البهجة في القلب مع رائحة نسيم الشروق الزكية ، ومنظره الرائع فتحول المشهد إلى لوحة تحاكي اللوحات التي كان يشاهدها في إنجلترا فتخلب الألباب بحسنها ، فابتسم يوسف معجباً بما يرى ولكنه سريعاً ما تجمدت ملامحه وتنهد غضباً مؤنباً نفسه على خيانتها لمبادئه وكيف انساع إليها وإلى أين تأخذه هذه ( ٠٠٠ ) لم يجد وصفاً لها في تلك اللحظة أهي قطة رقيقة أم حية ناعمة تتحين الفرصة لتنتقض عليه وتذيقه ما يتقى طوال سنوات عمره؟

على الفور دفع الباب بحدة أيقظت نور من استرخائهما فسرعة فأسرعت نحو الباب وطريقته ففتح يوسف فواجهته نور ودفعت يده ودخلت ، فأغلق الباب بغضب شديد فلم يعد يتحمل هذا الحصار الذي يضيق عليه الخناق ، ولا يقوى على الفكاك منه وزاد استفزازه اقترابها منه ونظرتها المركزة نحوه وهى تتساءل :

- لماذا أغفلت الباب بهذا العنف؟!

- ولماذا تركته مفتوحاً؟!

- إنساني مشهد الشروق البديع أن أغلقه ،

ركز يوسف نظره إلى وجهها بعينين تشعان شرّاً وعقب:

– إياكِ أن يلقينِ خيالاكِ في أمواجي فلن تجدى شاطئاً تلوذين به ولا صخرة تحتمين بها،

– أتوقع أن تنقدنى إن حدث،

– إن براءتك تخفي عُهراً يفوق تاريخ العهر على مر الزمان.

وَقَعَتْ عَبَارَتِهِ عَلَيْهَا وَقَوْعَ صَخْرَةِ ثَقِيلَةٍ عَلَى رَأْسِ تَقَاجِأً بَهَا فَفَقَدَتْ تَوازِنَهَا وَسَقَطَتْ مَغْشِيًّا عَلَيْهَا فَفَزَعَ يُوسَفَ وَاقْتَرَبَ مِنْهَا مَمْسَكًا بِرَسْغِهَا لِيُطْمَئِنَ عَلَى النَّبْضِ الَّذِي بَدَا ضَعِيفًا بِيَدِ بَارِدَةٍ هَرَبَتْ مِنْهَا الدَّمَاءُ فَأَصَيبَ بِذُعْرٍ شَدِيدٍ وَتَسَاءَلَ مَاذَا يَفْعُلُ؟ وَكَيْفَ فَقَدَ عَقْلَهُ لِيُطْعَنُهَا هَكَذَا؟!



(٦)

رقدت نور على فراشها جثة حاجظة العينين، لاتعى من حولها شيئاً  
شاردة، شحب وجهها فاستحال لونها الوردى إلى صفرة مخيفة  
أفرعت سارة التى انتخبت لما أصاب ابنتها فجأة ويعقوب على يسارها  
قد أصابه ذهول شديد لما حل بالفتاة بعد أن تحسنت حالتها، وصارت  
وردة متفتحة متتجاوزة محتتها بينما وقف الطبيب العجوز شارداً أمامها  
يفكر وقد توقفت شكوكه نحو يوسف الذى يعلمها جيداً، ويدرك قدرته  
على انتزاع الحياة من أى امرأة مهما كانت قوتها ولكنه قرر أن يلقى  
بالسبب فى اتجاه آخر أمام يعقوب وسارة فقال:

"لعل مساعدة يوسف فى رعاية المصابين أعادت إليها ذكرى الشهيدين  
Daniyal وشريف".

شردت سارة فى كلامه ثم عقبت بحزن:

- إن كان هذا هو السبب فسامنها عن ذلك تماماً .

- الهروب ليس حلاً بل عليها المواجهة وبمرور الوقت ستتجاوز  
أزمتها .

مسح يعقوب على رأس نور ورمها بنظرة حانية ثم قبل رأسها  
متنهداً وكأن الحديث استدعي آلامه فشعر مختار بالذنب لما حل  
بالرجل المكلوم فقرر أن يصوب خطأه فاستطرد:

"لابد أن نتركها تفرغ حزنها حتى تهدأ وسأطمئن عليها بعد ذلك".

نظرت إليه سارة نظرة دهشة ثم عقبت باستكار:

- لا أستطيع تركها وهي على هذه الحالة يا دكتور .
- إن مراقبتك لها ربما تؤثر عليك وليس هذا لصالحها علينا أن نحكم عقلنا .
- الدكتور مختار أدرى بعمله مما فلنخرج الآن فلا جدوى من بقائنا يا سارة .

نهض يعقوب وأشار إلى سارة بالنهوض فنهضت مستسلمة تبدو غير مقتنة وصاحبها الدكتور مختار إلى الخارج، وقد أيقن أن يوسف هو السبب فحينما نطق باسمه متعمداً تبدلت ملامح نور وقطبت جبينها، وألقت نظرة أسى فتملكه غضب شديد ولكنه حاول التماسك أثناء سيره مع السيدة وأخيها حتى هبطا إلى أسفل فاستقر له وجه سارة القلق الحزين فنتهدا فائلاً:

- "عليكِ أن تشغلي نفسك يا سيدتي حتى تتجنبى التفكير فى الأمر" .
- لا أستطيع يا دكتور قلبى يتمزق قلقاً على صغيرتى .
- إذن أعدى لنا إفطاراً شهياً من صنع يديك .

هررت سارة رأسها قبولاً مستسلمة وذهبت إلى المطبخ بينما انخرط الرجالان في حديث الحرب وما يدور فيها وأعقبا ذلك بتشغيل المذيع . حبس يوسف نفسه طواعية بحجرته بعد أن حمل نور إلى حجرتها واستغل انشغال والدتها وخلالها فيما حدث لها كى يهرب من أي سؤال يوجهه إليه، لأول مرة يشعر بالندم لأنه أوجع امرأة، كان ذلك في

الماضى يحدث بقلبه نشوى وسعادة كمن انتصر فى معركة ولكنه الآن  
يشعر بتأنيب الضمير فلم يأتى؟!

يوسف لا يدرى لماذا يتآلم هذه المرة؟ أهو الخوف من مواجهة عمه  
أم شعوره بالذنب تجاه سارة التى تحنو عليه كأنه ولدها؟ أم أن الأمر  
يتعلق بنور وإن كان كذلك فلماذا؟! فمهما كانت المبررات فالثابت لديه  
الآن أنه ساخط على نفسه وعلى لسانه القاتل على هذا النحو.

قطع شرود يوسف دخول نبيل الذى كان قد عاد فى الصباح وقرر  
أن يحصل على حمام دافئ وحينما وقعت عيناه على يوسف ألقى  
المنشفة فى وجهه، فال نقطتها يوسف ذاهاً فأجابه نبيل بنظرة غضب،  
فأشاح يوسف بوجهه فعبر نبيل عن غضبه بقوله:

- من أى غابة جئت إليها المفترس؟!

صدمت العبارة يوسف فألجمته وعجز عن الرد مكتفياً بنظره دهشة  
واستنكار فتمادى نبيل موبخاً: "بماذا تفوقت من رصاصات أصبت  
بها هذه المسكينة؟!".

- لماذا تتهمنى بذلك؟!

- لأنى أعلمك جيداً إن إيذاء النساء سعادة لا يضاهيها سعادة لديك.

- أنجرح صديق العمر من أجلها؟!

- كانت حجتك فى الماضى أنهن عاهرات فما حجتك الأن؟!

ارتدى يوسف على الفراش متناقلًا لا يقوى على الوقوف مغمضًا  
عينيه فى أسى شديد عاجزًا عن الرد أو الدفاع عن نفسه فرمقه نبيل  
بنظرة غاضبة قائلًا:

— لقد تحولت إلى سيارة بلا فرامل وعما قريب تسحق أقرب الناس  
إليك ثم تقلب هالكًا محترقاً.

خرج نبيل مسرعاً ولم يترك ليوسف سبيلاً إلى الرد بينما بدا يوسف  
إنساناً يائساً من نفسه فنهض متناقلًا واتجه إلى المرأة؛ يتأمل وجهه فلم  
يتحمل النظر إلى نفسه لقد أفزعه حديث نبيل أىتحول حقاً في النهاية  
إلى قاتل لكل من حوله ثم يُفني ذاته بنفسه؟! أم أن نبيل أصابه الشيطان  
بسبب ما حل بنور فراح يخيفه ليتوقف عن إيدائه؟

ربما يجنبه الصواب ولكنه أصاب في كونه لا يميز بين الناس.  
نور ليست كالنساء اللاتي تعامل معهن ربما فسرّ أفعالها تفسيراً خاطئاً  
نابعاً من رؤية تأصلت بداخله فلم يصدر منها قول غير مهذب أو  
جريء، بل على النقيض لقد كانت حنونة معه رغم قسوته عطفة رغم  
جفائه.

يمكن الخطأ في تفكيره هو ولكنه لا يستطيع تجاوز ما بداخله لقد  
أقامت السنون عليه بنياناً قوياً لا يمكن هدمه ثم استئصال ما خفي تحته  
فما العمل إذن؟

رغم تزاحم الأفكار بداخله إلا أنه قد تيقن من جريمته التي لا  
يمحوها سوى اعتذار حقيقى دون مكابرة، فاتخذ قراره بجسم وخرج  
متوجهًا إلى حجرتها بعد أن سمع أصوات الجميع يغادرونها.

وقف أمام الحجرة تقدم يده نحو الباب وتتراجع كالموج المتلاطم على شاطئٍ، تمزقه الحيرة ليس لأنّه يتکبر على الاعتذار، ولكنه لا يعرف كيف يواجهها؟! ماذا سيقول؟! كيف لها أن تنسى ما تلفظ به من كلام تطير فيه الرقاب ويعاقب عليه القانون؟! ولكنّه في النهاية استجمع شجاعته وقرر مواجهة الموقف وطرق الباب ولكنه لم يظفر بإجابةٍ.

قرر يوسف أن يواجه الموقف ففتح الباب ودخل فوجدها على حالة مزرية زادت من سخطه على نفسه السوداء، وألجمه منظرها للحظات ثم اقترب منها كطفل أخطأ ويحاول استدراجه عطفاً والدته بصوت نادم قال: "أنا آسف ارجوكِ أغفرى لى ما صدر مني".

انفجرت نور باكيّة وأشارت بوجهها بعيداً فازداد المأساة وشعر بعظام ما فعل فاستطرد يقول:

- سامحيني أرجوك إن ما فعلته يؤلمني ألمًا يفوق ما مر بي من آلام ولا أعدك أنتي أستطيع ردع نفسي لقد أدركـت أن مرضها مزمن لا علاج له، مطرـك العذب لن ينـبت قـوى سـتنـوـبيـنـ بـيـنـما أـظـلـ جـامـداـ يـابـسـاـ أـرـجـوكـ لـاـ تـقـرـبـيـ مـنـيـ لـأـجـلـكـ لـاـ لـأـجـلـىـ أـنـاـ".

أغمض يوسف عينيه حزيناً متلماً ثم أطرق برأسه خجلاً وخرج وتركـها لـتـهـمـرـ دـمـوعـهاـ شـلـالـاتـ مـتـابـعـةـ يـعلـوـ صـدـرـهاـ وـيـهـبـطـ كـرـةـ مـطـاطـ تـضـرـبـهاـ إـلـىـ أـسـفـ بـلـاـ تـوقـفـ.

استمر نحيب نور لفترة ولكنها في لحظة توقفت عند تذكر عباراته التي أوجعتها وملأتها يأساً إن الكلام يبدو منه معنى ظاهرياً، ولكن

بتأمله ربما يمنحها معانٍ خفية لقد منحتها عبارته الأمل الخفي الذي لم تتبينه لاصطدامها بقوله "لا تقتربى منى" هذا ما بدا من كلامه ولكن لماذا يريد ذلك؟ يريد لأجلها لا لأجله إنه يدرك حقيقة مرضه، إنه يتآلم لأول مرة من أجل امرأة وبدأ الأمل يشع نور الحياة بداخلها يحيل تناقل جسدها خفة تشعرها برغبة في الطيران لقد نجحت ولكنها تتوجّل النتيجة.

وسر عان ما تبدل الأمل إلى يأس وخوف سارع من دقات قلبها أیكون ما وصلت إليه وهمًا نابعًا من رغبة تملّكها فتصور لها الهزيمة نصراً، وتزيّن لها طريقاً نهايته الهاك إن ضرباته الموجعة في الصميم، وإن كان يتآلم ويعرف بجريمته فهذا لا يعني استعداده إلى التغيير.

النفوس تتغير بإرادتها هي لا بإرادة من تمنوا لها ذلك، وتملكها اليأس ثانية فتشلت وارتمت بظهرها إلى الوراء تستند على الوسادة وبدأت تتساءل هل قيمة الحياة في النجاح أم في المحاولة الناجح لحظة واحدة والمحاولات لحظات، فهي الأطول وبالتالي الأربح ولكن النجاح لحظة بألف لحظة وتصارع عقلها حول الاثنين أيهما يربح على حساب الآخر؟!

عاد الأمل ثانية حينما تذكرت أن الله لم يُضع جهدها هباءً وإن كان التغيير طفيفاً فهذه ومضة أمل لماذا تطفئها؟! أنتوقف في منتصف الطريق؟! إن السبب يمكن في تسرّعها وربما كان أيضًا لحظة انتصار وقتية خادعة، عليها ألا يخدعها مستقبلاً أي نصر تحقق حتى لا تقف في منتصف الطريق فالنصر الحقيقي حينما يصرح لها بما تريده وإلا

سيكون خداعاً ولا ضرر من المحاولة فما يخيفها منه ردود فعله، فعليها بالصبر فلن تجني شيئاً إن بُيئت ولو حقت ما تريد فهي السعادة التي تستحق المجازفة وإن لم يكتب لها ما ت يريد فلا ضرر لقد نالها الألم من قبل، وستملك مناعة ضده حتماً فتقوى نفسها كما أن العذاب الذي كابدته من مقاومته لا ينبغي أن يذهب هباءً.



(٧)

"قوات الكوماندوز الفرنسية تحاول التقدم إلى بور سعيد" .

بغضب عبر قائد كتيبة الحرس الوطني عن سخطه لمحاولة الفرنسيين تمديد المساحة التي يحتلونها وقد تمركزوا منذ بدء العدوان في بور فؤاد .

بدا الغضب على وجوه شباب الكتيبة الذين لم يزد عددهم عن مائة وعشرين مقاتلاً شاباً يحملون بنادق نصف آلية روسية الصنع وبنادق فردية وعدداً من القنابل اليدوية .

كان من بينهم شاب بالسنة النهائية بكلية الحقوق جامعة القاهرة ويدعى "جoad حسنى" الذى تقدم نحو القائد وعقب قائلاً:

"بالتأكيد يريدون دعم بريطانيا العظمى التى لا تقوى على صد مقاومة بور سعيد" .

- علينا وقف هذه الكتيبة عن التقدم .

- أرواحنا فداء للوطن .

- هذه الكتيبة ذات تاريخ أسود دموى فى مقاومة الثورة الجزائرية ويقودها جنرال متطرف يدعى "لوبان" معروف بكراهيته للعرب وتعصبه لفرنسا .

- لو واجهنا هولاكو فلن تهتز شعرة واحدة منا .

انطلق الفدائيون لمواجهة الفرنسيين وقد تحصنوا داخل المنازل ودارت معركة عنيفة كبدت الفرنسيين خسائر فادحة باعتراف قائدتهم.

بعد انتهاء المعركة جاءت الطائرات لتحمل قتلى فرنسا واستطاع من بقى حياً من الفدائيين العودة إلى كتيبتهم بينما قامت قوات الكتيبة الفرنسية بتفتيش المنازل بحثاً عن الفدائيين وقد اعترف لوبيان أنهما عثروا على جثث الشهداء وبأيديهم البنادق خالية تماماً من الذخيرة لقد استبسلوا دفاعاً عن الوطن إلى آخر طلقة ونقطة دمٍ.

في مساء نفس اليوم السادس عشر من نوفمبر كان "جواد حسني" يقع داخل كتيبته تتصارع الأفكار برأسه . ماذا يفعل ليطفئ النيران المشتعلة بداخله؟ فلا يستطيع الانتظار إلى الصباح ليشفى غليله منهم ولم يطل صراعه بداخله لقد حسم أمره، وقرر التسلل من الكتيبة دون أن يشعر به أحد، وعلى الفور خرج لا يرافقه سوى بندقيته النصف آلية التي لا توازن أسلحة الفرنسيين في حداثتها وقوتها ومعه أيضاً بعض القابل اليدوية، وانطلق إلى معسكر الفرنسيين واتخذ لنفسه مكاناً مناسباً يُمكّنه من الاختباء وإطلاق النيران عليهم، وبدأ بالفعل يسدد طلقات مدفعة نحوهم بقوّة يراافقها بين الحين والآخر القابل اليدوية فأصابيت الكتيبة الفرنسية بالذعر، واعتقدت أنها تواجه كتيبة كاملة . بدأ الفرنسيون يسدون نيرانهم بوحشية فأصابوه ولكن لم يتوقف عن تسديد نيرانه بندقيته رغم نزيفه الشديد حتى انهكت قواه وسقط مغشياً عليه.

حينما توقف مدفع جواد تقدم الفرنسيون بحذر نحو مصدر الطلقات

و كانت المفاجأة الكتبية التي قاتلهم لاتزيد على شاب واحد فأصابهم الذهول ولكن القوة ليست عددا وإنما إيمان وصبر كما قال الله في كتابه العزيز: "إِن يَكُن مِّنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مَائَتَيْنَ" .

تم اقتياد جواد إلى معسكر الأسرى وتم استجوابه وحينما رفض التعاون معهم تعرض لأقصى أنواع التعذيب، وبعدها قرر أن يسجل قصته بدمائه الزكية على جدران سجنه فكتب يقول:

"اسمي "جواد" طالب بكلية الحقوق فوجئت بالغرباء يقذفون أرضي بال مقابل فنهضت لنصرته وتلبية ندائها ..... والحمد لله شفيت غليلي في أعداء البشرية ، وأنا الآن سجين وجري بنزف بالدماء ..... أنا هنا في معسكر الأعداء أتحمل أقصى أنواع التعذيب والإرهاب ..... ولكن يا ترى هل سأعيش؟ هل سأرى مصر حرة مستقلة؟ ليس المهم أن أعيش المهم أن تنتصر مصر ويهزم الأعداء" .

حينما استبد اليأس بالفرنسيين من تعاون جواد معهم فقرروا إخמד أنفاسه إلى الأبد فأطلقوا عليه الرصاص في الثاني من ديسمبر .

اعترف لوبان أن ما شهده من مقاومة هؤلاء الشباب كان يفوق ما توقعه والذي دفعه إلى تأدية التحية العسكرية وإطلاق الرصاص في الهواء تحيية للشهداء . لقد رحل لوبان وقواته من مصر كما تمنى "جواد" وبقيت بطولته التي سطرها بدمائه الزكية شاهداً على عظمة مصر وشعبها الأبي .



(٨)

انهمك يوسف في إجراء جراحة لأحد المصابين تساعد نور  
بصمت قررت أن تكون ملازمة له ترعاه وتعد له طعامه وفجان  
القهوة باللين دون أن تتقوه بكلمة واحدة، وقد اعتاد يوسف وجودها  
وما تقدمه له والعادة تخترق الدم وتجرى معه.

لقد وجد لذة في مشروبها وطعامه من يدها لا يدرى لها مبرراً،  
ولكن صمتها التام واحتقاءها فور فراغها من رعاية المصابين أو  
خدمته استفزه، هي معه وغائب عنه فأكلته الحيرة أين تقف منه في  
حقيقة الأمر؟ ولكن السؤال الذي قفز فجأة لينهى هذا الجدل بداخله  
ويستحوذ على انتباهه لماذا يشغله ذلك في الأساس؟! منذ متى يشغله  
حضور امرأة أو غيابها؟

بعد الفراغ من الجراحة خرجت نور فوراً فتبعها يوسف وقد تملك  
الإنهاك منهما بعد قضاء يوم كامل في رعاية الجرحى، وهما هو  
منتصف الليل يحل عليهما ومازلا يعملان لذا قررت نور أن تجدد  
طاقتها باستنشاق نسيم الأزهار الزكي وأسرعت إلى الحديقة وأغلقت  
الباب خلفها.

حانـت من يوسف نـظرة نحو الـباب الذى حـال بينـه وبينـها وتمـلكـته  
الـدهـشـة الـتـى أـيـقـظـت قـواـهـ ونـفـضـت عنـه غـبارـ التـعب فـرـكـز عـينـيه عـلى  
الـبـابـ، فـاتـجهـ إـلـيـهـ دونـ إـرـادـةـ مـنـهـ وـفـتـحـهـ وـسـارـ تـجـاهـهـ فـرـآـهـاـ تـسـتـلقـىـ  
عـلـىـ أـرـجـوـحـةـ الـحـدـيقـةـ مـسـنـدـهـ رـأـسـهـ إـلـىـ حـافـةـ مـسـنـدـهـ، مـغـمـضـةـ العـيـنـينـ  
مـنـتـشـيـةـ بـرـائـحةـ الـزـهـورـ الزـكـيـةـ مـسـتـغـرـقـةـ فـيـ عـالـمـ آـخـرـ، وـفـجـأـةـ فـتـحـتـ

عينيها فوجئت به يتأملها من خلفها بنظرة إعجاب لم يخفها مع مفاجأتها له بفتح عينيها، ثم جمدت نظراته محاولاً إخفاء ما بداخله ولكنه ابتسם رغمًا عنه حينما وجدها قد ارتجفت لرؤيته وتساءل:

ـ هل أفر عنك؟

ـ لا ولكنى لم أتوقع رؤية أحد هنا.

ـ الجو هنا بارد جداً وربما أصابك بالمرض.

ـ على النقيض إنه منعش.

أعارها يوسف نظرة إعجاب صدرت منه دون أن يشعر فأشاحت بوجهها فتملكه الغضب وهم بالكلام ولكنه توقف حين لاح شبح فى الظلام، فتحسس مسدسه الذى قبع بجيشه منذ بدء الحرب وهم بإخراجه ولكنه تراجع عندما تبين له أنه نبيل الذى اختفى منذ يومين وها هو يعود فى هذا الوقت المتأخر من الليل، وارتسمت الدهشة على وجهه لهذا المشهد السينمائى لروميو وجولييت بورسعيد، فركز نظرات دهشته نحو يوسف الذى بادر بالتساؤل هرباً من نظراته:

ـ لماذا عدت وحدك يا نبيل؟

ـ سيلحق بي شريف بعد قليل.

ـ ما الأخبار؟

ـ لقد نجحت عملية الليلة.

ـ أى عملية يا دكتور نبيل؟

– أسرَ الإنجليز أحد الفدائين ويدعى "محمد مهران" في الخامس من  
نوفمبر وقمنا بتحريره.

– وكيف أسروه يا نبيل؟

– هو فدائى تابع لقوات الحرس الوطنى تسبب فى ضياع عينى أحد  
ضباط الإنجليز أثناء المقاومة لاقائه قنبلة تجاه الحفرة التى اختبأ بها  
الضابط الإنجليزى، فحاصروه ثم ألقوا القبض عليه واقتادوه إلى  
قبرص وحينما رفض التعاون معهم حكموا عليه باقتلاع قرنية عينيه  
لصالح الضابط الذى أصابه، ولakukan عبرة لأهل بورسعيد ثم عادوا به  
إلى هنا وألقوه فى إحدى مستشفياتهم، وتمكننا بفضل الله من تحريره  
الليلة.

نهضت نور فزعة أثناء حديث نبيل وأخفت وجهها بكفيها لا تقوى على  
التنفس ثم صرخت:

– ماذا؟! أتقول اقتلعوا عينيه؟! فليكن الله فى عونه.

– ليكن الله فى عون شعبنا الذى يوجد بزهرة شبابه بصبر ورضا.

عبرت نظارات غضب يوسف تجاه نبيل عن إشفاقه على نور مما  
شعرت به تجاه ما يرويه نبيل، فاستولت الدهشة على نبيل وبخاصة  
حينما ربت يوسف على كتف نور دون أن يشعر بما يفعل مهدئاً لها:

– اهدئى يا نور؛ إنها الحرب.

– إنها عين الوحشية ما هذا العالم؟!

انتقضت نور واستأذننها وأسرعت إلى المنزل ودخلت بينما لم يسيطر يوسف على نظرات غضبه نحو نبيل لرحيلها وافترائها عنه بعد أن حانت الفرصة لقاء الحديث، ثم ترك نبيل مسرعاً نحو المنزل فرفع نبيل حاجبيه عجباً، وأسرع خلفه لم يكن نبيل من النوع الذي يخزن بداخله إحساساً أو تساوياً، لذا بادر يوسف بالسؤال:

ـ أشفق عليها يا يوسف؟!

ـ ألم تلحظ أن حديثك مؤلم؟!

ـ مؤلم لمن؟!

ـ لقد صرت سخيفاً مستفزًا ٠

ـ الاستفزاز يُسقط عنك القناع أيها العاشق ٠

ـ لماذا؟!

ـ لماذا تخدع نفسك ولماذا تراوغ؟!

ـ اسمعني جيداً، إنها تتال احترامى وتقديرى فقط فلا تطير باك أو هامك إلى أبعد من ذلك ٠

ـ كان إحجامك عن الحب في الماضي مصدره احتقار المرأة والآن ظهرت من تتال تقديرك فلماذا الإحجام؟!

أشاح يوسف بوجهه رفضاً واستنكاراً فاقترب نبيل بوجه باسم وبلهجة حانية متسللاً:

ـ أتوصد قلبك في وجه السعادة؟! أثر الظلم حين يلوح النور؟!

- ما تراه نوراً أراه ناراً ولا أريد أن أحترق .

- أنت تحترق بالفعل وتتكرر كبراً ولكن ليس كل حريق دمار فاحترق  
عود الطيب يفوح منه رائحة تبهج النفوس . لا تضيع الفرصة وإلا  
نال منك الندم وما أصعبه على النفس !

- كفى لا تسترسل في الحديث .

نهد نبيل تنهيدة يأس ثم اتجه إلى المطبخ ليعد لنفسه فنجاناً من  
الشاي .

جلس يوسف تتقاذفه الحيرة كالكرة يلعب بها الأطفال شارداً في  
حديث نبيل تمزق نفسه بين تكذيبه وتصديقه ولكنه لم يحس أمره  
مراوغة لنفسه، ثم ألقى نظرة نحو السلم الذي حجبها عنه .

كانت نور قد تأثرت بقوة فوقت في الشرفة لتمسح عن قلبها آثار  
الألم مما رواه نبيل، إشفاقاً على هذا المسكين ولكنها سرعان ما  
وبخت نفسها على هذا الوصف فليس مسكيناً، إنه بطل والبطولة نفيسة  
الثمن والقيمة .

لم يمنعها ذلك من محاولة استشعار ألمه فأغمضت عينيها وغطتها  
بكفيها إمعاناً في توفير حالة الظلام التام فشهقت شهقة إشفاق على ما  
سيعانيه هذا البطل ما تبقى له من عمر في هذه الحياة، وتساءلت :  
"كيف تهون الحياة على هؤلاء الأبطال بهذه البساطة حباً في  
مصر؟!" .

كان ما قرأته عن تصريحات المحبين في سبيل من يحبون يبدو أحياناً خيالاً أو استثناءً ولكن ما شهدته في هذه الحرب الشرسة جعلها تدرك أن الفدائي أكثر العشاق صدقًا لأنه يعيش وطناً بأكمله، يوجد بنفسه من أجله بصمت دون أن يشعر به أحد وبعد قليل ربما ينساه الناس ويتحول إلى ذكرى يتذكرونها مرة في العام ثم يطويه النسيان ولكن البطل لا يوجد بنفسه لثمن يرجوه أو تكريمه ينتظره؛ إنه يوجد بنفسه مجرداً من أي هوى أو مصلحة يطمح إليها فما أعظم هؤلاء! وما أنبلهم!

أفاقت نور من شرودها وفتحت عينيها فلقت انتباها شبح يتحرك من خلف شجرة إلى أخرى في الظلام ففزع عن ركزت نظرها فبدا المكان خاليًا لا يتضح أهناك حفًا شخص أم لا نظرًا لسيطرة الظلام على المكان فاللقت لتضي نور الشرفة، ثم نظرت إلى الحديقة فلم تجد أحدًا مطلقاً رغم يقينها بوجود غريب بالحديقة فأسرعت تهبط السلم صارخة "غريب في الحديقة".

**فواجهها يوسف وشريف الذي كان قد عاد منذ قليل فتساءل:**

- ای غریب یا نور؟!

- لم أتبين ملامحه ولكنه بالحقيقة.

- لعك تقصدينى أنا فقد دخلت قبل أن تهبطى بثوان قليلة.

- هل كنت تسير خلف الأشجار؟

- الأشجار ! لا لم يحدث ذلك .

أصاب يوسف القلق لارتحافها ر عبًّا فعقب:

- علينا إذن أن نقطع الحديقة بحثًّا عن هذا الغريب .

اقترب نبيل الذى تابع الحوار وهو على باب المطبخ حاملاً كوب الشاي ثم قال:

- ربما كان الخوف مما رويته لك يا نور قد هيأ لك ذلك .

- لا ، أنا واثقة مما رأيت وليس هذه هي المرة الأولى .

- "ماذا هل حدث ذلك من قبل؟" . بدهشة تسأله نبيل .

- نعم وتصورته خيالاً أو وهماً .

"هيا يا نبيل فلا تضيع الوقت فى الحديث" . بجسم عقب يوسف .

خرج الرجال الثلاث وقد انتشروا في الحديقة يبحثون عن هذا الغريب بينما وقفت نور تتابعهم من فتحة بباب المنزل وفجأة صرخت نور مغشياً عليها يسيل الدم من منتصف رأسها جراء ضربة على رأسها من الخلف .



(٩)

"هل فقدت عقلك؟"

بدهشة كانت تقتلع ملامح يوسف أجاب على اتهام نبيل له بإصابة نور على رأسها هذه الإصابة الشديدة التي أعقبها نزيف شديد جعلها على حافة الموت، لا يدرى أحد أتعود إلى الحياة أم تفارقها إلى الأبد؟

لم يعأ نبيل بغضب صديقه وركر عينيه بنظرات اتهام قوية حملها إلى عيني يوسف الذى استنشاط غضباً ظاهره اتهام نبيل وباطنه الفزع على ما أصاب نور.

تماسك يوسف وتحدى صديقه بلين واستعطاف:

- هل أصاباك الشيطان إلى هذا الحد؟! ألم تعد تعرفني؟!

- لقد فعلت ذلك بدافع شريف.

- لماذا؟!

- ربما أردت أن تقترب منها وتتالع عطفها برعايتها.

- إن الشيطان يبعث برأسك فيثير الوساوس الكاذبة بداخلك؛ إنها تلاصقني دائمًا.

يدخل مختار ثم يغلق الباب خلفه ويتأملهما مليئاً ثم يتساءل:

- لماذا يرتفع صوتكم هكذا أنتشاجران؟!

- نبيل يتهمنى بإصابة نور ودافعى اجتذاب انتباها وحبها.

- كلام لا يصدقه عقل .

- الحمد لله .

- ولكنك فعلت ذلك لسبب آخر .

- ماذا !

- لقد تمكن أمر الخلاص منها من عقلك الباطن ففعلت ما فعلت دون وعي .

عقدت الدهشة لسان يوسف الذي فغر فمه وجحظت عيناه ثم أجاب على اتهام عمه ساخراً :

- لقد نسيت أنني قمت بتنويم مغناطيسي لنفسي قبل أن أقدم على هذه الجريمة .

- تغاضيأ عن سخريتك هذا هو التفسير الوحيد .

- أنتما تدفعان بي إلى الجنون .

- لقد تركتنا يا يوسف بمجرد خروجنا إلى الحديقة بداعي أن ننتشر فيها .

- ثم ماذا يا نبيل ؟

أشاح نبيل بوجهه غضباً فاستطرد يوسف ملقياً قنبلة أخرى :

- ما رأيكما أن هذا الاتهام يناسب "نور" ؟

- أتنصل إلى كلامك جيداً يا ولدى ؟!

- نعم أرادت استعطافى واستقطابى فأصابت نفسها ولم تتصور أن يحدث لها ما حدث .

- هذا هو حديث الجنون بالفعل يا يوسف .

- لقد أرادت إقناعنا بقوة بوجود غريب في الحديقة .

تبادل مختار ونبيل نظرات رفض لما يقول وأعقبها مختار بنظره  
إشفاق استقررت يوسف

فكاد ينفجر محدثاً زفيراً فويأ ثم خرج ودفع الباب خلفه بغضب كاد  
يقتلعه .

ارتدى العجوز على السرير متثاقلاً بأسى فربت نبيل على كتفه حانياً  
ثم قبل كتفه ثم رأسه وابتسم ابتسامة طمأنينة ملطفاً:

- هون عليك يا عمى .

- يوسف يضيع يا نبيل؛ لقد بالغت فى تفاؤلى بالظروف الرائعة التى  
أجبرته على ملازمتها وتصورت أنها ستجبره على تغيير قناعاته وها  
هي النتيجة تصدمنى .

- لا تنس يا عمى أن كل ما وجها له من اتهامات لا يزيد على شكوك  
وظنون .

- أنت تrepid تهدئ نفسى التى تأبى الطمانينة ، فليترفق الله بي ولا  
يفجعنى فيه .



(١٠)

ثبت يوسف عينيه لاتطبقان إلا نادرًا يملأهما حزن عميق نحو نور  
التي غابت عن الوعى يتوسط رأسها جرح يغطيه القطن والشاش  
يتملكها ضعف شديد هو فى حقيقته ما يمنحها قوة وسيطرة على هذا  
الجبل الذى بدأ يتفتت، وتسقط صخوره تطيرها رياح الأحداث صعوداً  
وهوطاً اقترب يوسف وجلس على حافة السرير مثبناً نظرات خوف  
وقلق نحو نور لم يعهد لها فى نفسه من قبل، لكنه تحول إلى طفل  
مذعور من مجرد التفكير فى رحيل أمه عن دنياه.

لقد نزفت نور دماءً كثيرة حتى وصل الرجال وحملها يوسف إلى  
أعلى فلم ينتبه إليها أحد ممن ينامون بالطابق العلوى ولا من كانوا  
بالحدائق، ولا يوجد من يطابقها فى فصيلة دمها النادرة وهى حلقة فى  
سلسلة ندرتها بين من رأهن من النساء والأآن ما يصيبه بالرعب  
والفزع بياض شفتيها وشحوب وجهها وأنفاسها البطيئة.

غرق يوسف فى ما مر عليهمما منذ أول لحظة التقابها وحتى هذه اللحظة  
الحرجة وكيف تتابعت الأحداث من شد وجذب وعاصفة ثم سكون يكاد  
يسكن الآن معه قلبه ونبضاته.

اختزنت عيناه دموعاً حبسها بالقوة فلم تعهد عيناه الدموع من قبل  
ولكن دمعته خانته وانفلتت لتتحدر على خده فلسعته سخونتها كلسع مياه  
الشمعة المشتعلة، فأطلق سراح دموعه فانهمرت ومعها دقاته كالسيل  
المندفع بلا توقف فنهض واقترب من الشباك ونظر إلى الفضاء مناجياً  
الله:

"يارب إن إر ادتك نافذة علىَّ وعلىَّ أعنتي المخلوقات وإن خدعتهم  
قوتهم فلا قوى سواك فترفق بي وارحمنى . إن قدرت لها الرحيل  
فاجمعنى بها فلن أقوى على البقاء بدونها" .

التفت يوسف يتأملها ثم اقترب بخطوات وئيدة يخاطبها بدموع  
غمرت وجهه :

"نور سأخبرك بما لن تسمعيه ومازالت نفسى تأبى أن تعلميه، أنا  
أحبك ولم أعرف الحب من قبل ولم يطف بخلدى مجرد ذكره أو  
تصوره يطوف بحياتى ، لا ترحلى وتتركينى" .

بدأت رأس نور تتحرك ببطء يميناً ويساراً تفتح عينيها بالكاد تحاول  
أن تنطق فتعجز كمن يلقط أنفاسه الأخيرة، فأطبق الرعب على  
يوسف فعلا صدره وهبط تبعاً لقدرتها على المقاومة أو الاستسلام  
لضعفها حتى مالت رأسها نحوه واستقرت نظراتها نحو عينيه فابتسم ثم  
هتف باكيًا: "نور أنت بخير؟ أجيبينى أرجوك" .

ابتسمت نور فاقترب يوسف وأحاط وجهها بكفيه مبتسمًا فغمرته بنظرة  
حنين وشوق من افتقد عزيزاً ثم استعاده بعد زمن طويل فامسكت يده  
وهي تتأمله قائلة:

"لا أصدق ما سمعته منذ قليل لقد استبسلت أنفاسى من أجل الحياة  
أحًّا ما سمعت؟" .

أفلت يوسف وجهها من بين يديه ويده من يديها وتبدل ملامحه إلى  
جمودها المعهود وعقب:

"لا أفهم ما تقصدين" ،

ـ لا تتذكر ما قلت وأنا في الغيبة؟

ـ وهل يسع الموتى ما يتقوه به الأحياء؟!

ـ الموتى!

ـ كنت تقتعلين الموت إذن يا لك من ممثلة بارعة! أنا لا أتذكر شيئاً ،

نهض يوسف غاضباً وتركها في ذهول شديد ،

دارت التساؤلات برأس نور تزيدها ألمًا على ألم رأسها:

"لماذا ينكر؟! لقد سمعته حفًا، آثار الدموع بادية على وجهه فلماذا يصر على الإنكار؟!" ،

إنها على يقين الآن أن نفسه مرأة لما بنفسها مهما انكر ولكن كيف يتيسر لها تحطيم آخر حصنونه من العند ليعرف بما يتصارع بداخله من حب، وسارت بها الأفكار لتسقير على سؤال آخر لا يقل أهمية مما يورقها الآن "من فعل بها ذلك؟! من حاول قتلها؟!" ،

لم تظفر نور بإجابة ولكنها بالطبع ممتنة له فهو من حمل يوسف بقوة على الاعتراف بحبه لها وإن تراجع فهذا لا ينفي الحقيقة التي تأكّدت لها الآن ،

دخلت سارة وما إن رأت نور حتى احتضنتها يغمر وجهها دموع غزيرة وفرحة عارمة لنجاة وحياتها وقرة عينها فغاصت نور في

صدر أمها، تحفل نفسها بالأمل الصادر من تدابير القدر الذى يؤازرها  
بل ويرسل إليها إشارات الطمأنينة فلا يأس مطلقاً.

ابتسمت سارة وهى تردد:

- الحمد لله الذى استجاب لدعائى ونجاك يا حبيبى.

- الحمد لله يا أمى أنا بخير.

- مازلت متحيرة فلا أعرف من فعل بك ذلك ولماذا؟

- لا تشغلى بالك يا أمى فأنا بخير.

- ولكن ينبغى أن أعرف حتى لا يتكرر ذلك.

- وكيف تنتيئ لك المعرفة؟

- لقد قررت إغلاق باب المطبخ من الداخل، واتفق يعقوب مع  
الدكتور مختار على القيام بنوبات حراسة المنزل.

- إذن أريحي قلبك وعقلك ودعى الأمر لهما.

- بل أدعه الله الذى يرعانا ويحمينا.

ابتسمت نور وكلها يقين فى رعاية الله لها ولكل خطوة تخطوها.



## **الفصل التاسع : النصر**

جند المظلات وهى فى السما شابت

ولما حطت حمولها ع الرمال دابت

قدامها جيش فى الميدان يضرب نشان ثابت

ثلاث دول كلها فى بورسعيدي خابت  
بيرم التونسي

(١)

"الإنجليز قادمون" .

بفرع شديد دخل يعقوب لا هنّا ومحذراً فانتقض الجميع قلقين، اقترب مختار من يعقوب محاولاً أن يعرف ماذا حدث فأجاب يعقوب:

- لا أعلم ولكنهم كالثيران الطائشة يفتشون المنازل ويقلبونها رأساً على عقب وهم على وشك الوصول إلى هنا .

- ولماذا يفتشون الحى الأفرونجى؟! لابد أن هناك حدث جلل .

- لا وقت لدينا يا دكتور مختار فلتأخذ نور ويوسف إلى القبو وسابقى هنا مع سارة .

- ألن تأتى أمى معنا؟!

- لا يا نور أسرعى؛ الوقت يداهمنا .

ينطلق الجميع إلى القبو بينما ترمي سارة يعقوب بنظرة دهشة يفهم على أثرها مكنون نفسها فيقترب منها، ويحتضن كتفيها بكفيه متهدلاً بالهجة حانية:

- ينبغي أن يجدوا أناساً يتحدثون إليهم وعليك التحلى بالهدوء حتى لا يرتابوا فيينا .

- مازلت لا أفهمك .

- أنت سيدة جميلة وأريدك أن تتحدثى معهم بلين .

- ماذا؟!

– أخطأتِ الفهم يا أختي العزيزة فأننا لا أقل أن يمسّك أحد ولكننا في موقف عصيب ولن يضيرنا أن تلقاهم بابتسامة رقيقة وحديث عن ذب فحن في حرب وكل شيء مباح في الحرب ولا تنسى مطلقاً أنتي معك .  
– كما تشاء يا يعقوب .

يلتفت يعقوب وسارة إلى طرق شديد على الباب فيتقدم يعقوب ويفتح الباب فيواجهه مجموعة من ضباط الإنجليز يتقدمهم رئيس المخابرات البريطانية الذي يشاركهم حمرة الوجه ، والعيون الزرقاء فابتسم يعقوب بهدوء وحياهم :  
– أهلاً وسهلاً .  
– أهلاً بك .

ابتسمت سارة ابتسامة واسعة فبادلها الضابط بابتسامة أخرى سال معها لعابه إعجاباً بجمالها واستطرد يقول :

– عفواً لإزعاجكم .  
– لا عليك يا سيد . . .  
– ميجور "جون ويليامز" .  
– تشرفنا يا سيدي الميجور ، وأنا "يعقوبيان زاديكيان" وأختي "سارة" .  
– هل أنتما مصريان؟

- لا نحن من الجالية الأرمنية، تقضي لينال منزلنا المتواضع شرف وجودك،
- أشكرك فليس لدى وقت،
- لعلك تبحث عن الإرهابيين القتلة،
- إنه وصف دقيق لهؤلاء السفاحين الذين يتربصون بجنود بريطانيا العظمى ولكن لا أبحث عنهم بل عما هو أجل وأعظم منهم،
- من يا سيدى؟!
- العظيم "أنتونى مورهاوس" سليل العائلة الملكية الذى اختطف صباح اليوم،
- لماذا؟! إنه خطب جل كيف تجرا هؤلاء الرعاع على هذه الفعلة الشنعاء،
- "يا لها من مصيبة" . بفزع عبرت سارة،
- أصبحت يا سيدتى إنها مصيبة كبيرة،
- ولكن ما علاقة الحى الأفرنجى بذلك؟!
- لقد اختطف عند مبنى المباحث الجنائية وربما حاولوا إخفاءه هنا فى الحى الأفرنجى،
- ينبغي أن تقوم باستجواب كل من ترتابون فيه من هؤلاء السفاحين،
- لقد فعلنا ولكنهم يموتون دون أن يتغوفوا بكلمة واحدة،

- إنهم يستميتون استجابة لقرصانهم الأكبر الذي يدفعهم بخطوات حثيثة نحو الجنون فليست مقاومة أقوى جيوش الأرض إلا جنوناً، والأمر محسوم لا محالة يا سيدي الميجور .

- نعم هذا القرصان هو أصل البلاء .

- لا أراه سوى لص كبير، لقد بدأ بالسطو على أراضي الآترياء ثم وزعها على الفقراء ليضمن ولاءهم ويستمر في السطو، وهاهو يتجرأ على قناعة السويس ونحن نوقن أنها ملك لإنجلترا وفرنسا العزيزة .

- فرنسا العزيزة!

تبتسم سارة ثم تعقب:

- نعم إننا ممتنون لفرنسا التي أنقذتنا من الآتراك السفاحين أثناء الحرب العالمية الأولى وهو صنيع لا يمكن أن ننساه .

يرمقها الميجور بنظرة إعجاب ثم يقول:

- بريطانيا العظمى راعية المبادئ والأخلاق لا تقبل مطلقاً ما فعله الآتراك بكم والدليل مافعلته بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى .

- ماذا فعلت يا سيدي؟

- لقد قمنا بعمل تحقيق في الأمر وتقديم المذنبين للعدالة قصاصاً لدماء الأرمن الزكية .

- "لقد شفيت نفوسنا يا سيدى فلنهدأ روح أمى وأبى بحوار المسيح" .  
بابتسامة عقب يعقوب .
- أشكرك يا سيدى وأشكر سيدة العالم بريطانيا العظمى .
- أصبت يا سيدتى ستظل بريطانيا العظمى سيدة العالم بلا منازع ولن ينال منها العبيد .
- أرى ناصر على خطى هتلر يريد أن يكون زعيماً عالمياً .
- نعم يا سيد يعقوبيان وسليقى فى النهاية مصير هتلر إنه مصير كل من يتحدى إرادة بريطانيا العظمى .
- ألا تمنحنا شرف تناول الشاي معنا؟
- أشكرك أنا فى عجلة من أمرى استاذنكم .
- يمد الميجور يده فيصافحه يعقوب ثم سارة التي يقبل يدها بنظرة إعجاب متبححة خلسة فتبادله بابتسامة تثيرة، ثم يرحل مع جنوده فيسرع يعقوب ويغلق الباب وهو يخرج شحنة زفير قوية تتبئ عن ارتياح بعد قلق شديد .
- أنت ممثلة رائعة يا أختى العزيزة!
- هذا بفضل الله الذى نحمده على إخفاء ما بنفوسنا وإلا هلكنا ولكن لماذا دعوتم إلى تناول الشاي معنا؟! ماذا لو قبل الدعوة؟!
- ليته قبلها .
- لماذا؟!

- لو قبلها لتركتهم يتناولون الشاي للمرة الأخيرة وبعدها أدفن سيارتهم معهم في الحديقة .

- كيف تفكـر هكـذا؟! أتـريد أن تورـدنا مورـد الـهلاـك؟!

- بل أـريد لهم ذـلك كـما فعلـوا بـحبـة قـلبـي دـانيـال عـرـيس السـماء .

- فـلـيـرـحـمـه الله يا حـبـبيـي وـلـكـنـكـ ماـزـلـت لاـتـعـى الـدـرـسـ الذـى وـعـيـنـاهـ أناـ وـوـالـدـيـكـ .

- أـى درـسـ؟!

- التـسامـح يا أـخـى العـزـيزـ لـقـد سـامـحـ والـدـ وـوـالـدـكـ وـوـالـدـتـكـ منـ ظـلـمـونـاـ وـكـذـلـكـ  
أـنـاـ أـمـاـ أـنـتـ فـمـازـلـتـ أـسـيـرـاـ لـأـحـزـانـكـ فـىـ الـمـاضـىـ وـالـحـاضـرـ .

- لـاـ يـمـكـنـ أـنـ نـتـخـلـىـ عـنـ خـصـالـنـاـ بـهـذـهـ السـرـعـةـ ياـ أـخـىـ العـزـيزـةـ .

- إـنـ اللهـ خـيـرـ حـكـمـ عـدـلـ لـقـد اـقـتصـ منـ وـالـدـ نـورـ وـأـخـيـهـ وـأـنـاـ لـسـتـ سـعـيـدةـ  
بـذـلـكـ وـلـكـ عـدـالـةـ اللهـ نـافـذـةـ فـىـ الـأـرـضـ فـلـاـ يـضـيـعـ حـقـوقـ الـعـبـادـ .

- وـلـكـنـهـ لـمـ يـقـصـ منـ الـأـتـرـاكـ .

- كـيفـ؟!

- لـقـدـ انـهـارـتـ اـمـبرـاطـورـيـتـهـمـ الـعـظـمـىـ وـقـدـ سـمـعـتـ الـآنـ أـنـ الإـنـجـليـزـ  
اـقـتصـوـاـ لـنـاـ .

- هـذـاـ المـخـادـعـ الـحـقـيرـ يـرـيدـ اـسـتـمـالـتـنـاـ بـالـكـذـبـ .

- كـيفـ؟!

- بعد استقرارنا هنا حرست على متابعة الحرائق وبخاصة الأجنبية  
وعلمت أن إنجلترا بعد انتهاء الحرب بعام حققت فيما حدث لنا وقدمت  
عددًا من اشتبه في تورطهم إلى المحاكمة ولكنها لم تجد دليلاً واحداً  
لأن الأتراك بالطبع أخفوا كل الأدلة.

- وهل حكم عليهم؟

- لا ولكن إنجلترا راعية المبادئ والأخلاق! استفادت من الموقف.  
- كيف؟

- قررت التغاضي عما حدث مقابل حصولها على إسرافها لدى  
الأتراك.

- يا لدناءتهم إنهم بلا شرف.

- وددت لو قطع لسانى يا سارة قبل أن أسب المصريين ورؤسهم.  
- لقد آمنتى عباراتك ولكن للضرورة أحکام.

- هؤلاء البسطاء رغم فقرهم ساعذونا وهم لا يعرفوننا فليكن الرب  
راعياً لهم في محنتهم ول يجعل العاقبة لهم.

- لقد نسينا من بالقبو يا يعقوب سأهبط إليهم لأطمئنهم علينا.  
- ليس الآن فربما عادوا ثانية.

- لماذا؟

- ربما كانت مناورة، عليك توقع أى شئ فى الحرب لذا سأخرج  
متعللاً بشراء بعض الطعام مستطلاً بالأمر وسأريك فوراً لأخبرك بما  
علمت.

- كما ترى يا يعقوب ولكن لا تتأخر فابنتى لن تصبر كثيراً  
- كونى أنتِ صبوره ولا تتعجلى النزول إليهم قبل أن أحضر مهما  
تأخرت أما نور فليست وحدها وأنا أثق برجاحة عقل الدكتور مختار  
والدكتور يوسف.



(٢)

"الخوف على أمي يكاد يمزقني".

بفزع شديد عبرت نور عن الخوف والقلق الذي سيطر عليها داخل القبو فهو كالقبر عالم آخر يُعييك عن كل ما يحدث أعلاه، فرغم ميزته في إخفاء أي إنسان عن العيون واستحالة الوصول إليه فإنه يُعييك من فيه عن الحياة وما يدور فيها ناهيك عن ظلمته وبرودته.

القبو يحمل الخوف كما يحمل الأمان الذي غاب عن نور فزعاً على والدتها وحالها فلا تعرف مصيرهما الآن ولا سيما بعد مرور وقت طويل، فمزقها الخوف الشديد عليهم.

اقرب الطبيب العجوز منها مسترشداً بمصباح الكيروسين وربت على كتفها مهدتاً:

- لتهدا نفسك يا ابنتى .

- مضى وقت طويل ولم يهبط إلينا أحد .

- ربما كانوا يفتشون المنزل .

- وربما قبضوا عليهمـ .

- لم أعهدك متشائمة مطلقاً .

- إن لتفاؤلى حدوداً يا عمى ولن أصبر أكثر من ذلك سأصعد لاستطلع الأمر .

"إياكِ أن تتحركى خطوة واحدة" . بصرامة حذرها يوسف .

- التفت نور رمقته بنظرة غضب ولكنها تماست متسائلة: "لماذا؟" ،
- إذا لم يهبط أحد فلن نصعد فلا نعلم ماذا حدث ،
  - لهذا أريد الصعود ،
  - هذا عمل متهر قد يقودنا جميعا إلى الهلاك ،
  - هناك مصيبة أخرى تدعونى إلى الفرق ،
  - ما هي يا ابنتي؟
  - شريف ونبيل ربما يعودان في أي لحظة وأخشى وقوعهما في الأسر ،
  - أرأيتِ كم أنتِ متهرة التصرف الأمثل هو الصبر حتى تتبيّن لنا الأمور ،
  - وكيف ذلك ونحن في هذا القبر؟! هل ينبغي الانتظار حتى نموت قلقاً لا أطيق الانتظار ،
  - ليس بإرادتك فلست حرّة تفعلين بنا ما تشاءين ،
  - أنت واهم؛ أنا حرّة وليس لك الحق في قمع حرّتي ،
  - ربما تسبّب صعودك في ضياعنا جميعاً لذا لن أسمح لك بالصعود مهما قلتِ وفعلتِ ،
  - من أنت حتى تسمح أو لا تسمح ،
  - إياكِ وتخطى حدود الأدب ،

- مَاذَا؟! سأصعد رغماً عنك .
- تَهُمْ نور بالصعود فيسرع يوسف ويقترب منها محذراً:
- قلت لن تصعدى لسنا فى موقف يحتمل الميوعة .
- كيف تجرؤ على مخاطبتي هكذا؟!
- المواقف العصيبة تحتاج العقل والتفكير السديد لا التهور والمشاعر الغبية .
- أنت عقل بلا مشاعر من أي نوع ولا إحساس .
- يرفع يوسف كفه ويه بصفعها فيمنعه مختار بينما يسيطر الغيط والدهشة على وجه نور فيبادرها العجوز بالاعتذار :
- سامحه يا ابنتى إنه مضغوط لما يحدث حولنا والضغوط تقعدنا عقولنا .
- هذا المخلوق لا يفقد عقله مطلقاً ولكنه يفقد أدبه .
- أرأيت ماذا تقول هذه السفيهية .
- لا سفيه هنا سوالك توقف يا يوسف وكفالك إساءات .
- أهذا رأيك يا عمى؟! حسنا ولكن لن أتراجع عما قلت فلن تصعد إلى أعلى مهما حدث .
- هو العناد إذن .
- افهميه كما تشاءين .

يقترب مختار منها بنظره حانية:

ـ انصتى إلى جيداً يا ابنتى لقد اعتدت فى المواقف الصعبة أن أضع  
أسوأ الاحتمالات وأضع له رد الفعل المناسب لتجنب القلق ، فما هو  
أسوأ احتمال فيما نحن فيه الآن؟

ـ لا قدر الله لا قدر الله سقوط أمي وحالى فى الأسر .

ـ إذا حدث ذلك فسنتمك من تخلصهما بإعداد خطة لذلك وإذا وقعنا  
جميعاً فى الأسر فلن نتمكن من تخلصهما التفكير الهادئ يصل  
بصاحبها إلى بر الأمان .

تهداً نور وتبعد مقتنعة بما قال فتهز رأسها موافقة:

ـ كما ترى يا عمى .

يبدو الغضب الشديد على وجه يوسف الذى يكاد ينفجر وجهه غيظاً  
فيتسائل:

ـ ما الفرق بين مبراته ومبرراتي؟

ـ الأسلوب يا دكتور لقد تعلمت الطب فى بلاد الانجليز ولم تتعلم  
الذوق .

ـ ألا تكفى كل هذه الإهانات؟!

ـ والله لو لا احترامى لك لصفعتك على كل ما قلت وفعلت .

ـ لماذا؟!

ـ لا تنقوه بكلمة واحدة .

يرميه يوسف بنظرة غضب ثم ينهى تنهيدة قوية، وفجأة ينتبه إلى وقع  
أقدام يعقبها ظهور شبح يقف فوق أعلى درجة للسلم المؤدي إلى القبو،  
فيخرج يوسف مسدسه فيمنعه مختار منادياً:

- من؟!

- أنا نبيل يا عمى.

يعيد يوسف مسدسه إلى جيده بينما يهبط نبيل السلم.

- متى جئت؟ وما حال السيدة سارة وأخيها؟

- إنهم بخير.

تنهد نور بارتياح هامسة : "الحمد لله".

- هل تعلم أن الإنجليز كانوا هنا وهم السبب في بقائنا بالقبو؟

- نعم وقد رحلوا.

- أديك معلومات عن سبب وجودهم في الحي الأفرنجي.

- لقد اخطف مورهاوس.

- من؟! من هذا؟

- ضابط من العائلة الملكية والإنجليز يحررون بورسعيد بحثاً عنه. لقد  
قلدوا حى العرب رأساً على عقب وكلما فتشوا منزلًا وضعوا عليه  
علامة فما كان من الأطفال بالحى إلا أن وضعوا علامات على بقية  
المنازل التي لم تُفتح فاضطر الإنجليز إلى إعادة التفتيش.

- ما أذكى هؤلاء الأطفال! ولكن بالتأكيد أثار ذلك الإنجليز أيضًا.
- نعم يا نور، ألقوا القبض العشوائي على سكان الحي ورحلوهم إلى الإسْتاد تمهيداً لاستجوابهم.
- بل لقتلهم قتلاً بطيئاً اللعنة عليهم.
- إنها الحرب يا يوسف التي تثير كل معانٍ الرعب والخراب والندالة أيضًا.
- تبدو متأثراً بشدة يا نبيل وكأن الحرب وقعت الليلة.
- ما يحدث يفوق الاحتمال يا عمى! فلا يعقل أن تكبد مدينة صغيرة كبور سعيد كل هذا.
- لكِ الله يا مصر.
- يجب أن أخبرك بأمر هام جدًا يا عمى.
- ما هو يا نبيل؟
- الإنجليز سيتمرّكرون هنا لذا ينبغي أن نرحل عن المكان؛ تأمّلنا لأصحابه ولننا أيضًا.
- التقط يوسف كلام نبيل كما يلتقط الطائر الجائع الكلأ، فأسرع يعقب:
- أنت على حق يا نبيل يجب أن نرحل.
- انهارت نور وكادت تسقط لو لا تماسكها فأسرعت دون تفكير صارخة:

- لا لن ترحلوا .

صرخ يوسف بعنف فى وجهها : "من سمح لك بفرض إرادتك علينا؟!" .

يسسيطر الخجل والحزن على وجه نور فتطرق برأسها أسفل، فيفقد مختار هدوءه ويرمى يوسف بنظرة غضب شديدة صارخًا:

- أنت أرعن وأحمق تفقر إلى الأدب تماماً .

- كفانى منك يا عمي إهانات بسبب هذه المخلوقة .

- نبيل خذه واصعدا إلى أعلى قبل أن أفقد أعصابي ويناله منى ما أندم عليه .

ثبت يوسف كالتمثال مكانه عقدت الدهشة لسانه ثم نظر إليها بغضب شديد فاقرب نبيل منه وجذبه من ذراعه وحثه على الصعود إلى أعلى، امتثل له ولكن ركل الكرسى بغضب فى طريقه تنهى العجوز وأسرع وأقام الكرسى ثم جذب نور من ذراعها، وأجلسها فهوت عليه كورقة شجر هوت فى الخريف بدا وجهها شاحباً فى ضوء المصباح، بينما اندرت دمعة حبسها فى عينيها ورمقته بنظرة انكسار تثير الشفقة فتحت العجوز بحرج قائلًا:

- أود أن أعتذر لك عن غلطة هذا الشرس ،

- وما ذنبك لتعذر ،

- ذنبي مسؤوليتى عنه .

- ولكنه تجاوز سن الرشد .
- هناك رشد لم يبلغه بعد .
- مادا تقصد؟
- الرشد الذى يكفل له إدراك النعمة التى يبدها الآن .
- سيدشك أن تعلم أنه يراها ويريدها ولكنه يصر على عناد نفسه؛ لقد باح بما فى نفسه حين كنت بين الغيبة والإفادة بل ربما كان اعترافه سبباً فى استعادتى الحياة ولكنه سرعان ما تراجع فى اعترافه وعاد إلى عناده .
- مادا؟! هل سمعتك جيداً؟ لا أكاد أصدق ما تقولين .
- لقد تمنى موته إن قدر لى الموت أتصدق ذلك؟!
- إنها معجزة؛ لقد فعلتها يا نور .
- لا تصدق نفسك يا عمى؛ لا فائدة من ذلك فالواقع أنه يريد الهروب مني .
- الواقع أنك حطمت جدر ان السجن ولا يبقى سوى جذبه من مكان ألفه وألف أمانه ويخشى الانتقال إلى غيره
- أنت تقنع نفسك باللهم يا عمى ولا تريد الاقتناع بالواقع .
- إنه الخوف من المجهول والوساوس التى تسيطر على عقله .
- لقد منيت نفسى بذلك مثلك وملانى الأمل الذى سرعان ما أسلمنى فى النهاية إلى انكسار وخذلان كما رأيت الآن .

- إن ما فعله يا نور بدل على حب وقلق عليك ولكنه لا يجید فن التعامل مع النساء فلا خبرة لديه في ذلك المجال وهذا ما ينبغي عليك تحمله.

- وماذا عن موافقته السريعة للرحيل من هنا؟

- لا تفسير لدى ولكن ما أدركته جيداً خوفه عليك إلى حد منعك من الصعود بالقوة.

- ربما خوفه عليك وعلى نفسه؟!

- لا تتعجل الأمور؛ أنا على يقين أن الله سوف يسبغ علينا من نعمه ومفاجاته الرائعة أكثر مما نتوقع يا ابنتي.



(٣)

"لا بد أن نرحل فوراً".

بحسم وصرامة بالغين أطلق يوسف قراره النهائي في وجه مختار الذي كتم غضبه ورسم هدوءاً زائفاً على ملامحه كي يتمكن من النقاش بتعقل يصل به إلى إقناع يوسف بالتراجع، أغلق باب الحجرة حتى لا يتسلل صوت يوسف إلى حجرة نور المجاورة لهما، وكانت قد حبس نفسها بعد إصراره على الرحيل.

طلب مختار من يوسف أن يجلس على السرير فجلس بينما جذب العجوز مقعداً وجلس مواجهاً له وبدأ حديثه متسللاً:

- إلى أين نرحل؟!

- إلى أى مكان فسيكون آمن أكثر من هنا.

- لا يمكننا الرحيل فلا يوجد مكان مناسب نقيم به، ولو أردنا الرحيل عن بورسعيد لعجزنا.

- لا أريد مغادرة بورسعيد فلم تنته الحرب بعد.

- وما دورك في الحرب يا دكتور؟

- معالجة الجرحى يا عمى.

- أمازالت تذكر المصابين؟!

- ماذا تقصد يا عمى؟!

- إن مأساتك التي تخيم على عقلك وقلبك جعلتك تنسى المسئولية المعلقة في رقبتك المصايبين القابعين هنا بالمنزل . هل ستتركهم يموتون أم ماذ؟!
- يمكننا نقلهم إلى مكان آخر كما جئنا بهم هنا .
- هذا أمر محل والإنجليز يحاصرون الحى بحثاً عن هذا الضابط .
- نبيل من اقترح هذا الأمر وهو أدرى بالظروف المحيطة بنا .
- خوفه وفقيه دفعاه إلى التفكير بنهرور ولكنه أفتتح أننا لا يمكن أن نرحل من هنا .
- ولكن بقاءنا يعرضنا إلى الوقوع في الأسر .
- أسر من يا ولدى .
- الإنجلiz وأيضاً أصحاب المنزل سيكونون في خطر كبير .
- إذا كنا لن نستطيع نقل المصايبين فلن نرحل رعاية لهم، كما أن المنزل حتماً سيتعرض مرة أخرى إلى التفتيش فماذا لو عثروا على المصايبين أنترن أهل المنزل يواجهونهم وحدهم؟ أهكذا نرد الصنيع العظيم الذي قدموه إلينا منذ جئنا إلى هنا؟!
- وماذا سنفعل؟
- سنبقى إلى أن تنتهي الحرب .
- لا أحتمل ذلك .
- يقطّعه العجوز ناهضاً: "إن صمت على الرحيل فلترحل وحدك" .

يهم مختار بالرحبيل فيوقفه يوسف معقباً: "لا يمكن أن أرحل بدونك" ،  
- وأنا لن أترك المنزل إلا بعد انتهاء الحرب .

يتنهد يوسف كاتماً غضبه ثم يهز رأسه قبولاً فتنفرج أسارير العجوز ، فيقبل رأسه ثم ينصرف مسرعاً نحو حجرة نور فيطرق الباب فتفتح له شاحبة ، غلبت الدموع عينيها بغلاف أحمر وانكمش وجهها فبدت عيناهَا مترقبتين ، فابتسم الرجل ابتسامة توحى بالتفاؤل وهز رأسه بما يوحى بإيقاع يوسف بالبقاء فارتمت بين ذراعيه ، وانفجرت باكية فربت على ظهرها بحنان ثم احتضن وجهها بين كفيه ومسح بابهامه دموعها ، وقبل رأسها وانصرف مسرعاً حتى لا يلحظ أحد وجوده عندها وبخاصة يوسف .

هبط الدكتور مختار السلم فلمحه نبيل الذي رمقه بنظرة تساؤل عن موقف يوسف فأجاب الطبيب العجوز بإيماءة من وجهه ففهمها نبيل فابتسם .

حينما وصل الدكتور مختار إلى الطابق السفلي لمح شريف ثم السيدة سارة ويعقوب منتبهين إلى شريف الذي كان يروى تفاصيل عملية خطف مورهاوس ، فعبر مختار عن فرحته برؤية شريف قائلاً: "حمدًا لله على عودتك يا ولدي" ،  
- أدامك الله يا عمى .

- لعلى سمعتاك تتحدث عن مورهاوس؟  
- نعم إن تفاصيل العملية بجعلتى وكنت أروى لهم التفاصيل .

- ماذا حدث؟!

- لقد جمعنا معلومات عن خط سيره وتم انتظاره حتى نزل من سيارته ليت فقد خنادق الجنود وفجأة ظهر صبي صغير أمامه وسبّه ثم فر، فتتبعه مورهاوس بسيارته دون حرسه.

- يا له من أحمق! يسعى وراء طفل سبّه.

- إنها الغطرسة، المهم أن الصبي حين وصل إلى رصيف مبني المباحث الجنائية تظاهر بالسقوط من فوق دراجته على الرصيف فنزل مورهاوس ممسكاً مسدسه فالقطه الفدائيون وأدخلوه السيارة.

"ولكن لماذا هذا الضابط بالتحديد؟!" بدھشة عبرت سارة.

- إنه صيد ثمين يمكن مقايضته بعدد كبير من الأسرى.

- أصبحت يا ولدى.

وقعت كلمة ولدى على قلب شريف فصمت برهة بعد أن بدا عليه التأثر، فابتسم يعقوب وعقب: "أنا أقصد ما تفوهت به؛ بعد ما فعلته من أجل ولدى أصبحت محله وأرجوان أعوضك عن فقد والدك فكلانا يلبى احتياج الآخر".

ابتسم مختار وغير مسار الحديث حتى لا ينتهي بمشهد مؤثر يعقبه اجترار الأحزان وقال:

- وهل تعلم أين هو الآن؟

- هذا أطرف ما في الأمر ، لقد تم نقله في سيارة الشرطة إلى منزل أحد الأطباء الواقع أمام معسكر لمركبات القوات البريطانية .

"الثلاثاء الحادى عشر من ديسمبر تاريخ لن تنساه بريطانيا العظمى حينما سقط أحد رجال السلالة الملكية ذات الدم الأزرق فى يد من يطلقون عليهم الرعاع" . بلامح يسيطر عليها التشفى علق نبيل على خطف مورهاوس .

- هل شاركت في العملية يا نبيل؟

- لا يا عمى لقد أنهكت سميحة وسقطت مغشياً عليها من فرط الإجهاد وقمت بنقلها إلى منزل على أطراف حى العرب لم يتهم فى العداون وواجهت موقفاً مريعاً .

- ماذا حدث يا ولدى؟

- بمجرد وصولنا شعرت ربة المنزل باقتراب الإنجليز لتفتيش البيت فرقدت سميحة نائمة وقامت السيدة بإخفائها ، وهنا حلقة جديدة فى سلسلة ذكاء المصريين البسطاء .

- كيف يا ولدى؟!

- لقد لفت حسيرة حول جسدى ووضعتها خلف الباب قائمة فدخلوا وفتشوا المكان ولم يلحظوا وجودى وعلمت بعد رحيلهم أن النساء يخفين الصبية بهذه الطريقة والحمد لله أتنى لست طويلاً وإلا صرت أسيراً ثم قتيلاً .

- الحمد لله الذى حفظك ورعاك يا حبيبي .

بدا شريف شارداً متجهمًا تماماً فاستدعاه مختار:

ـ فيم شرودك يا شريف؟!

ـ أفكرا فيما سيحدث جراء خطف هذا الضابط إنهم يستميتون  
ويتوحشون في البحث عنه.

ـ إنها النهاية ولا ريب.

ـ ماذ؟!

ـ إن ما تراه أمامك انهيار يعقبه استسلام فليس ما حدث اليوم فحسب  
ولكن فشلهم المتكرر.

ـ فشلهم!

ـ نعم لقد فشلوا في وقف المقاومة على الرغم من وحشيتهم مع  
الأسرى، وفشلوا في وقف توزيع المنشورات التي تحرض على  
قتالهم، وفشلوا في حث التجار المقاطعين لهم كي يتعاونوا معهم  
وبيعوا لهم السلع التي يحتاجونها رغم ما تعرض له غيرهم من  
تعذيب وقتل.

"أصبت يا دكتور مختار ولكن الاستسلام أمر محل نظر". بريبة  
تحدى يعقوب.

ـ لماذا يا سيد يعقوب؟

ـ لأن ما جاءوا من أجله ثمين ولا يمكن التخلى عنه.  
اقرب نبيل من يعقوب وعقب قائلاً:

- إن ما حدث اليوم بمثابة فضيحة كبرى كما تداولتها وسائل الإعلام، وهذا يعني أن خسائرهم فادحة وهذا يؤهلهم للاستسلام وقد صار ما جاءوا من أجله فخاً ولا ريب.

Shard Shrif قليلاً في حديث نبیل ثم عقب قائلاً:

- لا بد أن يعقب هذه العملية عملية أخطر تقددهم إلى خسارة أكثر إيلاماً.

نهضت سارة فزعة وقالت:

- ولكن هذا سيثير حفيظتهم ويجعلهم كالثور المطعون وسيدفع الثمن أبداً جدد.

"إن قمنا بعمليات ضدتهم أو هادناهم الأمر سواء؛ لن يتوقفوا عن قتل الأبرياء" بإصرار تحدث شريف.

جلس مختار وشد قليلاً ثم عقب محادثًا نفسه: "سننتصر بإذن الله".



(٤)

"دقات قلب العاشق كطبول الحرب" .

بشرود عبر يوسف عن نظرته إلى الحب والمحبين وهو يتأمل  
الفضاء الواسع من شرفة حجرته التي انفرد فيها بنفسه .

لم يشعر ببرودة الجو التي فرضها ديسمبر ولا سيما هواء الفجر  
الذى يتميز بل ساعاته الشديدة . فرضت الأفكار المبعثرة والمكتظة بعقله  
غلياناً برأسه سرى إلى جسده .

السؤال الذى سيطر على عقله لماذا يصر القدر على إلقاءه فى  
شاطئها؟ فكل من جاءوا إلى هنا استطاعوا الخروج والمغيب أيامًا، أما  
هو فقد شاء القدر أن يظل أسير هذا المنزل لا ييرحه ليقى مواجهًا لها  
وحيثما لاحت فرصة الخروج من هنا أمس لم تثبت ان زالت سريعاً  
وعاد إلى نفس المصير .

إن القدر قاهر لنا وإن حبانا الله إرادة تمكنا من صنع ما نريد،  
ولكنه في النهاية يبقى الأقوى في فرض إرادته وبأسباب منطقية  
محكمة تجعلنا نستسلم له .

دار بذهنه ما حدث بالماضي وفرضه عليه القدر أن يحيا بلا أم مع  
أقاربه وهي على قيد الحياة ومع غرباء وأهله أيضاً على قيد الحياة،  
وحيث قرر أن يبقى وحيداً بلا نساء نفذ إرادته فترة استطاع فيها صد  
كل محاولات منهن أو من عمه ومن صديقه الوحيد .

وَعَادَ الْقَدْرُ يَفْرُضُ عَلَيْهِ إِرَادَتَهُ مِنْ جَدِيدٍ وَكَانَ مَا اسْتَطَاعَهُ بِالْأَمْسِ  
لَمْ يَكُنْ سَوْى خَدِيعَةً أَسْلَمَتْهُ إِلَى وَهْمِ الإِرَادَةِ وَالْقُوَّةِ فَهَا هُوَ أَسْيَرُ هَذَا  
الْمَكَانِ لَا يُسْتَطِعُ تَرْكُهُ وَلَيْسَ ذَلِكَ جَبَّاً وَلَكِنْ مَسْؤُلِيَّةُ الظَّرْفِ الَّذِي  
فَرَضَهُ الْقَدْرُ أَيْضًا.

وَتَفَقَّقَ عَنْ ذَهْنِهِ سُؤَالٌ آخَرُ نَبَعَ مِنَ السُّؤَالِ السَّابِقِ مَاذَا يَرِيدُ الْقَدْرُ  
مِنْهُ؟ تَصَارَعَتِ الْأَفْكَارُ بِرَأْسِهِ حَتَّى ازْدَادَتِ غَلِيلَاتِهِ وَلَمْ تَعُدْ تَقوِيَ عَلَى  
الْتَّحْمُلِ مِنْ فَرْطِ الْغَلِيلَانِ، فَقَرَرَ اللِّجوَءَ إِلَى الْمَاءِ الْبَارِدِ رَغْمَ بِرُودَةِ الْجَوِّ  
وَعَلَى الْفُورِ اتَّجَهَ إِلَى الْحَمَامِ وَفَتَحَ صَنْبُورَ الْمَيَاهِ لِتَنْتَدِعَ عَلَى رَأْسِهِ بِقَوْةٍ  
فَهَدَأَتْ حَرَارَةُ رَأْسِهِ، وَلَكِنَّ التَّسْأُلَاتِ لَمْ تَهَدِأْ ظَلَّتْ مَتَّعِلَّةً بِرَأْسِهِ فَعَادَ  
إِلَى أَفْكَارِهِ مِنْ جَدِيدٍ وَتَبَادَرَ إِلَى ذَهْنِهِ مَا حَدَثَ مِنْ أَمْرِ الْحَرْبِ الَّتِي  
اسْتَدَعَتْهُ لِيَأْتِيَ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ، وَيَقْبَعُ فِيهِ مِرْغَمًا وَمَتَى سَيَمْكِنُ مِنْ  
الرَّحِيلِ؟

إِنَّ الْحَرْبَ لَا تَبْدِي أَى بُوادرَ لِلنِّهَايَةِ رَغْمَ قَرَارِ وَقْفِ إِطْلَاقِ النَّارِ فِي  
الشَّهْرِ الْمَاضِي فَالْحَرْبُ مَا زَالَتْ عَلَى أَشْدَهَا وَالصَّرَاعُ مَحْمُومٌ بَيْنِ  
الْمُصْرِيبِينَ وَالْعُدوَانِ الَّذِي يَبْدُو أَنَّهُ لَنْ يَرْجِعَ إِلَيْهِ الْآنِ وَبَاتَ الْأَمْرُ مَسْأَلَةً  
كَرَامَةٍ لَهُمْ، فَمَتَى يَتَخلَّصُ مِنْ هَذَا الْأَسْرِ الَّذِي يَشْعُرُ أَنَّهُ سِلَاحُ الْقَدْرِ  
لِتَحْقِيقِ مَأْرِبِهِ الَّذِي يَدْرِكُهُ وَلَكِنَّهُ يَخْدُعُ نَفْسَهُ بِالْتَّسْأُولِ وَافْتَعَالِ الْجَهَلِ.

أَنْهَى يُوسُفَ حَمَامَهُ وَجَفَّ جَسْدَهُ وَرَأْسَهُ وَخَرَجَ لِيَبْدِلَ مَلَابِسَهِ،  
حِينَما انتَهَى مِنْ تَبْدِيلِهَا خَرَجَ إِلَى الشَّرْفَةِ حِيثُ تَسْلَلتْ خَيُوطُ الشَّرُوقِ  
لِتَرْسِمَ لَوْحَةً بَدِيعَةً لَمْ يَنْتَهِ إِلَيْهَا يُوسُفُ مَطْلَقًا مِنْ قَبْلِهِ.

تأمل يوسف المشهد غالباً عما أرقه من تسلالات ازدحمت بها رأسه، ولكن لم يدم تأمله منظر الشروق الجميل فقد أعاده إلى مشكلته التي تورقه إذا كان قد غفل عن هذا الجمال من قبل فهناك إذن أمور أخرى ربما تكون بديهيّة لم ينتبه إليها، فربما أراد القدر أن يعلمه درساً جديداً في الحياة رغم أنه فلم لا تكون نور حقاً مختلفة عن بقية النساء.

عادت الوساوس تقهّر من جديد لقد افتعلت الغيبيّة لتنستر عطفه وعلمت ما بنفسه من مشاعر اختزناها لها، إنها مخادعة كبقيّتها فلم لا يكون هذا الموقف إنذاراً لينتبه ولا يسقط في الفخ.

وعاد يتتساءل إنذار من؟! ألم يكن القدر هو الذي صنع به كل هذا؟! وتصارعت أفكاره المتناقضة بعقله تجذبه يميناً ويساراً دون مقاومة منه ليرسو على شاطئ يرحمه من هذا الصراع فأسلمته إلى ألم شديد برأسه.

ساقت رحمة الله إليه طرفاً على الباب انتزعه من أفكاره فانتبه إلى الطرق برهة وسرعان ما عاد التساؤل يغزو رأسه من ياترى يطرق الباب أ تكون هي؟! وشعر بخفقان شديد في قلبه فتساءل لماذا؟! ألهاذا الحد قهرتني؟! جاء صوت سارة من الخارج ليرحمه ويحسّن الأمر:

– دكتور يوسف دكتور يوسف.

أسرع وفتح الباب فرأى سارة بابتسامتها الحنون التي نالت من همومه فبدتها فبادر بالتحية:

- صباح الخير يا سيدتي .
  - صباح النور يا دكتور ظننتك لم تستسيقظ .
  - لا أنا مستيقظ منذ الفجر .
  - الإفطار معد والجميع على السفرة فلتنتضم إلينا؟
  - أشكراك يا سيدتي فلست جائعاً .
  - لابد أن تتنبه إلى صحتك هناك كثيرون معلقون برقبتك .
- تنهد يوسف حينما ذكرته سارة بالمسؤولية التي جعلته يستسلم إلى البقاء والحبس بالمنزل فهز رأسه مستسلماً لطلبها معقباً:
- كما تثنين سالحق بك حلاً .
- انصرفت سارة ووقف يوسف ببرهه وكأنه يخشى مواجهتها من جديد بعد أن ظل حبيس حجرته طوال أمس، وقرر في النهاية النزول ومواجهة ما سوف يسوقه القدر في طريقه .
- هبط يوسف السلم وما إن اقترب من نهايته حتى شعر بأنفاس خلفه تختلط أنفاسه، فالتفت فوجد نفسه في مواجهتها فتسارعت دقات قلبه فقرر أن يبدأ بالتحية ليسسيطر على انفعالاته:
- صباح الخير .

"صباح النور" ببرود ولامبالاة أحابيت نور ثم هبطت السلم دون اهتمام به واتجهت نحو السفرة التي حفلت بألوان من الطعام .

جلست نور مجاورة يعقوب وحيته فبادلها التحية، ولكنها بدت مرهقة يخالط وجهها شحوب بارز، جلس يوسف بجوار الدكتور مختار في مواجهتها دون أن ينتبه إلى وجوده أو يلقى عليه تحية الصباح، فبادره العجوز محيياً في دهشة فانتبه يوسف وبادله التحية بينما تقدمت سارة نحو السفرة تحمل طبقاً كبيراً به شرائح من الخبز وضعته على السفرة وجلست إلى المائدة:

"تفضلوا" ، بابتسامة دعت سارة الجميع لتناول الإفطار فأقدموا على تناوله ولكن يوسف انشغل بمراقبة نور التي لم تعره نظره ولو بالخطأ، لقد تعمدت الهروب من وجهه فأصابه ذلك بالدهشة والحيرة، بينما كان العجوز يراقبه ثم لفت انتباذه أنه لا يأكل فأقدم يتناول الطعام متوجهلاً لها وقرر أن يفتح الحوار لينسى التفكير فيها:

- ما الأخبار؟ هل وجدوا "مورهاوس"؟

- لا يا دكتور يوسف مازالوا يبحثون عنه .

- هل تعتقد يا سيد يعقوب أنهم سيجدونه؟

- لا أظن إذا كان مختبئاً في منزل أمام معسكر القوات الإنجليزية فلن يعثروا عليه .

تنهدت سارة و عقبت: "ولكنهم فى مقابل ذلك ماز الوا يلقون القبض على الكثير من أهل بورسعيد وسيخلف هذا الأمر مأساة مروعة تضاف إلى ما ارتكبوه من قبل" .

- بل تضاف إلى فواتيرهم التى سيدفعونها حتماً على يد الفدائين فلن تصييع دماء شهدائنا هدرًا .

- أصبحت يا عمى سيدفعون الثمن حتماً .

لم تعقب نور على الحوار مطلاً، زاد ذلك من حيرة يوسف وضيقه فلم يفلح الحوار في إبعاده عن متابعتها، والتفكير في رد فعلها فتنهد غيظاً فانتبه إليه العجوز الذي كان يتبعهما بانتباه شديد .

ساد صمت طويلاً أنهى جرس المنزل الذي كان بمثابة جرس إنذار بمجهول يصيب الجميع بالفزع؛ ربما كان الطارق قوات العدوان تداهم المنزل أو خبر سيء، انقض يعقوب متربقاً وهم بالتحرك ليفتح الباب ولكن يوسف نهض ومنعه بإشارة من يده منبهأً:

- لابد أن نعلم من الطارق أولاً .

اقرب يعقوب من الباب وتساءل بحذر: "من الطارق؟" .

- أنا أندرو يا سيد يعقوب .

هذا قلق يعقوب وقلق الجميع إلا يوسف الذي تسأله في نفسه عن سبب مجئه مبكراً على هذا النحو، بينما فتح يعقوب الباب تقاجأ

الجميع بالفتقى مصاباً فى ذراعه الذى كانت تنزف فأدخله يعقوب  
مسرعاً وأجلسه على الأريكة وتساءل:

– ماذى أصابك يا أندرو؟!

– اللص سرق حافظة نقودى وأصابنى بسكين حينما حاولت منعه ثم  
هرب، ووجدت نفسى قريباً من المنزل فقررت أن أجأ إليكم لأنال  
إسعافاً بسيطاً ثم أذهب إلى المستشفى.

– اطمئن يا أندرو؛ الدكتور يوسف جراح ماهر.

– جراح! يا لها من مصادفة! أشكرب الرب الذى ساقنى إليكم

اقترب يوسف منه وفحص الجرح ثم عقب قائلاً:

– لا تخف إنه جرح سطحى ولن يحتاج إلى جراحة أو خياطة.

أسرع يوسف إلى حجرة الجراحة وأحضر أدوات الإسعاف من الشاش  
والقطن والمطهر وبدأ ينظف الجرح وهو يتساءل:

– كيف أصابك؟!

– اقترب منى وأشهر سكينه فى وجهى وطلب النقود التى أحملها،  
وحينما اعترضت أصابنى بالسكين فسقطت على الأرض فأخذ حافظة  
نقودى رغمًا عنى.

– وأين سيارتاك؟

– إنها معطلة وتحتاج إلى الإصلاح .

"حفظك الله يا ولدى" . بحنان دعت سارة له .

حينما انتهى يوسف من تصميم جرحه اختلس نظرة بطرف عينه إلى نور ليعلم هل تراقبه وتنتبه إليه أم لا؟ وكم كانت دهشته حين وجدها شاردة عما يحدث، ولا تهتم لأمره أو لما حدث لهذا الفتى فازداد غيظاً لم يستطع كتمانه فضغط بقوة على أسنانه، بينما كان الطبيب العجوز يراقبه ويبتسم خلسة .

انتقض أندرو وشكر يوسف واستأند ليرحل فرافقه يعقوب إلى الخارج فانتهز العجوز الفرصة، واقترب من نور التي كانت قد فرغت من طعامها وطلب منها أن يتحدث إليها وحدها فرحت وجلست معه في على الأريكة بينما انشغلت سارة بجمع الأطباق والفرحة على وجهها فهى تدرك أن ابنتها تمر بظرف عصيب فلم تشهد حرباً من قبل، ويبدو أنها خلّفت بداخلها فلق وترقب وهذا الرجل له تأثير السحر عليها، وحينما عاد يعقوب قررت أن تأخذه إلى المطبخ مدعية أنها تود التحدث إليه في أمر هام وهى تعد القهوة .

وقف يوسف مندهشاً مما يحدث يراقب الطبيب العجوز الذى جلس بجوار نور أهو سر أم خطأ يدبر انها معاً، افتعل العجوز انتباهاه فجأة إلى وجود يوسف الذى لم يغفل عنه لحظة وقرر أن يزيد من حيرته بقوله:

– ألن تتفقد المصابين يا دكتور حتى تعد لك السيدة سارة القهوة باللبن؟

رمقه يوسف بننظره غيظ ودهشة دون تعقيب ثم انصرف غاضبًا إلى حجرة المصايبين بينما ابتسم العجوز وربت على كتف نور بحنان وعطف وهو يسأل عن حالها الذي لا يبدو على ما يُرام ولكنها طمأنته فقرر أن يعطيها جرعة أمل فقال:

- لقد نجحت بامتياز أراه ينهر قريباً

- بل أنا من ينهر ببطء يا عمى٠

- لا تيأس يا نور، لقد لمحت الغيظ على وجهه جراء تجاهلك له حتى بعد أن ضمد جرح أندرو اختلس نظرة نحوك وأغاظه غيبتك عنه٠

- لقد تعمدت ذلك لا لأجذب انتباهه ولكن لأنفادي إهانته التي لم أعد أحتملها وصارت طعناته تتال من جسدي ولكنها لا تتال من مشاعرى وهذا ما يدهشنى٠

- إنه حينما ينهرك يكون في أضعف حالاته فيتصرف على هذا النحو ليجبرك على الفرار لأنه يعجز عن مواجهتك، صدقيني يا ابنتى٠

- ربما وأنذرك أنتى سمعت اعترافه من قبل ولكن ما الفائدة مادام يصر على موقفه بهذه القوة٠

- لقد حطمت قفل سجنه وهو قفل يعلوه صدا السنين الطوال التي زادته صلابة ولكن المثابرة تولد النجاح فإياك واليأس٠

– اليأس لم يكن من مفردات حياتي ولكن إنسان يصبر ويجزع، يقوى ويفتر فلست معجزة خارقة،

– إن ما فعلته يجعلك معجزة بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وأما الفنور والجزع فاجعليهما لحظات تساورك ثم الفظيمها وعودى إلى قوتك وصمودك،

كيف؟!

– عليكِ أن تظل ملاصقة له في رعاية المرضى ولكن دون اهتمام به سيراك أمامه ولن يظفر بوجودك ، أنتِ بجواره وغائبة عنه، دعيه نهباً للحيرة حينها تظلين بداخله ولا ينساك مطلقاً،

– لا أعتقد أن ذلك يفلح معه، لن أتعامل معه وسأظل كما أنا،

– إذا تركت الميدان وألقيت سلاحك سرعان ما ينساك في خضم المهمة الشاقة التي يقوم بها والظروف التي نمر بها أيضاً،

– كيف أجرؤ على معاونته بعد ما حدث اليوم سيفهم أنها كانت حيلة لاجتنابه ولأنها لم تفلح عدت أتمسح به، لا إن كرامتي تأبى ذلك،

– سأعرض الأمر عليكِ أمامه وعليكِ أن تصرى على الرفض وسأكفل بإيقاعك،

– وماذا لو ثارت كرامته لرفضي وطلب منك ألا تلح على؟!

- لن يرفض وإن رفض سأتحدث إليه وحده، وأخبره أننى سأقنعك حتى لا يتحمل مشقة التعب وحده وقد جرب من قبل أن يتکفل بالعمل وحده وكاد يسقط من فرط الإعياء .

تنهدت نور ثم ابتسمت وهزت رأسها بالإيجاب فاحتضن رأسها في صدره وقبل جبينها .



(٥)

"لماذا رفضت معاونتي بهذا الإصرار؟!" .

بغضب تسأعل يوسف وهو يخيط جرح أحد المصايبين بينما نور  
تعاونه ،

رمقته نور بنظرة ضيق ثم أشاحت بوجهها وأجابت:

- ولديك جرأة السؤال! لم أشهد إنساناً مثلك من قبل ،

- لماذا؟!

- أنسىت ما فعلت في القبو؟! أنسىت إهاناتك بالقول والفعل؟!

- الفعل!

- نعم ألم ترفع يدك لتصفعني؟!

- أنت من استقرزني والموقف كان خطيراً.

- كم أنت شجاع وقوى! أتفقد أعصابك في الظروف الصعبة؟!

استفزعته عباراتها التي بدت مهينة فانتفخت أوداجه ولكنه تماسك حتى لا يصدر منه تصرف جديد يُحسب ضده، لقد أصبح يحسب حساب عباراته وأفعاله معها ،

- بل أنتِ من فقد أعصابه وكاد يتصرف بتھور ولو تركتك لفقدت  
عمى وربما أنتِ أيضًا .

"أكنت تخشى على من قوات العدوان؟!" . بسخرية مستفزة عقبت نور،

التزم يوسف الصمت واستمر في عمله وعندما طلب منها قليلاً من الكحول الأبيض أخبرته بنضوب الزجاجة، فطلب منها أن تحضر الزجاجة الكبيرة في الخزانة ولكنها وجدتها فارغة فكانت مفاجأة، فطلب منها قليلاً من العطر لتطهير جرح أحد المصابين مؤقتاً حتى يحضر زجاجة جديدة، وعلى الفور أحضرت له الزجاجة وقام بتطهير الجرح وتركها تكمل العناية بالمريض.

خرج يوسف فوجد مختار في ركن السفرة ينصت إلى الأخبار  
ويتناول القهوة، فاقترب يوسف منه وأخبره بنفاذ الكحول الأبيض وهو  
في حاجة ملحة إليه، فتنهى مختار وشد برهة ثم واتته فكرة، الجو مهميأ  
للقاء يجمعهما خارج هذا المنزل فنظر إلى يوسف عاقدا حاجبيه وقال:

— مارأيك أن تخرج وتشترىء من أى صيدلية بالحى .

- لا بأس وبخاصة أنتي أحتج إلى الخروج من المنزل.

و تأخذ نور معك .

اختلفت العبارة أذن يوسف فثبت مكانه ثم بدا الامتعاض على وجهه والرفض الذي صاغته عبارته الغليظة: "لن أخرج مع هذه المخلوقة الغضة".

"إذن لا تخرج إن كنت ت يريد العودة سالماً" . ببرود أجاب مختار ثم رشّف من القهوة . فرمقه يوسف بغضب شديد ودهشة وعقب:

- وما ضرورة مرافقتها لي؟!

— يمكن التذكر في ملابس أجنبية وهي أيضاً يؤهل كما ملامح كما على أنكما زوجان أجنبيان فتقنادي ارتياح الإنجليز الذين يحفرون بور سعيد بحثاً عن مورهاوس.

- يمكن التذكر في هذه الملابس والذهاب وحدى.

- وأى طريق ستسلك؟! أنت لست خبيراً بالمكان أما نور فهى تعرف  
السبيل إلى الصيدلية.

تنهد يوسف الذى شعر أن عناه للقدر لا يعني سوى مزيد من القهـر  
فاستسلم غاضباً ولا سيما أنها أشعلت غضبه لعباراتها المؤلمة.

تكر يوسف في ملابس أجنبية وارتدى قبعة شريف الأوروبية التي  
دخل بها بور سعيد وارتدت نور أيضاً قبعة نسائية كبيرة، ووضعت  
مساحيق أخفت شحوب وجهها ورداءً أنيقاً جعلها مبهراً خطف بصره  
حين رأها تحفة رائعة صاغها الله في أبدع صورة.

تقدمت نور متوجهة نحوه فحذرها مختار أن تسير معه في الطريق على هذه الهيئة من العبوس فهما زوجان متحابان فعليها أن تقتصر على الحب، وحذره من فقدان أعصابه مهما فعلت فينكشف أمر هما، كما نصحهما أن يتحدثا باللغة الإنجليزية إن تعرضا إلى توقيف من قوات العدو ان:

خرج يوسف ونور تتأطى ذراعه عملاً بنصائح العجوز وما إن  
مست ذراعها ذراعه حتى شعر بنار تشتعل بداخله إنها المرة الأولى

التي يمس امرأة ويلتصق بها هكذا فتهنّد وتتسارع تدقات قلبها، ولم تكن نور أقل منه تأثيراً ولكنها قررت أن تتنشغل بتأمل الشوارع التي افتقدها منذ وقت طويل بسبب ظروف الحرب ورغم برودة الجو،

كانت نور تشعر بسعادة بالغة فبين يوم وليلة تأبّط ذراعه بل تسير  
معه في الطريق حقاً للقدر مفاجآت لا يتصورها خيالنا ولحظات  
السعادة تُقهر الظروف الصعبة حولنا فلا نشعر بها.

Sad al-Samit Baynaha la-Nafs as-Sabib Faklahama Yixshi An Yiqtash Amrha  
لآخر، ولكن نور اضطرت أن تتحدث إليه بإرشاده إلى الطريق التي  
يجب أن يسلكها متوجهين إلى صيدليّة دكتور أرماني صديق خالها.

كان صوتها يبث بداخله شعوراً جديداً نبت من الجو المحيط بهما، فزادت ضربات قلبه التي خشى أن تصرخ وتفضح ما بداخله، أيقن الآن أنه مكابر لقد غرق في حبها ولا يوجد مبرر يجعله يحيد عن إحساسه نحوها مهما فعلت.

اقربا من الصيدلية ثم دخلا فابتسם الدكتور "كالفيان" الذى بدت ملامحه أرمينية وعمره يماثل يعقوب فعبر عن فرحته برؤية نور محيبا:

- أهلاً يا نور، كيف حالك؟

- الحمد لله يا دكتور "كالفيان" .

- وكيف حال والدتك ويعقوب فلم أره منذ مدة؟

- إنه بخير يا دكتور كيف حالك أنت؟

– نشكر الرب يا نور ونصلى لينهى هذه الأزمة،  
– بمشيئة الله تنتهي قريباً.

رمق "كالفيان" يوسف بننظرة تساؤل فطنت إليها نور فعاجلته بالرد  
قالة:

– الدكتور يوسف ابن عمى جاء من القاهرة للاطمئنان علينا ولأخذنا  
إلى القاهرة ولكننا لم نستطع بسبب ظروف الحرب،

ابتسم كالفيان محيياً:

– أهلاً وسهلاً يا دكتور يوسف،

– أهلاً بك يا دكتور نريد شراء كحول أبيض ومستلزمات إسعاف،

– لماذا؟! هل أصيب أحد بسوء؟ اللعنة على الحرب،

– نعم لقد أصيب خالي يعقوب وليس الحرب السبب بل بسبب محاولة  
أحد اللصوص سرقته وأصابه بجرح عميق،

– سأحضر لك ما تريده حالاً،

– أرجو أن يكون لديك مسكنًا قويًا، كما أرجو أن تحضر لنا كمية  
كبيرة من الكحول فظروف الحرب ربما أحوجتنا إليه،

– سأحضر لك كل ما تحتاج إليه يا دكتور،

دخل "كالفيان" مخزنًا في الداخل ليحضر لهما ما طلبه يوسف بينما  
ركز يوسف نظراته تجاه نور التي أبهرته برباطة جأشها وذكائها

وقدرتها على إقناع الصيدلي، وإخفاء الحقيقة عنه فأشاحت بوجهها  
فاحتضن رأسها بين كفيه ونظر إليها بإعجاب وقال:

ـ لماذا تتجنبين مواجهتي؟!

ـ أنا أتجنب إهانتك.

ـ أنا آسف إن كنت قد أغضبتاك.

ـ لقد اعتذرت كثيراً ولم أعد أتحمل مزيداً من الإهانات حتى وإن  
أعقبها اعتذار.

ـ أنتِ تثيرين غضبي وبعدها تغضبين من رد فعلى.

ـ لهذا قررت أن أجنبك إلى أن تنتهي الحرب وترحل.

نالت عباراتها من نفسه ومن كرامته فألجمته، وبدا الحرج على وجهه لرفضها له رغم اعتذاره ورقة حديثه فصمت وأشاح بوجهه فشعرت نور بالندم الشديد لقد تمادت في أداء دور الغاضبة الساخطة لكرامتها أكثر من اللازم، ولم تعرف كيف تعيده إليها فصمتت حتى جاء "كالفيان" ومعه علبة تحوى ما طلبها يوسف فأعطاهما له فمنه يوسف ثمن الأدوية ثم حيته نور ورحا معاً ولكنه لم يقترب منها فلم يعد يحتمل الرفض الذي أصبح إهانة طاعت كرامته، فتألمت نور لأنها حرمت نفسها السعادة التي تسللت إلى قلبها عند ذهابهما إلى الصيدلية فسرا في الطريق كأنهما غريبين إلى أن لمح يوسف على مرمى البصر دورية إنجليزية تفتش المارة وأدرك أن الخطر يحيط بهما وهو

يحمل علبة بها مستلزمات طبية فتوقف فدهشت نور التي غيبها  
الشroud عن كل ما يحدث حولها فتساءلت: "لماذا توقفت؟!" .

- هناك دورية تفتش المارة ونحن نحمل معدات طبية،

شردت نور قليلاً ثم قالت:

- تعالى معى .

- إلى أين؟!

- سنخفي ما معنا ثم نعود .

- كيف؟!

- سترى هيا .

سارت نور في شوارع جانبية إلى أن وصلت إلى عقار مرتفع  
وحيثما دخلت ساحته أخذت العلبة وأفرغت ما بها بسرعة ثم وضعـت  
الشاش داخل مشد صدرها، أما كيس القطن فخلعت قبعتها وثبتته  
بلاصق طبـي في القبعة، ثم ارتدتها وأحـكمتها على رأسها وأفرـغـت  
محتويـات حـقـيـة يـدـها التـي أـلـفتـ المسـاحـيـقـ وبـعـضـ اـحـتـيـاجـاتـ الـبـنـاتـ  
ووـضـعـتـ بـهـاـ المـسـكـنـ وزـجـاجـةـ الـكـحـولـ الأـبـيـضـ .

بينـماـ يـوسـفـ يـتـابـعـهاـ مـبـهـورـاـ بـذـكـائـهاـ وـسـرـعـةـ بـديـهـتهاـ فـرـمـقـهاـ بـنـظـرةـ  
إـعـجابـ شـجـعـتهاـ عـلـىـ مـبـادـلـتـهـ بـنـظـرةـ مـمـاثـلـةـ فـكـانـ ذـلـكـ بـمـثـابـةـ عـقدـ صـلحـ  
صـامـتـ بـيـنـهـمـاـ .

أسرعا إلى طريق العودة وعندما اقتربا من الدورية، بادرت نور الضابط الإنجليزي بابتسامة ذات مغزى خفق لها قلب الضابط بينما اشتعل يوسف غضباً، وكادت نظراته تفصح ما بنفسه ولكنه تماسك ثم حادثت نور الضابط بلهجة إنجليزية متقدة معرفة نفسها أنها من الجالية الإنجليزية، ثم أشارت إلى يوسف مدعية أنه أخوها فحياة يوسف وتحدى إليه بلهجة إنجليزية خالصة تتقنها خلال سنوات دراسته وإنجلترا فابتسم الضابط وتركهما يمران بعد أن ابتسمت له نور مرة أخرى، وغضبت على شفتيها وسط إعجاب الضباط الواقعين المأذونين بجمالها المثير ثم رحلت مع يوسف الذي أمسك يدها وشد عليها فكادت تصرخ وسارا معاً يغلف سيرهما الصمت وحينما أيقن أنهما ابتعدا توقف ورمقها بنظرة غضب وغيره فهمتها نور فصرخ قلبها فرحاً فتساءلت:

### ـ لماذا توقفت؟!

لم يجب يوسف ولكنه ظل محدقا فيها لبرهة ثم باغتها بصفعة قوية أصابتها بصدمة شديدة ففُغرت فمها ووضعت كفها على خدّها تتحسس مكان الصفعه وهي لا تكاد تصدق أن هذا جزء ما فعلته لتنقذه من أيديهم ثم انهمرت دمعة من عينها ولم تنطق فبادرها بالحديث:

ـ الوقوع في الأسر بل الموت أفضل مما فعلت لإنقاذنا

رميته بنظرة انكسار ودموعها تنهر كالمطار فاستطرد يقول:

ـ هذا أكثر الأدوار التي تتقنها بنيت حواء الغواية وها أنا أتحدث بألفاظ مهذبة.

تنهد يوسف فنظرت إليه بغضب شديد ثم قررت الرحيل وحدها،  
وتركته فأسرع وأمسك ذراعها ليمنعها من السير وحدها حيث أسرعت  
الخطا فحاولت أن تفلت يدها من يده ولكنه جذبها بقوة وقال بجسم  
وإصرار:

- إياك واستفزازى فلا أتمتع الآن بنعمة العقل ولا أهتم لما يمكن أن  
يحدث.

فاستسلمت نور وسارت معه ودمو عها تخونها ولكنها سرعان ما  
قررت التماسك حتى لا يدرك أحد ممن بالمنزل ما حدث، فجافت  
دموعها حتى وصلا إلى المنزل، ودق يوسف جرس الباب ففتح مختار  
فرحاً بعودتهما سالمين حينما رأى نور فطن إلى حدوث أمر مؤلم  
وكان على ثقة أنه من صنع يوسف.

دخل يوسف تعقبه نور فأغلق مختار الباب وانصرف يوسف غاضباً  
وتركهما وحدهما فارتمنت نور في صدر العجوز ودفت رأسها  
وانهمرت دموعها، فأجلسها وجلس مجاوراً لها مستفسراً عما حدث  
فروت له كل شيء وهي تبكي ويعلو صدرها ويهبط فتملكه الغضب  
والغيط من هذا الغليظ الذي لا يدرك شيئاً من اللياقة في التعامل مع  
النساء، وضغط على أسنانه ولكنه توقف مفكراً وعقب بلين:

- رغم غضبي مما فعله ولكن غيرته دليل قوى على حبه الشديد لك.  
- من أحب أحداً لا يؤلمه.

- لقد أخبرتك من قبل أنه لا يتقن فن التعامل مع النساء وإن كان ذلك  
مؤلماً لك فهو يحمل بين طياته تكريماً خاصاً.

– أى تكريم هذا؟!

– ألا يكفى أن تكوني أول امرأة فى حياته؟ هذا تكريم لا تطاله أى امرأة بسهولة ولا من ناسٍ ر بما يكون قد أعجب بامرأة دون أن يصرح لها، أما يوسف فلم تدخل قلبه امراة من قبل.

جفت دموع نور وشردت فى حديثه ثم عقبت:

– لا لقد انتهت قصتنا عند هذا الحد ولن أفرط فى كرامتك بعد الآن.

– لا يا ابنتى أرجوكِ، أنتِ آخرأمل لى.

– هذا قرار نهائى فلم أعد أطيق رؤيته فلينعم بسجنه بعيداً عنى.  
انتفاضت نور وتركته وصعدت إلى أعلى فبدا العجوز حزيناً ثم تهد  
وهو يهمس فى نفسه:

– إن كان ما قررته حقيقياً – رغم ارتياحي – فقد خسر يوسف السعادة،



(٦)

"لقد اغتيل رئيس المخابرات البريطانية" .

بابتسامة واسعة أشرقت وجه نبيل ألقى الخبر إلى مختار الذى كسا وجهه قناع الدهشة فعجز لسانه عن التعقيب، فابتسم نبيل واستطرد يقول: "ألم تسمعني يا عمى؟!" .

- بلى ولكن أذنائى تأبى التصديق .

- إذا كان هذا شعورك فما شعور الإنجليز تجاه ما حدث اليوم؟!

- متى حدث ذلك يا نبيل؟!

- اليوم فى التاسعة صباحاً .

- وكيف تم الإيقاع به؟!

- كان يواصل بحثه عن "مورهاوس" وحينما وصل إلى مبنى المباحث الجنائية مستقلًا سيارته لوح له فتى بورقة، فتوقف بالسيارة واقترب منه .

- ولماذا توقف؟!

- هذا ما قامت عليه الخطة أن يتوهم أن هذه الورقة بها معلومات عن مورهاوس .

- وماذا بعد؟

- اقترب الفتى منه يحمل الورقة بيده البسيطى وبيده اليمنى رغيف يحوى قنبلة يتظاهر بأكله وما إن فتح شباك السيارة حتى غافله الفتى، وألقى القنبلة داخل السيارة وفرّ كالريح وحينما تمكّن "ويليامز" من فتح باب السيارة انفجرت القنبلة فسقط خارجها غارقاً في دمائه.

- أتقول ان القنبلة كانت داخل رغيف؟!

- نعم إبداع جديد يضاف إلى إبداعات المقاومة المصرية التي جعلت من بور سعيد أيقونة الصمود في العالم بأسره ورمزاً للإباء وعصفت بكرامة "الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس" . وقد صارت إمبراطورية الظل.

- لم يمر سوى الأربعاء والخميس على خطف مورهاؤس الذي يُعد صيداً ثميناً لنا وخسارة فادحة لهم ولكن الخسارة هذه المرة أكبر .

- هذا الرجل رأس الحرية لقوات العدوان لخبرته القوية بمصر ولهجاتها ناهيك عن مكانته كرئيس للمخابرات . واليوم يوافق الرابع عشر من ديسمبر، هذه الأيام من ذلك الشهر تحمل ذكرى فاصلة في تاريخ مصر وبريطانيا .

- عم تتحدث؟

- في هذا الشهر من عام ألف وتسعمائة وأربعة عشر أعلنت بريطانيا الحماية على مصر دون مشاورة الحكومة المصرية لاستخدام موانيها

ومطاراتها فى الحرب العالمية الأولى، وتقحمها فى حرب لاناقة لها  
فيها ولا جمل .

- نعم لقد كابدت مصر ويلات الحربين العالميتين بسبب هذا الاستعمار  
البغض .

- واليوم فى نفس الشهر بعد مرور اثنين وأربعين عاماً يُختطف  
"مورهاوس" أحد ضباط الجيش البريطانى وسليل العائلة الملكية  
ويُقتل رئيس المخابرات على يد صبى لم يتجاوز السابعة عشر من  
عمره .

- هذا الرقم يذكرنى بالعام الذى أجبرت فيه بريطانيا الملك على تولى  
حزب الوفد الحكومة .

ابتسم نبيل واستطرد: ربما كان ذلك دافعاً قوياً لتدفع ثورة يوليو بعده  
بعشرة أعوام؟

- ربما يا ولدى . هذه الثورة ستكون حدّاً فاصلاً بين ماضٍ قبيحٍ نتفقاً  
بقاياه الآن، ومستقبلٌ جديدٌ نبنيه بإذن الله، وليس هذه الأرقام مصادفة  
إنما رسائل إلهية تبشرنا بالنصر القريب .

تنهد مختار وشرد قليلاً فاستطرد نبيل:

- لعلك تفكّر في رد فعلهم والذى أثق أنه سيكون الأعنف منذ بدأ  
العدوان .

نظر إليه مختار مفكراً ثم التقط غليونه من فوق السفرة وأشعله ونفث دخانه ثم عقب قائلاً:

- إن ما حدث اليوم سينتج عنه أمر من اثنين كل منهما نقىض الآخر.

- كيف؟!

- إما أن يكون شرساً عنيفاً على قدر الحدث، وإما أن يصيّبهم باللَّيَّاس لأن المقاومة مستمرة بشراسة وتصيّبهم بضربات قاتلة متتابعة دون هواة رغم وحشيتهم في مواجهة الفدائين. واستمرارهم في بور سعيد لا يعني سوى خسائر أكبر.

- وأيهما ترجح يا عمى؟

- ربما كان ترجيحي يشوبه التمني فيأتي غير موضوعي.

- إذن ترجح الأمر الثاني وأنا أشاركك الرأي.

- ما أثق به يا نبيل أننا سننتصر كما قلت لك.

- فليكن الله في عون وطننا الغالى "مصر".

- إنه يتبعها برعايته منذ وجدت على هذه الأرض والنصر حلينا بإذن الله. كيف حال سميرة؟

- إنها بخير ولكنها مصابة بداء العناد وصلابة الرأي.

- وما الضرر في ذلك؟

– لقد طلبت منها أن تتوقف عن المشاركة وتلزم المنزل الذى تقىم فيه  
فيكفى ما فعلته ولكنها صممت على الاستمرار فى رعاية المرضى  
والمشاركة فى بعض العمليات إن لزم الأمر ذلك .

– وكيف تطلب منها ذلك وبورسعيد كلها تقاوم العدون؟!

– أخشى عليها يا عمى إنها متهورة ومندفعه ،

ابتسم العجوز ونفث دخان غليونه ثم استطرد يقول:

– الأمر أكثر من ذلك .

– ماذا تقصد يا عمى؟!

– لا تراوغ يا ولدى يبدو أنك تعلقت بها .

– لا أدرى يا عمى لا أدرى حقاً .

– آن لك أن تودع "نسمة" كى تعيش فى عالم الأحياء يا حببى .

– أنت تتصحنى بما عجزت عن تحقيقه .

– ظروفنا مختلفة لقد تزوجت عممة يوسف وقضينا سنوات سعيدة، وبعد  
موتها حبانى الله يوسف فأصبح لحياته هدف أحيا من أجله، وقطعة  
منها تذكرنى بها .

– أخشى يا عمى أن أصيب سميرة بأى ألم .

– لماذا؟!

– ربما عاودنى الماضى ولم أستطع التخلص منه فأجرحها ولا أحتمل ذلك مطلقاً.

– إن كنت لا تحتمل أن تؤلمها إلى هذا الحد فإن شبح الماضى لن يعود وستنعم بسعادة مع هذه الفتاة الخلوقة التى تناول تقديرى وحبى، وهى جديرة بقلبك الحنون وشخصك الرائع.

ابتسم نبيل ثم هز رأسه مستسلماً فتنهد مختار وتحدى وهو أقرب إلى الشروق قائلاً:

– إن صديقك قد غرق فى حب نور واعترف ولكنه عاد إلى عناده وكبره.

– ماذا؟! متى حدث ذلك؟

– اعترف لنور حينما أصيّبت فى رأسها وهى بين الإلفاقة والغيبة وسرعان ما تراجع.

"وهل من الرجال أن يلعق الرجل كلامه" . بابتسامة ساخرة عقب نبيل.

– هذا ما حدث.

ـ دعه يا عمى حتى تراه يجثو على ركبتيه ملتمساً حبها والارتباط بها.

- أدعوا الله بذلك لقد أصبحت ولی أمر نور لا ولی أمره هو .

- كم أنت ممحظوظة يا نور بما نلت من حب عمي ومميزة أيضًا بما فعلت بيوسف .

التفتا سوياً إلى وقع أقدام على السلم فلomba يوسف هابطاً عابساً وحينما رأى نبيل أسرع الخطأ واقرب من نبيل واحتضنه مبتسمًا:

- الحمد لله أنك بخير يا صديقي .

- الحمد لله الذي يرعانا جميعاً .

- هل من جديد يا نبيل؟

"دخل المنزل أم خارجه؟" ، بابتسمة ساخرة مستفرزة أجاب نبيل .

فرمقه يوسف بدهشة لأسلوبه الساخر وجهله بما يقصد فزاده غيظاً فقال:

- دخل المنزل !

- نعم إن أخبرتني بجديد دخل المنزل أخبرك بجديد خارجه .

- لقد عدت إلى سخافاتك القديمة لا أريد أن أعلم منك شيئاً، المذيع أفضل منك .

- المذيع ليس لديه تفاصيل الأخبار التي لدىَ، ولكن احتراماً لرغباتك سألزم الصمت .

رمه نبيل بنظرة مستقرة ثم أحدث صفيرًا مستقرًا وهو يتأمل يوسف  
بنظرات مبهمة لا يفهمها ثم تركه وانصرف، فاستشاط يوسف غضبًا  
ثم نظر إلى مختار الذي تأمله قليلاً ثم تركه ببرود وانصرف دون  
تعقيب.

جلس يوسف على أحد مقاعد السفرة يفكر في عبارات نبيل ونظراته  
الساخنة الغامضة متسائلًا ماذا يعني بكلامه؟ هل روى له مختار  
شيئاً مما حدث بينه وبين نور؟ وإن كان فماذا قال له ليسخر منه  
هكذا؟!

انتبه يوسف إلى هبوط نور من أعلى السلم تحمل رواية ثم جلست  
في ركن الأنترية ولم تهتم بوجوده أو تغيره نظرة.

كان يوسف قد تجاوز غضبه مما فعلته، وأثار حفيظته وبدأ يشعر  
بالندم بسبب تهوره معها ولكنه لم يكن يدرك كيف يعتذر هذه المرة؛  
تكررت اعتذاراته حتى صارت بلا معنى ولا أثر كما أنه هذه المرة قد  
ارتكب جرمًا جسيماً قولهً وفعلاً يصعب الصفح عنه فجلس يفكر ماذا  
يفعل.

ظهرت سارة من جانب المطبخ وأقبلت على نور مبتسمة وجلست  
إلى جوارها ولفت ذراعها حول نور وقبلت رأسها قائلة بحنان:

ـ ألا تريحي عينيك قليلاً؟!

ـ القراء متعتى ولا يوجد ما يشغلنى سواها وسوى رعاية الجرحى.

- كما تحبين ولكن هل يمكنك ترك الرواية وإعداد الشاي بالريحان .

- كما تشاهين يا أمى ساذهب إلى الحديقة لإحضار بعض أعواد  
الريحان .

- حفظك الله لى وسأصعد أنا لأوقف خالك فقد أسلمه السهر إلى التأخر  
فى النوم .

- اتركيه يرتاح قليلاً .

- لو تأخر فى النوم أكثر من ذلك سيصاب بألم فى رأسه كالعادة .

تركت سارة نور وانصرفت بينما تركت نور الرواية على المنضدة  
وخرجت إلى الحديقة ويوسف مازال متثيراً ماذا يفعل هل يحاول  
مصالحتها أم يتتجاهل الأمر؟ وحسم أمره فلم يستطع تحمل تجاهلها  
أكثر من ذلك ورغم جهله كيف سيعذر لها إلا أنه فز مسرعاً إلى  
الحديقة فوجدها تقطف عيدان الريحان، فانحنى وأمسك يدها فارتعشت  
ثم التفت فرأته وسريعاً أفلنت يدها من يده وأشارت بوجهها بعيداً  
وانقضت واقفة استعداداً إلى الرحيل فنهض وأوقفها وأدار ذقنها نحو  
وجهه، فأفلنتها من يده وأشارت بوجهها فقال:

- نور أعلم أن جميع عبارات الاعتذار بكل اللغات لن تمحو ما فعلت .

- ولكنك اعتدت ذلك ولا تعلم كيف تتحكم فى انفعالاتك لست مخطئاً بل  
أنا المخطئة لأننى لم أفهم ذلك وأنا الآن أعيه جيداً وأنصرف على  
أساسه .

- ماذا تقصدين؟

- سأتجنباك حتى تنتهي الحرب صيانة لكرامتى .

- أرجوكِ اصفحى عنى واغفرى لى فقد عهنتك متسامحة ولا أريد  
لطبيعتك النقية أن تُلوث ،

- صدقًا أريدهك أن تعلم أنك إنسان قوى استطعت أن تبدل قناعتك  
بالتسامح عجزت كل المأسى التي مررتُ بها وكل من آذونى أن يفعلوا  
ذلك ،

- أنتِ تؤلميني بما تقولين، هذا التسامح أجمل ما يزيينك ولا أريدهك ان  
تخلّى عنه ،

- إنه الباب الذي تتسلل منه إهاناتك الطاعنة، لم أدرك مطلقاً في  
الماضى أن الكراهية درع يحمينا من طعنات الآخرين ولكنك أفلحت  
في ذلك ،

- الكراهية تقتل صاحبها ولا تحميه كما تتصورين أنا أكثر من يعي  
ذلك أرجوكِ لا تجعليني أحياناً بتائيب الضمير على ما فعلتُ بكِ ،

- لا تؤنب نفسك لقد تعلمت منك درس الحياة ،

- بل الموت سامحيني أرجوكِ وأتعهد لك أننى ،

نقاطعه نور: "كفى لا أريد أن أسمع منك شيئاً" .

أمسك يوسف ذراعها وأدار وجهها نحوه فحاولت إفلات ذراعها من يده ولكن قبضته كانت قوية فعجزت عن التخلص منه، فنظر إليها وقد ترقرقت دموعة بعينيه، فتأثرت نور ولكنها تمسكت على الفور فاستعطفها قائلاً:

– أرجوك يا نور أنا

فجأة كسا الرعب والفرز ملامح يوسف فألقاها بعيداً فكادت تسقط لولا تمسكها في حين استقرت رصاصة في صدر يوسف فسقط غارقاً في دمائه فهرعت نحوه صارخة:

– يوسف يوسف حبيبي.

ظهر من بعيد شريف عائداً إلى المنزل وقد حثه صوت الرصاص على الإسراع، فلمح شخصاً غريباً ممسكاً مسدساً فأسرع خلفه وأمسك به، كان يرتدي قبعة كبيرة تخفى وجهه وحينما أزال شريف القبعة عن رأسه كانت المفاجأة "أندرو".



(٧)

"الحمد لله تم انتزاع الرصاصه".

بعينين مقرحتين من البكاء والسهر وبصوت مخنوق أجاب نبيل على سؤال مختار عن حال يوسف الذى نزف دمًا كثيرًا، واضطر شريف ونبيل إلى إسعافه بطريقة بدائية بتсхين سكين وانتزاع الرصاصه به من صدر يوسف، وساعدتهم نور فى تضميد الجرح ومتابعته وكان أثناء ذلك يهدى بحبه لها وخشيته أن يصيبها الأذى . لقد أدركت أنه ألقى بها بعيداً ليتلقى الرصاصه بدلاً منها وكان ذلك كافياً لدرك مكانتها بقلبه .

جلست نور بجواره لا تبرح مكانها منتحبة حزينة لما أصابه وللألم الشديد الذى كابده جراء إخراج الرصاصه فزادها ذلك ألمًا وشعورًا بالذنب لما فعلته معه قبل أن تستقر الرصاصه بصدره ولم يجد من يسعفه إلا بطريقه بدائية يستخدمها سكان الجبال .

لم يتحمل العجوز رؤية يوسف أثناء انتزاع الرصاصه من صدره ولكن بعد الانتهاء من ذلك دخل ليتسائل وحينما طمأنه نبيل ألقى نظرة على قرة عينه ووحيده ثم قبل جبينه وربت على كتف نور قائلاً:

- ألا تستريحين يا ابنتى قليلاً؟

- لا يا عمى، من أين لى بالراحة؟!

- ولكنك ستهلكين من فرط التعب وقلة النوم .

- سأهلك إن لم يفق؛ الرعب يكاد يقتلني لمجرد التفكير في عاقبة  
سيئة، لا أحتمل.

- كما تحبين يا حبيبتي رعاكما الله.

ربت نبيل على كتف مختار واصطحبه خارج الحجرة ثم هبطا إلى  
الطبق السفلي وحينما رأهما يعقوب وسارة انتفضا ليطمئنوا عليه،  
فأخبرهما نبيل أن حالته مستقرة ثم جلس الجميع وبادر يعقوب بالحديث  
الذى وجهه إلى نبيل بغضب:

- سيسبيب الشلل عقلى لما حدث لماذا فعل أندرو ذلك؟

- اسمه ليس أندرو بل "إيزاك حاييم".

- إيزاك حاييم! أهو يهودي؟!

- نعم يا عمى ومن أصول شامية.

- ولماذا فعل ذلك؟!

- ينبغي أن تعرف قصته يا عمى لدرك الأسباب.

- وهل علمت منه كل شيء؟

- نعم إنه يفور ذكاء وجنباً في آن واحد.

- كيف يا دكتور نبيل؟!

- ذكاوه دفعه إلى أفعال ستعلمونها الآن وبنه هو السبيل إلى حمله على الاعتراف، لقد هدته بتسليمه إلى القيادة يفعلون به ما يشاءون فاعترف بكل شئ ووعلته بإطلاق سراحه بمجرد التثبت من صدقه.

- وهل صدقك؟

- نعم لأننى أخبرته أننى لن أحربه إلا بعد دفع مبلغ كبير كتعويض ليوسف.

- وما قصته يا ولدى؟

- لقد نشأ فى القاهرة حيث كان والده يعمل بمكتب البريد وحينما أعلن عن قيام دولة إسرائيل سافر ومعه أسرته لأنه كان من أشد المتهمين للأمر الذى غذى ابنه به وشارك فى الحرب ضد العرب فى عام ألف وتسعمائة وثمانية وأربعين والتى يسمونها "حرب التحرير".

- حرب التحرير! لم أشهد تزبيفا فجأا على هذا النحو فى حياتى.

- أصبحت يا عمي وأزيفك من أكاذيبهم أكذوبة أخرى إنهم يطلقون على إعلان هذا الكيان الكاذب وثيقة الاستقلال هل رأيت افتراً مثل هذا من قبل؟!

- لا يا ولدى، ثم ماذا؟

- قُتل والده في الحرب ولم يستطع هو والدته تحمل مشاق الحياة هناك فقررا العودة إلى مصر مؤقتاً حتى يتمكنا من جمع مال يستطيعان به إقامة مشروع هناك.

"لم أشهد جحوداً مثل ذلك من قبل" . بازدراة تحدث يعقوب متذمراً رعاية مصر له ولأسرته بعد رحيلهما عن أرضهما، وكيف جاد ابنه بنفسه فداءً للأرض التي احتضنهم .

- وماذا حدث بعد ذلك يا نبيل؟

- عمل في أحد محلات اليهود لبيع القماش حتى فهم أصول التجارة، ثم قرر خوض التجربة بنفسه بشراء بضائع وبيعها لحسابه في المنازل والمحلات الصغيرة، ونجح في جمع المال ولكنه بعد ذلك استطاع العمل في قناة السويس بواسطة صديق له .

- كيف قبل في القناة وهو بلا شهادة ولا مؤهلات لذلك يا دكتور؟

- كان يذاكر أثناء العمل وحصل على دبلوم التجارة كما أجاد اللغة الإنجليزية .

- إنه فذ بالفعل .

- نعم ، وبعد أن عمل بالقناة وجد أنها نفوذ قوى للإنجليز سيعيدهم إلى السيطرة على مصر ويقضى على حكم الجيش الذي برأه مهدداً لإسرائيل فقرر البقاء إلى أن ينتهي هذا الأمر .

– القناة بالفعل كانت بمثابة دولة داخل الدولة وحقوق العمال المصريين  
كانت مُهدرة يا ولدى .

– بالفعل يا عمى وكان هذا يسعده لقد أخبرنى بذلك ووجهه متھل  
وسرعان ما انقلب إلى عبوس حينما أخبرنى عن شعوره تجاه التأمين  
وخيبة الأمل التي أصابته لذلك .

– ولكن لماذا تقرب من ولدى يا دكتور نبيل؟

– اعتاد قضاء ليلة السبت في ملهي "بالاس" الذي اعتاد دانيال أيضًا  
الذهاب إليه وكان إيزاك يسمعه وهو يتحدث بحماس عن حكومة  
الثورة، وتأييده لها وقد نال ذلك من نفسه كما أصابته الدهشة حينما علم  
أنه ليس من أصول مصرية، وبعد هجوم الإسرائيليين على سيناء قرر  
فورًا التقرب منه فكل من يعرفهم أجانب لن يستفيد منهم بشئ .

– مازلت لا أفهم ماذا أراد من ولدى؟

– لقد أدرك بذكائه أن دانيال سيكون ضمن المقاومة لا محالة فقرر  
التعرف عليه من خلال الخدعة التي صنعوا، وأنذكر الآن قول يوسف:

"أن الأجانب لا يشغلون إلا بأمورهم ولا ينتفضون لنصرة أحد" .

– لقد فهم هذا الغريب ولدى أكثر منى .

– ربما لم تتحدث معه في شئون السياسة من قبل؟

- هو ذاك يا دكتور نبيل لم يكن يشغلني سوى حلمي أنا ولم أعش في أحلام أولادي فليسأله رب على ما فعلت . وماذا حدث بعد ذلك؟

- كُوئن جماعة مع عدد من اليهود الذين تعرف عليهم من جنسيات مختلفة هنا، ولديهم نفس الحلم المجنون، وقرروا قتل الفدائيين دون أن ينضموا إلى إنجلترا أو فرنسا .

- لماذا؟! أليست إنجلترا هي الراعي الرسمي لهذا الحلم؟!

- بلـ ولكنـ رفضـ التـبعـيـةـ لأـحـدـ وـتـمـنـىـ أـنـ تـخـلـصـ إـسـرـائـيلـ مـنـهـ وـتـسـقـلـ وـتـسـوـدـ الـعـالـمـ بـأـسـرـهـ .

"هو متمرد إذن وصاحب كرامة!" . بدءهـةـ عـبـرـتـ سـارـةـ .

- لا كرامة للص ولـكنـ الحقـيرـ يـفـتـعلـ الضـعـفـ حتـىـ يـتـمـكـنـ فـنـرـىـ منهـ الأـعـجـيبـ . وهـنـاكـ سـبـبـ آخـرـ لـقدـ خـشـىـ أـنـ يـنـكـشـفـ أـمـرـهـ وبـخـاصـةـ أـنـهـ لنـ يـعـلـمـ مـنـ تـلـقاءـ نـفـسـهـ بلـ سـيـكـونـ مـكـبـلاـ بأـمـرـ أـنـاسـ لـاـ يـبـحـثـونـ إـلـاـ عنـ مـصـلـحـتـهـمـ فـقـطـ .

اقربـ يـعـقـوبـ مـنـ نـبـيلـ وـسـأـلـهـ بـتـرـقـبـ كـاتـمـاـغـضـبـاـ شـدـيـداـ: "أـهـذـاـ يـعـنـىـ أـنـهـ قـتـلـ وـلـدـىـ؟ـ!" .

صـمتـ نـبـيلـ فـأـعـادـ يـعـقـوبـ السـؤـالـ فـتـنـهـدـ نـبـيلـ ثـمـ أـوـمـأـ بـرـأسـهـ بـالـإـيجـابـ واستـطـرـدـ يـقـولـ:

"لقد تبعنا في تلك الليلة وأطلق الرصاص عليه فأصابه وتسبب ذلك في انتفاض الانجليز الذين أطلقوا الرصاص هم أيضاً فارتمى سامر على دانيال لفدائه فُقتل" .

نزل الخبر على يعقوب كالصاعقة فغاب عن الوعي ثوانٍ قليلة ثم عقب:

ـ لقد استجاب الرب لصلواتي وظفرت بقاتل ولدى .

هم يعقوب بالتحرك نحو القبو حيث حبس نبيل أندرؤ، فلو قفه نبيل ثم نهض مختار وسارة وأمسكا به فحاول التملص منهم جمِيعاً صارخاً:

ـ دعوني؛ أنا أعيش لتلك اللحظة لثار ولدى وقرة عيني .

ـ لا يا سيد يعقوب أرجوك؛ إننا نحتاج إليه حياً أنا على يقين أن لديه معلومات أخرى يخفيها ولست على ثقة بأسماء من اعترف عليهم لابد أن أسلمه إلى القيادة .

ـ أنا لا يعنيني كل هذا ما يعنينى ثارى وحسب .

ـ تذكر يا سيد يعقوب أن ولدك جاد بنفسه من أجل مصر، فإذا تركته حياً سنثار لشهادتنا جمِيعاً وإن قتنته ستثار لولدك ولكنك ستخونه .

كان وقع كلمات مختار على يعقوب مؤثراً فهداً قليلاً ثم عقب:

ـ ربما كنت محقاً يا سيد مختار ولكن ما تطلبه عصيب على نفسي .

"اطلب من الله أن يلهمك الصبر على ما أصابك" ، بإشفاق تحدثت سارة لتهئة يعقوب ،

صمت يعقوب واحتبس دموعه تسللت إلى عينيه فأمسك مختار بذراعه وأجلسه إلى جواره بينما جلس نبيل مواجهًا لهما، وقد بدأ يفكر كيف يغير الأمر الذي يشغل يعقوب فقال:

- لم يسألني أحد لماذا حاول إيزاك قتل يوسف ولم يره مع الفدائين خارج المنزل؟

- تقصد "نور" ، يا دكتور نبيل ،

- لا يا سيدتي ، لقد حاول قتلها حينما لمحته بالحديقة معتقدًا أنها رأته وعرفته ولكن كان هدفه هذه المرة يوسف الذي توهم أنه أراد قتل نور حينما رأه فأطاح بها بعيدًا ،

"كان يوسف هدفه لماذا؟!" ، بدهشة عبرت سارة

- لقد لمحنا نحمل المصائب وندخل بهم فأدرك أن هناك طيبًا بالمنزل ، ولعلكما تذكريان حين خدعننا بحديثه عن اللص الذي أصابه في ذراعه كانت هذه حيلة ليعرف من هذا الطبيب ،

- فلتحل عليه لعنة الرب جزاء ما اقترفه من جرائم ،

أطرق نبيل برأسه قليلاً متنهداً بغضب ثم رفعها فبدا الذعر على وجهه ثم صرخ:

- مَاذَا فَعَلْتُ يَا شَرِيف؟

انتبه الجميع على مشهد مروع كان شريف قادماً من ناحية المطبخ  
ملطخة ملابسه بالدماء يمسك بيده كفّا بشريه،

فصرخ نبيل:

- مَاذَا فَعَلْتُ؟! هَلْ قَتَلْتَهُ؟!

- لا ولكن عجزت أن أمنع نفسي من قطع يده التي قتلت دانيال والكثير  
من الفدائين وحاول قتل اختي الوحيدة والدكتور يوسف.

- ولكن النزيف سيقضي عليه.

- لا لقد غمست ذراعه في زيت مغلى أحضرته من المطبخ إمعاناً في  
الانتقام وليقف النزيف.

كست الدهشة وجه مختار الذي اقترب ونظر إلى وجه شريف  
المنهك تماماً تخرج العبارات منه بصعوبة ذاهلاً بما حوله فتساءل  
مختار:

- من أين تسللت إليك هذه الوحشية يا ولدي كنت رقيق القلب تفيض  
حناناً؟

- ألا تدرى من أين؟! من كل واجهناه منذ اندلعت الحرب ولا أريد  
الخوض فيه.

أشار شريف إلى نبيل بالكف وأعطاه له وقال:

ـ ادفنه فى الحديقة فقدمى لا تقادان تحملانى .

أخذها نبيل ثم حاول شريف أن يتحرك فسقط مغشيا عليه .

أسرع يعقوب ومحتر يحملان شريف، بينما ذهب نبيل إلى الحديقة  
ليدفن الكف . وكان ذلك كان إذانا بطي صفحة العداون الذى بدأ  
تنساقط أجنحته فىنهار بعدها صريرعا .



(٨)

"لا ترحل يا يوسف وتركتنى وحيداً يضئنى فراقك".

انتقض مختار مذعوراً يلهم فزعاً ويتألمت حوله فلم تبصر عيناه  
سوى يوسف رافقاً فاقرب منه في حذر، وأمساك يده ليقيس النبض  
فانبسط وجهه وتنهيدة ارتياح وعادت دقات قلبه اللاهثة إلى  
سرعتها المعتادة فتركه.

ارتدى مختار على كرسي أمام السرير والذى قضى عليه ليلته يجافيه  
النوم حتى اختلاست عيناه ثوان قليلة غفا فيها، فكان هذا المنام المفرغ  
وربما الكابوس الذى أيقظه بل هو فى حقيقة الأمر وساوس تتصارع  
فى نفسه رعباً على ولد الحبيب الذى أفاق ثوان قليلة، ثم أعقبها  
الغياب التام عن الحياة، ولكن هذه الإلفاقة غدت الأمل بداخل مختار  
ونور التى امتنعت أخيراً إلى أمر مختار بالحصول على قسط من  
الراحة بينما يقوم بمتابعة يوسف والشهر بجواره.

نهض مختار واتجه إلى الشرفة وفتح النافذة ناظراً إلى الفضاء الذى  
رغم انبلاج الصبح بدت الشمس تجافيه وتنحن عليه بضوئها، ودفتها  
فشعر مختار ببرودة شديدة وبثت العيوب فى نفسه قشعريرة تشاؤم  
فأغلق النافذة، ونظر إلى يوسف ثم أخذ نفساً عميقاً بث فى نفسه الأمل  
ثم قرر أن يعود إلى جوار يوسف يتبعه في ترقب وأمل كبير في الله.

طرقت نور الباب فأذن لها مختار بالدخول فأسرعت نحو يوسف  
تنساع دقات قلبها فلماً عليه ثم رمت مختار بنظرة تساؤل يخالطها  
خوف فتهجد مختار وأجاب:

- كما هو منذ تركته يا نور .

- لم أستطع النوم لقد غفوت برهة أيقظنى منها كابوس مفزע جعلنى  
أكره النوم .

- وأنا كذلك يا ابنتى إنها الوساوس تثير عقلنا الباطن، لا تهتمى بذلك  
فرحمة الله واسعة ،

- ونعم بالله يا عمى .

انتبهت نور إلى صوت يوسف ثم حركة رأسه البطيئة وهو يتاوه من  
جراء الألم ثم بدأ يهدى بكلمات غير مترابطة تماماً، فذكر أمه ثم عمه  
ونبيل وعمه، حتى استقر عند اسمها الذى تكرر على لسانه كثيراً ثم بدأ  
يحدثها دون أن يفتح عينيه قائلاً:

"نور سامحينى أرجوك فلا حياة لى بدونك".

سالت دموع نوروهى تجيب:

"لم أغضب منك لأسامحك، لقد كذبت عليك وندمت على ذلك".

تهجد العجوز واستسلم إلى نوبة بكاء شديدة وهو يعقب قائلاً:

"السعادة تطرق بابك يا ولدى فلا تردها تمسك بالحياة يا حبيبي" .

فتح يوسف عينيه بصعوبة وضعف شديدين فمالت رأسه يميناً ويساراً كمن لعبت برأسه الخمر فأفقدته توازنه، فصار يترنح كذبيحة تتنمى الخلاص فاهتز قلب نور حسب حركة رأسه فبدا قلبها وكأنه اخترق جسد يوسف وصار قطعة منه إن أفاق أو غاب عن الوعي .

"نور هل أنتِ بخير؟" ، بضعف شديد تسأله يوسف ،

- لا الألم والحسرة يفتكان بي ،

- الألم! هل أصابك مكروه؟

- وأى مكروه أكثر مما أصابك؟

- أنا بخير مادمتِ بخير يا نور حياتي التي انقشع ظلامها بك ،

- حقاً!

- نعم فليس هناك أصدق من الدماء تعبرأ عن حبى ولا أغلى منها  
مهرًا لك ،

- مهرًا!

- نعم لا أحتمل الحياة بدونك؛ أدركت ذلك حين رأيتاك تقتربين من الموت ،

- لقد بعثت الحياة في نفسى الآن بكلماتك الرقيقة ،

يطرق يعقوب ونبيل الباب ثم يدخلان فيتهم وجه نبيل ويبتسم  
يعقوب حينما يشاهدان يوسف وقد أفاق من غيبوبته فيقترب نبيل ويقبل  
جبينه ويقول:

- حمداً لله على سلامتك يا صديق عمرى .
- سلمت من كل سوء يا نبيل .
- نشكر رب الذى استجاب لصلواتنا ونجات يا دكتور يوسف .
- الحمد لله يا سيد يعقوب .
- نور لم تحصل على قسط كافٍ من الراحة يا حبيبى .
- لقد نلت ما أحتاج من الراحة ولا بد من تطهير الجرح وتبديل الشاش  
والقطن .
- كما تثنين ولكن بعد أن تفرغى من ذلك تعالى لتناولى الإفطار ،  
والدكتك تعد الآن وأرجو أن ينضم إلينا الدكتور مختار فلم يأكل شيئاً  
منذ أمس .
- ليس لدى شهية يا سيد يعقوب .
- لا يا عمى أرجوك لقد تعافت والحمد لله عليك أن تستريح وتأكل  
ونور أيضاً .
- لا تجهد نفسك يا يوسف فأنا رشيد أدرك مصلحتى جيداً وكذلك نور .

اقرب نبيل من مختار وقبل رأسه ثم ربت على كتفه معقباً:

– أرجوك يا عمى أن تنضم إلينا لقد شحب وجهك وأخشى عليك من  
قلة الطعام والإجهاد ،

يهز العجوز رأسه ثم ينهض ويصحبه نبيل ويعقوب ويخرجون فتبتسم  
نور متأملة يوسف بننظرات تكشف ما بنفسها، ثم تبدأ في تغيير الشاش  
والقطن وتطهير الجرح وحينما تنتهي تجلس على حافة الفراش  
مجاورة له وتقول:

– مازلت لا أصدق ما فعلت من أجلى وأعده أujeوبة الأعجيب ،

– أنتِ الأujeوبة الحقيقة يا نور وما فعلته من أجلك تعلمته منكِ أنتِ  
الشمس التي نشرت نورها في حياتي فشققت ظلامها ،

– لا تعلم كيف يخفق قلبي لكلماتك فرحاً وفلاقاً ،

– فلما!

– نعم أخشى أن يكون ما بقلبك مثل جرحك مر هون بالوقت ثم تُشفى  
وتتركني فريسة الحزن ،

– ألهم هذا الحد فقدت الثقة بي ،

– من كثرة ما مر بي من صعود الأمل إلى عنان السماء ثم سقوطه في  
هوة سحيقة لا قرار لها ،

– اغفرى لى فلست أقل منك معاناة وصراغاً لنفسى ولكنك ربحت فى النهاية وربحت معك.

– لابد أن تأكل شيئاً حتى تقاوم الجرح.

– لن أتناول شيئاً إلا إذا أكلت أنت أو لا.

– كما تحب سأتناول إفطارى سريعاً وأعد لك طعاماً خفيفاً.

نهضت نور وهبطت السلم حيث الجميع يتناولون الإفطار حينما رأتها سارة فرحت وتهلل وجهها لأن نور التي لم تنعم بالنوم أو الطعام أجرت كلمات يوسف الدماء في وجهها، فبدت رائعة الجمال وبصحة موفورة مبعثها الحقيقي السعادة التي تبث طاقة تحرك الجبال.

جلست نور لتناول الطعام قتابع الجميع الحوار الدائر حول الحرب فتساءلت نور:

– هل هناك جديد؟

– نعم قامت قوات الصاعقة بعملية كبيرة في أحد معسكرات الإنجليز وكبدتهم خسائر كبيرة.

– فليحفظ الله الفدائين ولويكتب النصر لمصر يا دكتور نبيل.

– إن الخسائر المتتابعة ستُجبرهم على الاستسلام.

– لقد كبدونا هم أيضاً خسائر لا حصر لها.

- الحرب يخسر فيها كلا الفريقين يا نور المنتصر والمهزوم ولكن  
برحيلهم سنشعر أن شهداً إنا لم تسل دمائهم هدراً.

- إنهم يجاورون الرب يا دكتور نبيل فالشهداء لا تذهب دمائهم هدراً  
حتى لو خسرنا المعركة.

- صدق يا سيد يعقوب ولكن نبيل يتحدث عن شعورنا نحن فرحيلهم  
يؤلمنا والنصر يخفف وطأة الألم بداخلنا.

- كأنك تصف ما بداخلى يا سيد مختار.

"فلتهدا روح دانيال وسامر وشهادونا الأبرار يا يعقوب". بحزن عقبت  
سارة شاردة.

- لماذا تلتزم الصمت يا شريف؟

- لاشئ يا نور.

- هل أنت بخير يا حبيبى.

- مادمت بخير فأنا أيضًا بخير.

- سلمت لى.

ابتسم يعقوب ثم عقب قائلاً: "ولإيرينى أيضًا".

رمى شريف يعقوب بنظرة دهشة لأنما يسمع اسم إيرينى لأول مرة  
بينما هز يعقوب رأسه بالإيجاب مذكرة شريف بإيرينى التي تنتظره،

ولم يفعل ذلك إلا ليوقظه مما هو فيه وما فعل أمس وكان مناقضاً  
لطبيعته وأسلمه إلى ذهول وانزواء أنساه ما حوله، لقد بلغ شريف من  
نفس يعقوب مكانة جعلته يحل محل ولده الوحيد لما فعل،

كل منا بداخله جراح أحدثها أناس أصابونا، وتوهمنا أنها لن تشفى  
ولكن الإنسان صانع السهم والدواء معًا يصيب ويشفي، يؤلم ويداوي،  
هذا ما تعلمته يعقوب ويوسف أيضًا،



(٩)

"الجميع الآن يتربّب وصول الرئيس" .

هتف المذيع من خلال المذيع معلناً اقتراب وصول الرئيس "جمال عبد الناصر" إلى بورسعيد بعد أن تسلّمت قوات البوليس المصري وبلوكتات النظام ببورسعيد الباسلة ورحل آخر جندي بريطاني يوم الأحد الموافق الثالث والعشرين من ديسمبر .

في اليوم التالي قرر الرئيس "جمال عبد الناصر" دخول مدينة بورسعيد ليحفل مع أبطالها بالنصر على قوى الشر التي أرادت بوطننا هلاكاً فتجرّعته ورحلت بعارها .

ظهر البشر والسرور على وجه شريف ومختار بينما بكى يعقوب وهو يتذكر ولده وقرة عينه فاقرب شريف منه وقال:

- إنها لحظة الفرح والسرور لقد حققت مصر ما أرادوه ودفعوا حياتهم ثمناً له .

- لا تتصرّر أنها دموع حزن بل فرح وسعادة، وإن كنت أتألم لفراقه فأنا أتصوره الآن وهو يهتف فرحاً بالنصر ووصول الرئيس الذي احتل مكانة كبيرة بنفسه كانت تثير دهشتى .

- إذن فالسعادة بسماتك لا بعيراتك التي تذرّفها الآن .

تقدّمت سارة تحمل صينية عليها أطباق الحلوى ووضعتها على المائدة وهي تبتسم وتقول:

"ما أحمل السعادة التي ترفرف علينا الآن، لا حرمنا الله منها ولتهدا  
روح كل شهيد اليوم وذويه أيضاً بالنصر الذي تعلو له هامة مصر  
وتتحنى هامات المعتدين".

- لقد بُترت هاماتهم.

- أصبت يا شريف لقد استطاع الأحرار بتر رءوسهم ودفن غطريتهم  
ولكن أين ولدى وابنتي أيضاً.

ابتسمت سارة ثم أجابت:

- إنهم بالحديقة منذ نهض يوسف من فراشه ولقد طلب مني الزواج  
منها.

- أحقاً يا سيدتي؟! أحقاً ما تقولين؟!

- نعم ولقد وافقت بالطبع على زواج ابنتي من البطل الذي افتداها بدمه  
ووافقت نور فوراً.

كان يوسف قد تجاوز محنته بإرادة قوية بيتها فيه نور، وحينما تمكن  
من هبوط السلم قرر أن يتجه معها إلى الحديقة لينعم بالحديث معها  
وحدهما بعيداً عن صخب السياسة، والناس وكان الحديقة هي جنة آدم  
وحواء التي تخلو لهما وحدهما لا يز عجمهما أحد فيها، وحينما دخل  
الحديقة جلست نور على الأرجوحة كما طلب منها يوسف تستند  
رأسها إلى مسندها وهو يهزها بخفة ويتأملها وكأنه يراها لأول مرة ،  
صمت يوسف برقة متأنلاً لها فابتسمت وقالت:

- فيم شرودك وأنت معى؟

- فيكِ يا نور القلب والحياة .
- سيتوقف قلبي لعباراتك التي لم تألفها أذناني ولم تطرق قلبي من قبل .
- لقد أدركتُ أن لدى فيض من المشاعر حجزه سد الكراهة والحقد فجعله حملاً ثقيلاً وحينما بذلتَ لأجلك بدأت أشعر بخفة وسعادة لم أعرفها من قبل .
- الكراهة إحساس نشأ بداخلك لأن من أحببتم جدوك، فتحولت مشاعر الحب إلى نقاصها وأنت فيحقيقة الأمر فيض من المشاعر لمساعدتك الفقراء ولكنك لم تفهم نفسك .
- أنت تعرفي نفسى أكثر مني .
- لأنك كنت محور اهتمامى وتفكيرى .
- هذا هو بيت القصيدة أنتِ يا نور، أنتِ من هدم السد لظهور مشاعرى الحقيقة وأرى نفسى جيداً لقد تصورت نفسى يوماً ما كائناً مفترساً بحسب تعبير نبيل صديقى .
- برغم وصفه القاسى إلا أنه يدل على حبه لك ربما أراد استفزازك إشفاقاً عليك من نفسك وما تفعله بك ، ولكن ثق أنك ستظل بقلبي إلى الأبد ولا يتسلل إليك ذرة من ريب في ذلك .
- ظهر نبيل متقدماً من ناحية باب المنزل الخارجى واتجه نحوهما مبتسمًا وقال :
- ما أجملكمَا! لا أريد ان أكون كهادم اللذات .

- أحسنت وصفاً يا صديقى العزيز .
- لدى خبر سار لكما .
- ما هو يا نبيل؟
- وصل الرئيس الآن إلى بور سعيد والناس يلتحمون به فى مشهد يشبه يوم الحشر .
- الحشر! من أين لك بهذه الكلمة أيها اليسارى .
- أقسم لولا وجود نور لسدت إليك لكتمة أفقدتك جميع أسنانك والأمل فى الزواج بهذه الجميلة .
- ضحك نور ثم انقضت وقالت:
- لقد أسعدتنا بهذا الخبر إن وصول الرئيس يضع اللمسات النهائية للنصر .
- نعم يا نور لو شاهدت فرحة الناس فى الشوارع لأدركت حجم الحسرة التى يعانيها جنود الشر .
- لقد انتصرت إراده الشعب المصرى يا بلبل على قوى الطغيان وسلطوى أسطورة بريطانيا العظمى فى قبور الشهداء إلى الأبد لتزول ويخلدون .

ابتسم نبيل ناظراً إلى السماء ثم قال:

"سلمت يا مصر ودامت عزتك مادامت على الأرض حياه" .

**تمت بحمد الله تعالى وفضله**